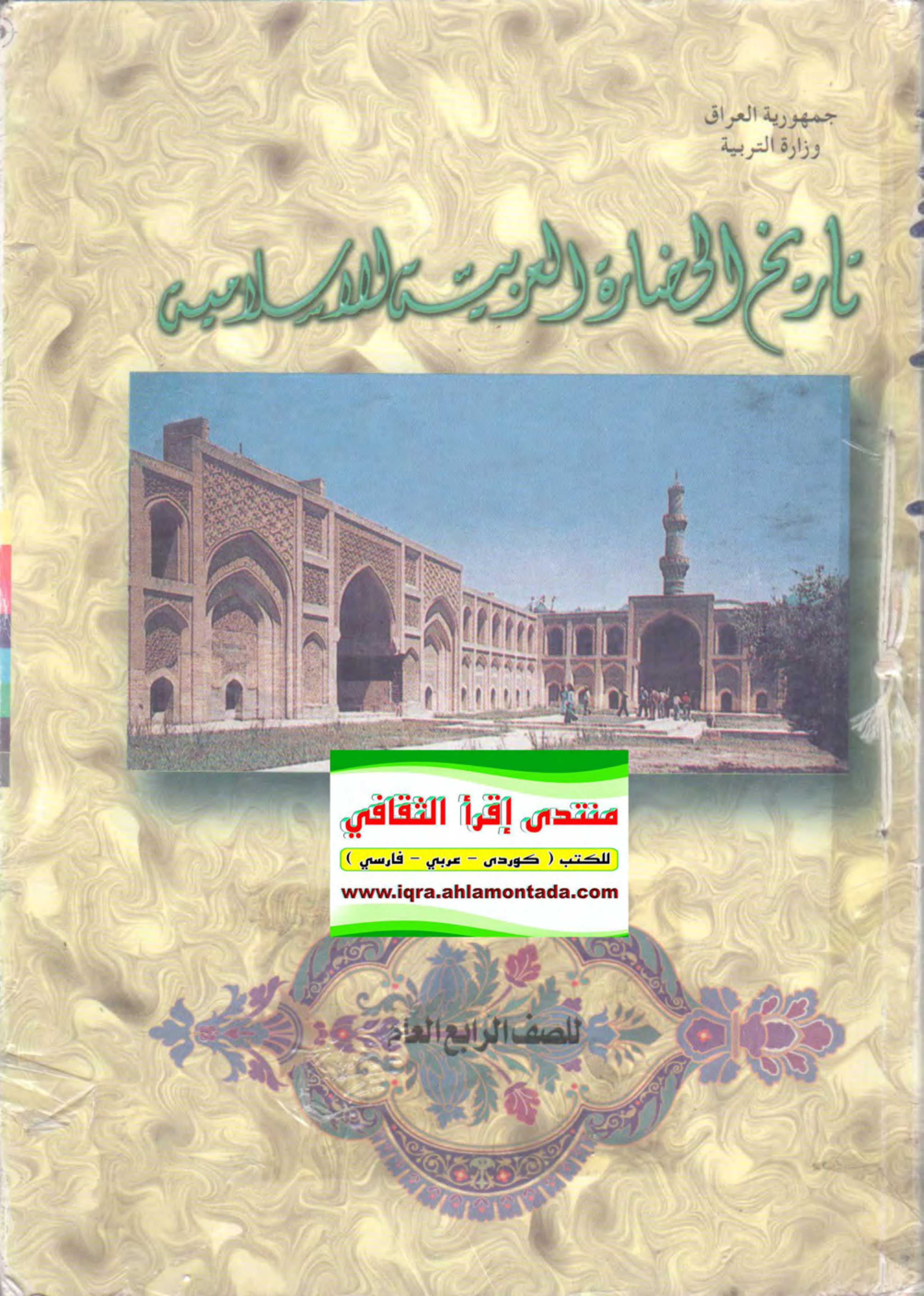


جمهورية العراق
وزارة التربية
تاريخ الحضارة العربية الإسلامية
منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردى - عربي - فارسي)
www.iqra.ahlamontada.com
للصف الرابع العام

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وبعد

تم تأليف هذا الكتاب ليكون ملائماً لمستوى طلبة الصف الرابع العام ومنسجماً مع ما يدرسونه من مواضيع . وقد وقف على تأليفه وتنقيحه لجنتان في وزارة التربية وكان رائد اللجنتين تقديم مادة حضارية مفهومة بعبارة موجزة تعزز ثقافة التلاميذ وتنمي شعورهم الوطني والقومي وتطلعهم على منجزات اسلافهم وآثارهم في الحضارة الانسانية فتناول الباب الأول القاء الضوء على معالم الحضارة العربية قبل الاسلام. ويتناول الباب الثاني ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية الاسلامية. وخصص الباب الثالث لبحث النظام الاداري والوزارة والكتابة والجباية والامارة على الأقاليم بينما بحث الباب الرابع النظام القضائي وجاء الباب الخامس مخصصاً للنظام الحربي والباب السادس عن حياة السكان في الريف والمدن وما فيها من حرف ومهن ونشاط بشري وعمراني وتناولت الأبواب السابع الى العاشر الحياة الفكرية وخصائصها ومراكزها مع دراسة للعلوم الدينية والانسانية واللسانية والعقلية. أما الباب الحادي عشر فقد بحث في الفن وخصائصه وميادينه في شرح بعض مصطلحاته والاستعانة بالأمثلة وتحقيق زيارة المتاحف والمواقع الأثرية ذات العلاقة كلما استطاعوا الى ذلك خدمة لحضارتنا وشعبنا وأمتنا والله ولي التوفيق.

لجنة التنقيح

الباب الأول

العرب قبل الاسلام

الفصل الأول

الدول العربية قبل الاسلام
(٥٣٩ ق . م - ٦١٢ م)

الأوضاع السياسية :

لقد شهد الوطن العربي حقبة طويلةمن الهيمنة الأجنبية حيث استولى الفرس على بابل ٥٣٩ ق.م واستولى اليونان على الشام ومصر والعراق. ومن ذلك الوقت تقاسم الغزاة النفوذ والسيطرة فقد أعقب تعاقب اليونان والبيزنطنيين في السيطرة على بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا وتعاقب الفرثيين والساسانيين في السيطرة على العراق وجزء من الخليج العربي واليمن.

لقد فرضت الطبيعة الجغرافية والأوضاع الاقتصادية والاحتلال الأجنبي على العرب أوضاعاً سياسية محددة في الفترة التي نتحدث عنها (٥٣٩ ق.م – ٦١٢م) ففي حدود الوحدات القبلية التي كانت تنتقل في البوادي ، كانت القبيلة وحدة اجتماعية وسياسية تقوم على نظام القرابة لأناس ينحدرون من أصل واحد وينظمون في أسر تربطهم رابطة الدم أو القرابة وعادة ما تحمل القبيلة اسم الجد الأول . كما أن القبيلة هي وحدة سياسية لها سلطة يمارسها رئيس القبيلة ، والذي هو منتخب من قبل أبناء القبيلة يساعده مجلس القبيلة . وكثيراً ما كانت القبيلة تدخل في محالفات أو تكتلات مع قبائل أخرى .

أما في المجتمعات المستقرة حيث تمارس النشاط الاقتصادي المتنوع زراعياً أو تجارياً أو صناعي فقد نشأت دول ، وامارات وممالك في هذه الفترة وهي : الدول في اليمن والامارات ذات النشأة التجارية أو الحدودية .

تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من شبة الجزيرة العربية وتطل على البحر العربي وهي المنطقة الأخصب في مواردها الاقتصادية والتي تتمتع بتكوين بشري كبير ، وقد شهدت تطوراً في الحياة الاجتماعية تمثل في دورها التجاري . لقد أفاد أهل اليمن من موقع بلادهم كنقطة انطلاق لطرق التجارة البرية ونقطة التقاء طرق التجارة البحرية فأدى ذلك إلى أن يكون لهم دور في التجارة العالمية ، والتجارة ليست عملية نقل البضائع فحسب ، انما هي عملية تحتاج إلى خبرة في طبائع الشعوب وطبيعة البلدان ، والطرق البرية والبحرية والساكنين حولها ومواضع الماء واتجاهات الرياح ، اضافة إلى البضائع .

واضافة الى هذا النشاط طور أهل اليمن استغلال امكانياتهم الطبيعية واتجهت جهودهم إلى نظام الري فمشكلة اليمن هي عدم توافر المياه لأغراض الزراعة بشكل دائم وتوافرها في مواسم معينة بكميات تزيد عن الحاجة لذلك كونوا نظاماً دقيقاً للري الهدف الأساسي هو الاحتفاظ بفائض المياه في موسم المطر واستخدامها في مواسم لا يسقط فيه المطر فأنشأوا نظاماً للسدود يبدأ من رؤوس الأودية وينتهي بخزانات وسدود مركزية واسعة قد بلغ عدد السدود في الهضبة الوسطى وحدها ثمانين سداً غير أن أشهر هذه السدود هو سد مأرب الذي ارتبط في التاريخ بقصة انتشار الازدهار ، وشهدت اليمن تقدماً صناعياً اعتمد على امكانياتها المعدنية وثروتها الزراعية والحيوانية وتقدمت فيها صناعات الجلود لتأمين الاستخدام الاجتماعي للجلود في المفارش والأحذية والبسة الجيوش ، كما تقدمت فيها صناعة الأنسجة ، وقد اشتهرت اليمن بصناعة الملابس الرجالية والنسائية كما اشتهروا بصناعة الأسلحة .

هذا فقد طور أهل اليمن نظاماً في الادارة الاجتماعية والسياسية وأقاموا نظاماً سياسياً يقوم على الملكية ودولهم هي :

١- دولة سبأ الأولى ، عاصمتها صرواح من ٧٥٠ ق.م -٦١٠ ق.م

٢- دولة سبأ الثانية ، عاصمتها مأرب من ٦١٠ق . م - ١١٥ ق.م



٣- دولة معين وعاصمتها قرناو من ٧٠٠ق.م - ٢٠٠ ق.م

٤- دولة قتبان وعاصمتها تمنع من ٤٠٠ ق.م - ٥٠ ق.م

٥- دولة حضرموت من ٥٥٠ ق.م - ١٠٠م

٦- الدولة الحميرية وعاصمتها ظفار من ١١٥ق.م - ٥٢٣م

نشأت بعض الامارات والممالك العربية لأسباب تجارية ، فعندما تسكن قبيلة في موقع ملائم من حيث امكانياته الطبيعية وموقعه على طرق التجارة ومن أمثلة هذه الامارات هي امارة البتراء التي أسسها الأنباط في القرن السادس ق.م واستمرت الى سنة ١٠٥م عندما جعلها الرومان ولاية من ولايات الامبراطورية الرومانية . وقد نشأت الامارة في منطقة صخرية تتمتع بامكانيات مائية جيدة على طريق التجارة القادمة من اليمن الى الشام. والطريق المتجه من مصر الى الشام والعراق .

ومن هذه الامارات أيضاً امارة تدمر التي اقامتها احدى القبائل العربية في منطقة آبار للمياه على طريق التجارة بعد تحوله عن البتراء ، وقد ظهرت أهمية هذه الامارات السياسية في أثناء الصراع البيزنطي الفارسي الى جانب أهميتها التجارية ، غير أن محاولات ملكتها



بوابة الشارع الرئيسي في تدمر (القرن الثاني الميلادي) .

الزباء الاستقلالية أدت الى السيطرة الرومانية عليها سنة ٢٧٢م وأسر ملكتها وقتلها .

من الامارات العربية الحدودية امارتي الغساسنة والمناذرة وهما قبيلتان من اليمن خرجتا على الأرجح عند انهيار سد مأرب مع خروج قبائل الأزد وانتشارها في الوطن العربي، وقد تأسست امارة الغساسنة على حدود الدولة البيزنطية على يد جفنة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء وقد ازدهرت الامارة في عهد الحارث الثاني بن جبلة (٥٢٩ ق.م - ٢٦٩ق.م) الذي أقدم الامبراطور البيزنطي على اعتقاله عندما رأى أن له اتجاهات استقلالية فانتهت بعده الإمارة .

ومن الامارات الحدودية امارة المناذرة في الحيرة التي تقع على بعد ثلاثة أميال من الكوفة، وقد تأسست في أوائل القرن الثالث الميلادي على يد عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن لخم . لقد بلغت الامارة أوج ازدهارها في عهد النعمان الأول (٤٠٠م - ٤١٨م) والمنذر الأول (٤١٨ م- ٤٦٢ م) غير أن ظهور اتجاهات استقلالية لدى النعمان الثالث (٥٨٠م - ٦٠٢ م) ومحاولة تشكيل منطقة نفوذ عربي تضم قبائل شرق شبه الجزيرة العربية ووسطها أدى الى سجنه ومن ثم قتله لتنتهي بذلك هذه الامارة .

لقد طورت هذه الامارات أوضاعها الاجتماعية معتمدة على التجارة والزراعة وعرفت الاستقرار في المدن حيث شيدت القصور التي تنتشر آبارها الى الآن ، ومن أشهر هذه القصور قصري الخورنق والسدير اللذان شيدهما النعمان الأول ملك الحيرة (٤٠٠م - ٤١٨م) .

من المنطقة الوسطى وفي شمال شبه الجزيرة العربية ظهرت مملكة كندة ، وكان ظهورها بتشجيع ملك اليمن حسان بن تبع الحميري ، وقد ظهرت هذه المملكة حوالي سنة ٤٨٠ م في شكل تحالف قبلي كبير ضم قبائل شمالية بقيادة أسرة ملكية جنوبية هي كندة في عصر أحد أبرز رؤوسائها فجر آكل المرار .





خارطة دول شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام.

فقد العرب استقلالهم السياسي في القرن السادس الميلادي حيث احتل الأحباش اليمن وتبعهم الفرس في السيطرة عليها . واضمحلت امارتا الغساسنة والمناذرة وسقطت مملكة كندة أيضاً . غير أن مدناً عربية استطاعت أن تطور أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية وتواصل قيادة التطور التاريخي للأمة العربية وفي مقدمة هذه المدن مكة التي تقع في وادي غير ذي زرع " بين جبال جرداء على مسافة ٧٥ كم من ساحل البحر الأحمر ، ويشكل موقعها عقدة مواصلات مع طرق القوافل بين الجنوب والشمال عبر غرب شبه الجزيرة العربية . وقد ارتبط نشأة مكة بحادثين تأريخيين هما نزول آدم من السماء الى الأرض وسيره اليها حسبما تذكر الروايات . وبناء ابراهيم الخليل (عليه السلام) البيت فيها واتخاذه مركزاً للتوحيد وعبادة الله سبحانه وتعالى وفق عقيدته التي عرفت بالحنيفية ، لذلك نجد أن اسم مكة كان قد ارتبط بالقدسية وعرفت بأسماء متعددة تدل على هذه السمة مثل البيت العتيق ، وبكة، وأم القرى وغيرها . ٣

أما سكان هذه المدينة فقد ارتبط تاريخ الاستقرار فيها بأولاد اسماعيل بن ابراهيم الخليل (عليه السلام) واشتهرت منهم أقوام مثل العمالين ، وجرهم ، وخزاعة ، وقريش التي ارتبط نزولها مكة بقصي بن كلاب الذي جمع القبيلة واسكنها مكة وكانت قبيلة متفرقة في بني كنانة. واستطاع أن ينتزع مكة من قبيلة خزاعة . وقد أنزل قصي قريشاً في الوادي وقسم ما حول البيت خططاً أنزل فيها عشيرته الأقربين (قريش البطاح) وأمرهم بقطع شجر الوادي واستخدامه في بناء الدور واهتم بالكعبة فعني ببنائها ووضع الحجر الأسود فيها ، وحفر الآبار ونظم شؤون المدينة الاجتماعية ، وأسس دار الندوة وكانت مقراً تمارس فيه قريش ادارة شؤون حياتها العامة .

وقد اهتم بتنظيم الحج الى مكة ، وأوجد الوظائف التي تؤمن لوازمه واحتياجاته واختص لنفسه بوظائف الحماية والسقاية والرفادة ، ودار الندوة ، واللواء ، وقد اكسبت هذه الأعمال قصي مكانة مرموقة وقوت قريش وعززت أهمية مكة .

هذا وقد ترتب على موقع مكة ووظيفتها الرئيسة ميزة اقتصادية أساسها التجارة ، وبعد سقوط اليمن بيد الأحباش أفاد أهل مكة من موقعهم التجاري ليكونوا لأنفسهم دوراً في التجارة الداخلية ، ونتيجة الصراع الساساني – البيزنطي أفادوا في انتزاع التجارة العالمية ، وفي هذا الصدد يشار إلى ايلاف قريش وهي اتفاقياتها المعقودة مع القبائل لأغراض التجارة. كما يشار إلى قيام أولاد قصي بعقد اتفاقيات لتنظيم الدور العالمي في التجارة ، وقد كان نشوء سوق عكاظ تعبيراً عن هذا الدور .

أهميتها

وكان في شبه الجزيرة العربية عند ظهور الاسلام عدد من المدن المستقلة التي كان في كل منها تنظيمات خاصة ، ومن أشهر هذه المدن (مكة المكرمة) .

ومكة المكرمة لها أهمية كبيرة في تاريخ العرب والاسلام ، اذ انها كانت من أكبر المراكز الدينية في شبه الجزيرة العربية للحج وزيارة الكعبة الشريفة ، كما كانت مركزاً تجارياً كبيراً، وقد أسهم أهلها في التجارة ، وهذا مما ساعد أهلها على الاطلاع على أحوال البلاد الأخرى، ووسع آفاقهم . كما أدى إلى ظهور مؤسسات إدارية فيها .

وفي مكة المكرمة ولد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وعاش وبلغ رسالته لمدة ثلاث عشرة سنة ، وكان لأوضاعها الدينية والاجتماعية أثر كبير في تاريخ الاسلام وقد عارض معظم أهل مكة المكرمة الدعوة الاسلامية وشغلوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فترة من الزمن فلما أتم فتح مكة ، دخل أهلها الاسلام وساهم عدد من رجالهم في قيادة الجيوش الاسلامية وفي حروب التحرير ، وادارة الدولة الاسلامية .

موقعها

تقع مكة المكرمة في واد ضيق يمتد بين جبال عالية ، ومناخها حار جاف في الصيف ،

وأمطارها قليلة جداً ، لذلك كانت مياهها شحيحة ، وكان سكانها يعتمدون على الآبار للحصول على مياه الشرب ، وقد قام بعض رجال مكة المكرمة بحفر الآبار واهتموا بتوفير الماء للحجيج ومن أشهرها بئر زمزم .

ومكة المكرمة " في واد غير ذي زرع " اذ ان المياه فيها لا تكفي لغير الأعشاب التي تنبت على اثر سقوط الأمطار وتستمر لمدة قصيرة ، كما تنبت في جبال مكة المكرمة بعض النباتات والشجيرات الصحراوية التي يستفاد منها للوقود والبناء . غير أن هذه النباتات لا تفيد في تزويد أهل مكة المكرمة بالمواد الغذائية ، ولذلك كانوا يستوردون ما يحتاجون إليه من المواد الغذائية من المدن وبخاصة من الطائف واليمامة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك قال تعالى :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ (١)

الكعبة الشريفة :

كانت لمكة المكرمة أهمية خاصة بفضل وجود الكعبة الشريفة فيها ، وهي بيت الله الحرام الذي ورد ذكره في عدة آيات قرآنية، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٧ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٢٦ ﴾ (٣)

ويتبين من آيات القرآن الكريم أن مكة مقدسة منذ القدم وأن ابراهيم الخليل (عليه السلام)

---

(١) سورة ابراهيم - ٣٨

(٢) سورة آل عمران - ٩٦ - ٩٧

(٣) سورة البقرة ١٢٥ - ٢٣٧

هو أول من اتخذ مقامه في مكة المكرمة وهي الذي رفع قواعد البيت ، فصار ما حوله بلداً آمناً ، ومركزاً يحج الناس إليه والواقع أن اعداداً كبيرة من العرب كانت تفد سنوياً إلى مكة المكرمة للحج وزيارة بيت الله الحرام .

وبالنظر لمكانة الكعبة الشريفة وأهميتها فقد عُني بها أهل مكة المكرمة وأعادوا بناءها قبيل البعثة النبوية ، وكانوا يشرفون على عمارة البيت ، كما عني أهل مكة المكرمة بأمر الحج ، فكانت الأشهر التي يتم فيها الحج مقدسة لا يجوز القتال فيها ، وذلك لكي يؤمنوا مجئ الحجاج كما أنهم كانوا يوفرون الماء والطعام لهم ، وكان الحجاج يطوفون : بالكعبة الشريفة ، ويقفون عند عرفة ، ثم يحتفلون بعد اتمام الحج في أخذ زينتهم .

وقد اهتم المكيون بالتجارة وساهموا فيها ، وشجعهم على ذلك قدسية مكة ، واقبال الناس عليها للحج ، لأنها مركز تجاري بين اليمن وبلاد الشام ، وكانت منذ أقدم الأزمنة من المحطات الكبرى للقوافل .

وقد ازدادت أهمية مكة المكرمة منذ القرن الخامس الميلادي عندما نشبت حروب دامية بين الفرس والروم ، فتعرقل نقل سلع بلاد الصين والهند عن طريق العراق ، وأخذ الروم يجلبون تلك السلع عن طريق اليمن حيث كانت تنقل منها براً إلى الشمال وتمر بمكة المكرمة ومنها إلى بلاد الشام . ولتأمين هذا الطريق حرض الروم الأحباش فاحتلوا اليمن وارسلوا لاحتلال مكة المكرمة حملة باءت بالفشل وظلت مكة المكرمة تتمتع باستقلالها وحريتها وتمارس نشاطها التجاري .

ولم يكتف أهل مكة المكرمة بأن تكون مدينتهم محطة للقوافل ، بل كانوا يقومون بأنفسهم بالتجارة ، وقد ساهم معظم أهل مكة المكرمة بالتجارة ، وشارك الرسول الكريم ﷺ في بعض قوافلها . كما شاركت أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) بهذه التجارة . ولم تكن تجارتهم محصورة بمنطقة واحدة ، بل امتدت إلى عدة أقطار وخاصة (العراق وبلاد الشام والحبشة واليمن) .



الكعبة المشرفة .

فأما العراق فقد كانت تجارتهم بصورة خاصة مع الحيرة التي ذهب إليها عدد غير قليل من أهل مكة المكرمة للتجارة ، كما كان المناذرة وهم ملوك الحيرة يرسلون قوافل تجارية تحمل المسك والمنسوجات خاصة إلى الأسواق الرئيسة التي كانت في مكة المكرمة وفي عكاظ وذي المجاز . سوقان قريبان من مكة المكرمة .

وكان لمكة المكرمة مع الحبشة تجارة منتظمة مستمرة ، وقد حاول ابرهة الحبشي احتلال مكة المكرمة ولكنه فشل ، فاستمرت التجارة ، وظلت " أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، رفاغاً من الرزق ومتجراً حسناً " ، وقد هاجر إليها المسلمون الأولون عندما ازداد اضطهاد قريش لهم ، وكانت سفن أهل الحبشة تأتي إلى موانئ الحجاز في البحر الأحمر ، وكان أهل مكة يصدرون إلى الحبشة الجلود ، ويستوردون منها التوابل والعاج .

وكانت قوافل أهل مكة المكرمة تذهب إلى اليمن أيضاً في الشتاء ، وتستورد منها العطور والجلود والأقمشة والسيوف والتوابل .

غير أن أوسع تجارة لأهل مكة المكرمة كانت مع بلاد الشام ، حيث كانوا يصدرون إليها بضائع الهند واليمن ، ويتسوردون منها الزيت والحبوب والأسلحة والمنسوجات ، وكانت القوافل المكية تذهب سنوياً في الصيف إلى بلاد الشام ، وبخاصة إلى بصرى وغزة . وكانت

بعض هذه القوافل كبيرة ، فيروى أن القافلة التي خرج المسلمون لمهاجمتها في بدر " لم يكن من قريش بيت الاوله فيها شئ " . وكان أهل مكة المكرمة يهتمون بتنظيم القوافل ويرافقونها أيضاً . ولتأمين سير هذه القوافل عقد أهل مكة المكرمة مع القبائل والدول المجاورة التي تمر في ديارها الاتفاقيات وتسمى (الإيلاف) ، وقد أشار إليها القرآن الكريم :

(١)

ان السيادة في مكة المكرمة كانت قديماً لقبيلة جرهم ، ثم انتقلت إلى خزاعة . ثم آلت إلى قصي من خزاعة في مكة المكرمة ، فجعلها لقريش . وقد قسم قصي قريشاً إلى عشائر ، أوطن هذه العشائر في أطراف مكة المكرمة وهي تسمى "قريش الظواهر" وأهم بطونها وهم تيم الادرم ومحارب والحارث ابنا فهر وأوطن بعضها الآخر في داخل مكة المكرمة وهي التي تسمى "قريش البطاح" وأهم بطون قريش البطاح هم بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو سهم ، وبنو مخزوم ، وغيرهم . وكان رجال هذه البطون يتولون ادارة مكة المكرمة ويساهمون في النشاط التجاري والاقتصادي وقد استوطن في مكة المكرمة ايضاً بعض العرب من غير قريش لأغراض تجارية أو دينية ، وقد أصبح بعضهم حلفاء لأهل مكة المكرمة .

تنظيمات مكة المكرمة

وقد أدى اجتماع الناس في مكة المكرمة واستقرارهم فيها إلى ايجاد تنظيمات سياسية لتنسيق ادارتها وتأمين مصالح أهلها ، فكان أهل مكة المكرمة يشتركون جميعاً في مناقشة القضايا الرئيسة التي تهم البلد ، كما كان لمكة المكرمة سيد يشرف على سير الأمور العامة . ولكل عشيرة رئيس ينظر في أمور افرادها ، ونادٍ أو مجلس تجري فيه المناقشات والمسامرات .

(١) سورة قريش / ١ - ٤

وكان في مكة المكرمة دار الندوة ، يجتمع فيها الملأ ، وهم أولاد قصي وممثلون عن كل عشيرة ، لبحث ومناقشة الأمور المهمة كعقد المعاهدات والاتفاقيات ، ولما كانت مكة المكرمة مركزاً دينياً يحج اليه عدد كبير من الناس ، فقد اقتضى ذلك تنظيم الحج ونشأت فيها عدة وظائف لتنظيم أمور الحج وادارة مكة المكرمة وأهم هذه الوظائف هي :

١ - الإجازة والإفاضة ، ويكون القائم فيها مسؤولاً عن اجازة الحجيج من عرفة وافاضتهم من المزدلفة أي تعيين مواعيدها .

٢ - النسيئ وهو تقرير الأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب) وتنظيم مواعيد الحج .

وقد اقتضت أحوال مكة المكرمة إحداث عدد من الوظائف الادارية والعسكرية وتروي المصادر أن قصياً لما أصبحت له السيادة في مكة المكرمة انشأ هذه الوظائف وجعلها بيده ثم صارت بيد أولاده من بعد ، وأهم هذه الوظائف هي :

١ - الحجابة : والقائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة المشرفة ويأذن للناس في دخولها .

٢ - عمارة المسجد الحرام .

٣ - السقاية وهي تتطلب توفير الماء للحجاج .

٤ - الرفاده التي تتطلب توفير الطعام للحجاج .

٥ - أما الوظائف العسكرية فاهمها اللواء ، والقيادة ، والأعنة .

ولم تكن في مكة المكرمة وظيفة قاض أو حاكم يفصل في القضايا التي تحدث بني الناس ، فكان الناس يلجأون في الخلافات التي تحدث بينهم إلى رؤساء العشائر أو الى محكمين أو الى الكهان ، الا ان هؤلاء لم تكن لهم سلطة لتنفيذ قراراتهم ، وقد أدى هذا إلى غبن الضعفاء وكثرة المظلومين . مما ولد أخطاراً تهدد الاستقرار في مكة المكرمة ، وقد شعر عدد من أهل مكة بهذا النقص وخطره فكونوا (حلف الفضول) لنصرة المظلومين وحمايتهم من الظلم ، ولكن حلف الفضول لم ينجح في نشر العدل ، فلما جاء الاسلام أولى القضاء والعدالة عناية خاصة .

التنظيمات الاجتماعية للقبيلة :

تتكون القبيلة من عدد من الأفراد يجمعهم نسب واحد ويعيشون سوية في حلهم وترحالهم ، ويشتركون في واجبات القتال وفي دفع الدية ، وتختلف القبائل في عدد أفرادها، فبعضها تتكون من عدد كبير من الأفراد ، وبعضها قبائل صغيرة لا يضم كل منها الا عدداً قليلاً من الرجال ، ويتوقف حجم القبيلة على قدرتها على الدفاع وعلى وفرة المراعي ، فالقبيلة التي تقطن في أرض ممرعة تحتفظ بوحدتها وتماسكها مهما زاد عدد أفرادها ، اما اذا كانت ديارها مجدبة فقد ينفصل منها بعض أفرادها ويكونون قبيلة مستقلة، ولكنها تبقى متصلة بالقبيلة الأم برابطة النسب ، كما ان القبيلة اذا تعرضت لتهديدات واخطار فإنه قد تضطر إلى الاندماج بقبائل أخرى ، والغالب انها تندمج بأقرب القبائل نسباً إليها ، وهكذا فإن عدد القبائل غير ثابت ، فقد تظهر قبائل جديدة ، وتزول قبائل أخرى بانضمامها إلى غيرها .

التكوين الاجتماعي للقبيلة :

وتتكون القبيلة من العرب الصليبة ، والحلفاء والعبيد ، فأما الصليبة فهم أفراد العرب الذين ينحدورن من الجد الأعلى للقبيلة ، ولذلك فهم مرتبطون ببعضهم بصلة النسب ، وكل فرد منهم يعتز بشخصيته وفرديته ومكانته في القبيلة ويعتبر نفسه مساوياً لغيره من الأفراد ، غير أنهم في الواقع يختلفون في قابليتهم الجسمية ومزاياهم الأخلاقية ، والمثل الاخلاقي الأعلى عندهم هو المروءة التي تتطلب الشجاعة وحب الحرية والدفاع عن العرض وحفظ الجوار ، ويكتسب من يتحلى بها الشرف والرفعة ، ويتميز فيها عن الذليل والمهان .

أما الحلفاء فهم أفراد من قبائل أخرى يلجأون إلى القبيلة ويضعون أنفسهم تحت

حمايتها أو حماية فرد منها ويتعاونون معهم ، فهم يرتبطون مع القبيلة بروابط اجتماعية ، وليس برابطة النسب . ويلجأ الأفراد إلى محالفة القبيلة أما المتاجرة مع أفرادها أو الزواج من احدى نسائها ، غير أن معظم الحلفاء هم ممن تخلعهم قبائلهم الأصلية لسوء سلوكهم أو لارتكابهم جرائم قتل ، فيضطرون إلى اللجوء إلى قبيلة أخرى يقعون في دخالتها ويطلبون حمايتها . والعادة أن القبيلة تقبل دخالتهم فتحميهم وتدافع عنهم ، وتدفع عنهم الدية ، وترثهم ان لم يكن لهم وريث ، كما أن على الحليف أن يتعاون مع أفراد القبيلة ويدافع عنها عندما يدهمها أي خطر .

مكانة المرأة

المجتمع البدوي يتبع نظام الأبوة ، أي أن للرجل السيادة والسلطة في البيت على الأولاد قبل بلوغهم ، وعلى المرأة ، غير أن مكانة المرأة كانت كبيرة تتناسب مع دورها في الحياة ، فهي تقوم بقسط كبير من العمل في البيت ، كما تقوم في الحروب بتضميد الجرحى ورعايتهم وتزويد المقاتلين بالماء والزاد .

وكانت رعاية المرأة واحترامها من عناصر الشرف ، والدفاع عنها من المروءة التي تستحق الفخر ، وكانت تعامل بالاحترام وتخاطب بوقار حتى سميت بعض الآلهة بأسماء البنات مثل ، اللات والعزى ومناة . وقد اصبحت بعض النساء ملكات ومن أشهرهن بلقيس ملكة سبأ ، والزباء ملكة تدمر ، وقد اشتهرت عدة نساء عربيات بمكانتهن في المجتمع العربي قبل الاسلام مثل ، هند أم عمرو بن هند ، وماء السماء ، أم النعمان بن المنذر ، وهما من ملوك المناذرة ، والواقع أن المرأة كانت تتمتع بحقوق غير قليلة ، فلها الحق ان تمتلك املاكاً خاصة، ولها أن تساهم في التجارة ، وخير مثل على ذلك أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) .

وكان الرجال العرب يهتمون باختيار الزوجة ممن تكون كفأ لهم في النسب وأن يتوافر فيها الخلق الرفيع والذكاء والجمال . وهم يعتقدون أن الزواج بالأباعد أدعى إلى انجاب النجباء (الأذكياء) من الأولاد . غير أنهم قلما كانوا يتزوجون نساءاً من خارج القبيلة ، وكثيراً ما يتزوجون بنات عمهم .وكان للمرأة رأي في الزواج ،فلم تكن تجبر على الزواج بمن لا تريد .

التنظيم السياسي للقبيلة

القبيلة هي وحدة سياسية تشبه الدولة بمفهومها الحديث ، اذ أن فيها شعباً يرى أفراده أنهم ينحدرون من أصل واحد ، ولها سيادة تامة ، وتتبع تقاليد وأعرافاً لها حكم الدستور. وقد تتجول من مكان إلى آخر . وان تجوالها في أغلب الأحيان محصور ضمن منطقة خاصة بها تدعى (الدار) وقد تنشئ القبيلة أو الشيخ " حمى " خاصاً أي منطقة ثابتة من الأرض لا يجوز للغير استغلالها أو التجاوز عليها .

ويرتبط أفراد القبيلة بشعور التماسك الذي يقوم على أساس صلتهم بالنسب ، أي على رابطة الدم ، فهي لذلك دائمية وثابتة وطبيعية لا مكتسبة ، وهي تدفعهم إلى التعاون والتناصر والدفاع ضد الأخطار المهددة .

مجلس القبيلة

لكل قبيلة مجلس يجتمع في بيت شيخ القبيلة في المساء عادةً ، وقد يجتمع في النهار أحياناً . ويحضر المجلس من أراد من أفراد القبيلة ، ويتحدثون فيه بمختلف الشؤون الخاصة والأمور العامة التي تخص القبيلة وشؤونها الداخلية والسياسية وعن علاقاتها الخارجية . ولكل فرد الحق في أن يتكلم ويعرض آراءه ويدافع عنها ، غير أنه يسيطر في هذه المجالس في العادة من كان بليغ الكلام ، حسن المنطق ، قوي الحجة في المناقشات . وفي هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم ، ويلقي الخطباء خطبهم ، ويسمع الناس الآراء السديدة والأحاديث الطريفة . فهو اذن مدرسة أدبية يتربى الأفراد فيها على قوة البيان واللغة ، وتتكشف فيها مواهبهم الأدبية والسياسية .

التقاليد القبلية

لم يكن للقبائل قانون منظم مكتوب ، بل كانت لهم تقاليد وأعراف بسيطة واضحة يتمسكون بها ويحافظون عليها . وكان تأثير هذه التقاليد البسيطة عليهم قوياً لأنها تستند إلى الرأي العام في القبيلة . وكان الفرد يحرص على السير على تقاليد القبيلة لأنه

اذا خالفها أو قصر في واجباته ، أو اعتدى على حرمات القبيلة أو على أحد أبنائها ، نظر إليه أبناء القبيلة نظرة احتقار ، وعيروه ، وقد يؤدي الحال إلى أن ينبذوه ويطردوه من بينهم، وهذا يسمى في عرفهم (الخلع) ، أي اعلان البراءة منه ، وهذا أشد أنواع العقوبات . فالفرد بدون عشيرة تحميه لا يستطيع أن يعيش أمناً في مجاهل الصحراء .

الوعي العربي الوحدوي قبل الاسلام

اذا وقفنا قليلاً نستعرض احداث التاريخ العربي وتأملنا أبرز أدواره ، نجد بوادر الوعي العربي الوحدي قبل الاسلام وقد تمثل في هذا الاتجاه إلى تبلور لغة عربية موحدة بدل اللهجات المتعددة، وكانت هذه هي لغة الشعر التي أصبحت في ما بعد لغة القرآن الكريم ، واستقرت لتصبح اللغة القومية للعرب. وتجلى الوعي العربي أيضاً في شعور يدعو لوحدة العرب في جزيرتهم فكانت دولة كندة العربية التي قامت بمحاولة توحيد معظم القبائل العربية في الجزيرة تحت نفوذها ، خطوة في الاتجاه الوحدوي للعرب وقد نشطت حركة الشعور بوحدة القبائل العربية قبل الاسلام بقيام العديد من المحالفات في ما بينها لغرض الوقوف بوجه الأخطار والقوى الخارجية المعادية ، فقد اجتمع العرب مع سيف بن ذي يزن أمير اليمن لطرد الأحباش منها ، كما اتحدوا جميعاً بوجه خطر الفرس وهزموهم لأول مرة في موقعة ذي قار الشهيرة .

وتمثل الوعي العربي كذلك في نشاط حركة التجارة والأسواق داخل شبه الجزيرة العربية والتي تدل على الاتجاه نحو الوحدة ان هذا الوعي الذي ظهر في مختلف مرافق الحياة داخل شبه الجزيرة العربية يعد مرحلة تمهيدية للانتقال بالمجتمع العربي إلى مرحلة جديدة هي الاسلام .

مصادر ومراجع الباب الأول

محاضرات في تاريخ العرب	الدكتور صالح احمد العلي
تاريخ العرب	الدكتورجواد علي
بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب	محمود شكري الآلوسي
اخبار مكة	الازرقي
تاريخ الدولة العربية	الدكتور السيد عبد العزيز سالم

الأسئلة

١ ـ ما عوامل ازدهار الحضارة في اليمن قبل الاسلام ؟

٢ ـ ما أسباب ازدهار البتراء وتدمر ؟

٣ ـ ما أهمية دولة كندة في تاريخ العرب قبل الاسلام ؟

٤ ـ اشرح أهمية مكة المكرمة الدينية وأثرها في تنظيماتها .

٥ ـ تكلم عن أثر التجارة في حياة مكة المكرمة .

٦ ـ صف النظام السياسي للقبيلة ، وبين مظاهر الديمقراطية فيه .

٧ ـ تكلم عن مكانة المرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام .

٨ ـ اذكر أهمية العرف في الحياة البدوية .

٩ ـ تكلم عن الوعي العربي الوحدوي قبل الاسلام .

١٠ـ عرف ما يأتي : الايلاف ـ دار الندوة ـ الصليبة ـ حلف الفضول ـ ذي قار .

نشاط

- خُذ خريطة صماء للوطن العربي واشر عليها الدول العربية قبل الاسلام .
- اكتب تقريراً عن واحد من الموضوعات التالية :-

١- الوعي العربي الوحدوي قبل الاسلام .
٢- التقاليد القبلية .. وبين رأيك فيها .
٣- مكانة المرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام .



الباب الثاني ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية

في حياتنا القومية حدث مهم ، هو ظهور الاسلام ، وهو حدث قومي وانساني فيه تجربة غنية وهائلة من تجارب الانسانية ، فهو " حركة ثورية ثائرة على أمور كانت موجودة ومعتقدات وتقاليد ومصالح .. وبالتالي لا يفهمه حق الفهم الا الثوريون ، لأن حالة الثورة هي حالة واحدة لا تتجزأ ، لها نفس الشروط النفسية ، ولها نفس الشروط الموضوعية إلى حد كبير ، ولذلك فمن الطبيعي أن يكون الجيل الثوري ، الجيل الثائر على القديم الفاسد ، أقرب الناس إلى الاسلام فهما وتحسساً وتجاوباً " [1].

وأن يفهم أن " الاسلام تجربة واستعداد دائم "[2] فهو كثورة .. وكتجربة ثورية هائلة .. انه عقيدة ونضال في سبيلها .. وقضية أمة ، وقضية انسانية .. بل انه قضية أمة بتصور انساني أوسع .. ونضال على أروع ما يكون بأعلى مراحله ، وبما فيه من تنظيم دقيق وتثقيف .

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (٣)

هذه الآية الكريمة برهان ساطع على أن الاسلام يضع مسألة التطور والتجدد والثورة في صميم الشعب كقانون طبيعي يحتم بالدرجة الأولى ضرورة المراجعة الدائمة لمراحلها وتربية الأجيال الكفيلة بتجديدها وتطويرها .

لقد كان ظهور الاسلام في بلاد العرب بداية تحول خطير في تأريخهم وبداية تحول خطير في حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية ، فقد أحدث الاسلام تغييراً جذرياً في المجتمع العربي واقامه على أساس جديد ، وأزال ما فيه من الخرافات ، وابقى ما فيه من خير ، ووضع

---

(١) في سبيل البعث ، ط ١٩٨٦ – جـ ١ ، ص ١٤٢

(٢) في سبيل البعث ، ط ١٩٨٦ جـ ١ ، ص ١٤٢

(٣) سورة الرعد / ١١

بذوراً طاهرة تحفظ عليه كيانه من طغيان المادة ، ودعا إلى المساواة ، وحارب الظلم والاضطهاد .

ويمثل الاسلام ثورة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية في تاريخ العرب ، بل ويمثل قفزة نوعية حاسمة بالنسبة لهم ، فقد جمعهم على دين واحد ، وجعلهم يشعرون بأنهم أمة واحدة قوية ، تحمل رسالة سماوية خالدة ، بعد أن كانوا متفرقين ، وقد حققت هذه الأمة بوحدتها في فترة قصيرة جداً في حساب الزمن ما عجزت عن تحقيقه غيرها من الأمم والحركات .

والواقع أن ظهور الدعوة الاسلامية في مكة المكرمة رسم للأمة العربية طريقاً جديداً واضح المعالم ، ذلك أنها ارست أسساً جديدة في العقيدة الدينية وهيأت للأمة العربية مثلاً عليا في السلوك والأخلاق ، وهكذا ظهرت هذه الدعوة الجديدة لِتُعِدَّ الأمة العربية للنهوض بدور بارز في الحياة الانسانية وبمعنى آخر للخروج بالعرب من تاريخهم المحلي في الجزيرة العربية الى النطاق الانساني .

وقد ظهر الرسول الأعظم (ﷺ) بين العرب ، وكانت اللغة التي يتكلم بها العرب وينظمون فيها الشعر قبل الاسلام هي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي لغة الفرائض الاسلامية ، ثم صارت لغة العلم والمعرفة والفكر في العالم العربي والاسلامي .

لقد آمن العرب بالاسلام ودافعوا عنه ، ونشروه ، وقاموا بحركات التحرير الواسعة ، واقاموا الدولة العربية الاسلامية ، وكان لهم الأثر الأعظم في تقدم الحضارة الانسانية .

ان الاسلام ، كتجربة ثورية روحية واجتماعية ، قد جسد حقيقة الأمة العربية ، كما أن العروبة من جهة أخرى تشكل الضمان للمحافظة على جوهر الاسلام .

لقد كانت المرحلة بحاجة إلى ثوار مؤمنين بالدعوة الجديدة ومبادئها السامية ، يمدون بصلابتهم الثورية فكرتهم وايمانهم العميق ، وبذلك يمكن أن نقول : ان تلك المرحلة عبرت عن التحام الأداة المؤمنة المجاهدة بالفكرة الصحيحة ، وعبر الأبطال عن اخلاصهم وايمانهم بالمبادئ ، بالجهاد الدؤوب ، والصبر العظيم ، وتحمل العذاب والأذى . وحمل الرسالة

المسلمون الأوائل الذين عبروا بصدق عميق عن المرحلة الأولى من الدعوة حتى فتح مكة ، فقد عرفوا النضال من أجل المبدأ ، وذاقوا كل مرارته ، واجتازوا امتحانه ، وأدّوا كل ما وجب عليهم أداؤه نحوه .

الدولة العربية الاسلامية في عهد الرسول (ﷺ)

تنظيمات الرسول (ﷺ) في المدينة

لقد حملت النهضة الروحية الجديدة العرب على تنظيم انفسهم تنظيماً جديداً ، وقد بدأ هذا التنظيم في المدينة المنورة حيث قامت الدولة العربية الاسلامية في عهد الرسول محمد (ﷺ) وعندئذ بدأ عصر جديد في حياة العرب ، وأخذ الوعي العربي ينطلق في التعبير عن حقيقة ذاته بصورة عملية .

لقد كانت هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة فاتحة عهد جديد للأمة العربية الاسلامية ، وأصبح يوم الهجرة من الأيام الخالدة في الاسلام واتخذ المسلمون سنة الهجرة بداية التقويم الهجري . ولقد ضرب النبي (ﷺ) واصحابه (رضي الله عنهم) مثلاً رائعاً في التضحية عندما هاجروا من بلدهم مكة المكرمة إلى المدينة المنورة حرصاً على عقيدتهم بعد أن ضايقهم الكفار فتركوا أموالهم وأبناءهم وديارهم فراراً بدينهم وتضحية منهم في سبيل الله وكان القدوة في ذلك الرسول الكريم محمد (ﷺ) . وقد تابع الرسول (ﷺ) في المدينة نشر الاسلام وتوضيح تعاليمه وتثبيت فرائضه ، غير أن الظروف والأحوال التي واجهها في المدينة القت عليه (ﷺ) مهمات جديدة ، لا بد من تنظيم المجتمع وتنسيق الادارة وتكوين دولة يسود فيها حكم الاسلام وتسير بهدى مبادئه .

ومن المعلوم ان انتشار الاسلام وتكوين دولة يتوقف على سمو مبادئه وعظمة الأفكار التي يدعو إليها وعلى مدى نجاحه في التطبيق العملي ، لذلك كان لا بد من أن يكون تنظيم المدينة نموذجاً يوضح رسالة الاسلام وأثرها في تنشأت المجتمع المتقدم المزدهر ، كما

أن الرسول (ﷺ) لا بد له قبل التصدي لأعدائه وأن يجعل قاعدته متينة الأسس ، سليمة البنيان .

بناء المسجد

وقد بدأ الرسول (ﷺ) تنظيماته ببناء مسجد المدينة ليكون مقراً للحكومة الجديدة ، ومصلى للمسلمين ، ومقراً عاماً لاجتماعاتهم ولتشاورهم في الأمور العامة .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

وقد عمل الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة على تنظيم مجتمع سليم متماسك ، يتعاون اعضاؤه على الخير والرفاهية والتقدم . وكان المهاجرون الذين أخرجوا من مكة المكرمة قد تركوا أهلهم وأملاكهم ، وقد أصبحوا في حالة نفسية صعبة ، ولكن الأنصار من أهل المدينة المنورة رحبوا بهم وتعاونوا معهم ثم أعلن الرسول (ﷺ) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، فتآخى كل مهاجر مع رجل من الأنصار ، اذ قدم الأنصاري لمن آخاه من المهاجرين المأكل والمسكن ، وكان المتآخون يتوارثون فيما بينهم ، وهكذا وجد المهاجرون في الأنصار عوضاً عما فقدوه من الأهل والأصحاب في مكة المكرمة لقد تمت عملية دمج المهاجرين بالأنصار على شكل مآخاة ، وهذه المآخاة كانت منهجاً جديداً في حياة العرب ، ذلك أنها أحلت رابطة العقيدة محل رابطة الدم لقد رسخت المؤاخاة قيم التعاون من أجل خير الأفراد والجماعات وأظهرت أن التعاون عبر التاريخ كان سبباً مهماً لانتصار المجتمعات وتحقيق أهدافها .

وقد أبطل نظام المؤاخاة بعد موقعة بدر الكبرى، فقد زالت مبررات ايجاده باستقرار المهاجرين وكسبهم من عملهم . ولما أقصى الرسول (ﷺ) اليهود من المدينة المنورة لتآمرهم على الأمة وزع كثيراً من الأراضي على المهاجرين فأخذوا يعملون في تلك الأراضي ويعيشون على ما يجنونه من ثمارها ، كما أن فريقاً من المهاجرين أخذ يعمل في التجارة ، وصار يعتمد في معاشه على ما يربحه منها ، وبذلك تحسنت أحوال المهاجرين المعاشية ، كما أن ترحيب الأنصار بهم ساعد على تخفيف الأثر الذي ولده تركهم لديارهم .

لقد اهتم الرسول (ﷺ) بتنظيم المدينة المنورة وادارتها ووضع الأسس والمبادئ التي صارت أساساً لتنظيم الدولة العربية الاسلامية فيما بعد .

تتجلى تنظيمات الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة بالوثيقة التي وضعها والتي اطلق عليها اسم الصحيفة أو الوثيقة أو الكتاب وتعد بمثابة دستور للمدينة وقد تضمنت مبادئ عامة يتبعها أهل المدينة كافة من المسلمين وغير المسلمين . في السلم والحرب والفصل في الخصومات وتوفير الأمن لسكانها جميعاً . وقد ثبت الرسول (ﷺ) في هذا الدستور بعض الأسس العامة التي يجب أن تستند إليها الحكومات في ادارة شؤونها ونستطيع تلخيص تلك الأسس بما يلي .

١ – جعل الولاء للأمة الاسلامية محل الولاء للقبيلة التي كانت أساس المجتمع العربي قبل الاسلام .

٢ – جعل أخوة الدين أساس النظام الاجتماعي .

٣ – جمع الرسول (ﷺ) السلطتين الدينية والسياسية بيده .

٤ – الحرية والمساواة والشورى في الحكم .

تتكون مبادئ الصحيفة من ثلاثة أقسام متميزة ، يتعلق القسم الأول منها بالمسلمين ، والثاني يتعلق باليهود ، أما القسم الثالث فيحتوي على أحكام عامة تتعلق بأحوال المدينة المنورة .

ويوضح القسم المتعلق بالمسلمين الأحوال الجديدة للاسلام حيث أصبح المسلمون أمة واحدة يؤمنون بإله واحد ، ويطيعون رسولاً واحداً ، ويخضعون لأوامر دينية واحدة . لقد كون المسلمون بعد الهجرة " أمة واحدة من دون الناس " يرتبط أعضاؤها برابطة العقيدة الدينية ، فتنظيمهم يختلف عن تنظيم القبيلة من حيث إنه قائم على أساس العقيدة والفكر وليس على أساس الدم ، وما دامت الأمة تقوم على رابطة العقيدة فإنها تستند إلى مبادئ روحية واخلاقية .

وأفراد الأمة متساوون فيما بينهم في الحقوق والواجبات ، يسند بعضهم بعضاً ، ويحمي كل منهم الآخر ، وتتكافأ دماؤهم ، فهم متناصرون ، يساعد القوي الضعيف ، ويعين الغني الفقير .

إن وحدة الأمة وتماسكها يتجلى في موقفها من الجرائم المخلة بالأمن ، فالمسلمون يتكاتفون جميعاً أمام كل خطر يهددهم ، وهم يقفون يداً واحدة لصيانة الأمن ومطاردة المفسدين والمخلين بالأمن ، ولا يجوز لأحد أن يوالي الظالم والمجرم أو يؤازره أو يسعى في تخليصه حتى ولو كان ولده ، فالسلطة التنفيذية ليست مفروضة عليهم من الخارج بل هي نابعة من المجتمع الذي يدرك خطر الفساد ، ويتعاون أفراده في منع الفساد ومطاردة المفسدين ، ولهذا لم تكن للرسول (ﷺ) في المدينة المنورة شرطة تطارد المفسدين أو سجون تحجز المجرمين وقد سادت الأمة الاسلامية روح الجماعة فكان أعضاؤها يرتبطون برابطة العقيدة التي تعبر عن وحدتهم وتماسكهم ، وتتجلى من مساواتهم في الحقوق واشتراكهم في أداء الواجبات .

وقد اعترفت الصحيفة بالمجموعات العشائرية التي كانت قائمة ، غير أن التكتل القبلي كان لا بد أن يضعف ويزول أمام رابطة الأمة ومعرفة الناس بمبادئ الدين الاسلامي

وقد ضمن تنظيم الرسول (ﷺ) حرية الفرد ومكانته ، فقد أباح الاسلام لكل فرد حرية العمل ، وحق مزاولة الحرفة التي يريدها و والتنقل حيث يشاء ، كما أن الفرد أصبح مسؤولا عن أعماله وسلوكه الشخصي قال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾(١)

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(٢)

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(٣)

---

(١) المدثر / ٣٨ .

(٢) الأنعام / ١٦٤

(٣) الزلزلة / ٧، ٨ .

ومن الطبيعي أن يجد الفرد نفسه ملزماً بالتصرف طبقاً للمبادئ الاخلاقية السامية التي تؤكد على وجوب العمل وعلى نفع الناس وخدمة المجتمع وعدم الإضرار بمصلحة الأمة ، أي أن حرية الفرد ليست سائبة ، بل هي مرتبطة بحرية الأمة ومصلحتها . وقد اهتمت الوثيقة أيضاً بأمر العدالة وتنظيم القضاء وادارته ، وخصصت له عدداً غير قليل من الأحكام ، ويمكن القول بأن العدالة وتنظيم القضاء كانا من الغايات الرئيسة التي استهدفتها الوثيقة ولا بد أن هذا التأكيد راجع إلى ادراك الرسول (ﷺ) بأهمية العدالة والقضاء لكل مجتمع سليم ، وان فقدانها كان من أهم العيوب في المجتمع المكي والمجتمع المدني ، ومن أعظم أسباب القلق والاضطراب .

اهتم الاسلام بأمر العدالة والقضاء،وهما من الأركان الأساسية لكل مجتمع سليم.قال تعالى

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (١)

وبذلك تثبت القضاء .

لقد ركزت السلطة القضائية بيد الرسول (ﷺ) ، فهو الذي يحكم في الخلافات التي تهدد الأمن وتسبب الاضطراب سواء كان ذلك بين المسلمين أنفسهم أو مع اليهود ، فقد نص في الصحيفة " وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده الى الله وإلى محمد رسول الله " ، ومن واجب المسلمين الرجوع إليه وتنفيذ أحكامه في القضايا التي تهدد الأمن . من الطبيعي أن الخلافات البسيطة المحدودة كانت تسوي بين المختلفين دون حاجة إلى الرجوع إلى الرسول (ﷺ) .

لقد كان من أبرز مظاهر وحدة المدينة المنورة هو أمر الأمن العام ، والنظام القضائي الذي أكدت عليه الوثيقة وجعلته مركزاً بيد الرسول (ﷺ) .

(١) النساء / ٦٥

وكان أمر الحرب والسلم وما يتصل بهما من أبرز ما اهتمت به الوثيقة وخصصت له عدة نصوص ، ولا ريب ان الاهتمام به أمر طبيعي في تلك الظروف التي كان فيها الاسلام مقتصراً على المدينة وكان محاطاً بالخصوم والأعداء ، وكانت قضايا الأمن العام وأمور الحرب والسلم بيد الرسول (ﷺ) .

لقد كان الرسول (ﷺ) يقوم بالاشراف على ادارة الأمة وتدبير شؤونها ، أي أنه يمارس ما نسميه اليوم السلطة التنفيذية وقد أمر الله تعالى المسلمين بوجوب طاعة الرسول (ﷺ) وتنفيذ تعاليمه ، فقال تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (١)	﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٢)

يتبين مما ذكرنا أن ادارة الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة كانت تهدف الى تكوين أمة متماسكة فيما بينها ، للأفراد فيها حرية العمل والتنظيم ، وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة والأمن العام والقضاء وأمور السلم والحرب ، على أن تكون التقوى والأخلاق الفاضلة الاسلامية أساس أعمالهم وتصرفاتهم .

لقد أوضحت الصحيفة موقف المسلمين من يهود المدينة المنورة فقد تركت لهم حرية العقيدة ، وفي مقابل ذلك ألزمت اليهود بموالاة المسلمين وعدم التآمر عليهم وفتحت الباب أمام الراغبين منهم في الانتماء الى الأمة الاسلامية

لقد كانت حكومة الرسول (ﷺ) حكومة شورى . وقد أمر الله تعالي الرسول (ﷺ) أن يشاور المسلمين فقال تعالى

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (٣)	﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٤)

والواقع أن الرسول (ﷺ) كان يشاور أصحابه فيما ليس فيه نص قرآني ويأخذ بآرائهم ،

---

(١) المائدة / ٩٢

(٢) النساء / ٨٠

(٣) آل عمران / ١٥٩

(٤) الشورى / ٣٨

ولكنه كان يصدر الأحكام والقرارات مستوحاة من آيات القرآن الكريم حيث بينت آياته المبادئ والأسس التي يهتدي بها في الحكم ، وكان الرسول (ﷺ) يطبق هذه الأحكام .

وكانت حكومة الرسول (ﷺ) من غير دواوين ولا موظفين بالمعنى الحديث ، اذ كان يسند ما يستجد من الأعمال إلى اشخاص يختار كلا منهم لعمل معين ، وبذلك كان عددهم محدوداً ، وهم جميعاً يعملون بهدي الاسلام ولتحقيق المصلحة العامة . وقد أدرك المسلمون أهمية هذه التنظيمات في توفير الأمن والاستقرار فأخلصوا للرسول (ﷺ) وسمعوا عنه ونفذوا أوامره من تلقاء أنفسهم ومن دون حاجة إلى اكراه ، وساعد على ذلك شعورهم أن الأحكام نابعة من عقيدتهم وأن تطبيقها جزء من الدين .

حقق المسلمون بعد الهجرة إلى المدينة المنورة سلسلة رائعة من الانتصارات على المشركين في موقعة بدر الكبرى والخندق ، وقد توجت هذه الانتصارات بفتح مكة المكرمة في شهر رمضان (سنة ٨ هـ) وبذلك تحققت المرحلة الأولى والمهمة من مراحل توحيد الأمة العربية بالاسلام ، وخرجت الدولة العربية الاسلامية من نطاق دولة المدينة الى نطاق الدول الكبيرة ، ولم يمض عام واحد حتى امتد سلطانها إلى جميع انحاء شبه الجزيرة العربية .

وبدخول القبائل العربية في الاسلام بعد فتح مكة المكرمة وقدوم وفودهم إلى المدينة في عامي ٩ ، ١٠ من الهجرة تبدأ صفحة جديدة من تاريخ الدولة العربية الاسلامية حيث توحدت شبه الجزيرة العربية سياسياً ودينياً وأصبح العرب أمة واحدة تخضع لسلطة مركزية عاصمتها المدينة .

توفي الرسول الكريم (ﷺ) سنة ١١ هـ ، بعد أن ترك العرب على قدر كبير من الوحدة والقوة والعزة .

الدولة العربية الاسلامية في العصر الراشدي والأموي والعباسي

تهيأت الأمة العربية بعد أن تمت وحدتها في شبه الجزيرة العربية لتحمل الرسالة ونشرها خارج حدودها ، واخذت على عاتقها أمانة تبليغ دعوة الاسلام إلى أمم الأرض كافة وأن اتجاه تحرير الأراضي العربية التي كانت ترضخ تحت سيطرة الدولتين الساسانية والبيزنطية . وقد

برز هذا في الكتب والرسائل التي بعث بها النبي (ﷺ) إلى الملوك والأمراء المعاصرين له ومنهم كسرى وقيصر يدعوهم فيها إلى الدخول في الاسلام قبل أن يشتبك معهم في الحرب ، وأيضاً بدأ هذا الاتجاه في العمليات العسكرية التي قامت بها القوات العربية الاسلامية على أطراف الشام والتي تعتبر عملية اختراق وتحد للخطوط الأمامية لجبهة الدفاع البيزنطية .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هناك مشكلة خطيرة واجهت الدولة العربية الفتية بعد وفاة الرسول (ﷺ) مباشرة وتولي ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) الخلافة ، تلك هي حركة الردة التي اعلنتها بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية وهي حركات انفصالية هددت وحدة شبه الجزيرة العربية السياسية والدينية ، تلك الوحدة التي أرسى قواعدها الرسول العظيم (ﷺ) .

وقد وقف ابو بكر (رضي الله عنه) من هذه الحركات موقفاً صلباً شجاعاً ، ولما لم تفلح الطرق السلمية باقناع المرتدين بانهاء حركاتهم ، قضي على تلك الحركات بالقوة .

لقد نتج عن حروب الردة ترسيخ مبادئ الدين الاسلامي بين العرب كافة ، وقيام وحدة دينية وسياسية وذلك بخضوعهم لرئيس واحد وحكومة مركزية واحدة ، وتبع ذلك وحدة قومية، حيث اجتمعت القبائل العربية في وحدة متماسكة اصبحت فيما بعد قاعدة لانطلاق القوات العربية الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية لتحرير الأراضي العربية المحتلة ، ونشر الاسلام . وقد استطاع الخليفة ابو بكر (رضي الله عنه) ومن تبعه من الخلفاء في العصر الراشدي والأموي أن يكرسوا هذه الوحدة لإزاحة القوى التي ترابط على حدود شبه الجزيرة العربية ، والتي تكّون حاجزاً يمنع انتشار الاسلام ، فعملوا على القضاء على امبراطورتي الفرس والروم ، فانطلق الزحف العربي كالسيل الهادر يكتسح العوائق والسدود ويقوض أركان الحكم الفارسي والبيزنطي وكان نصراً عظيماً أحرزته القوات العربية .

لقد استطاعت القوات العربية خلال مدة قصيرة من الزمن أن تحرر العراق من السيطرة الساسانية وأن تنهي تلك الدولة إلى الأبد ، كما تم تحرير بلاد الشام ومصر والمغرب العربي من السيطرة البيزنطية .

وتمكنت القوات العربية كذلك من فتح اقاليم متعددة في الشرق والغرب ، ونشر الاسلام في ربوعها ، وتحرير سكانها من الظلم والاستعباد . ولقد تمكن العرب بعد الانتصارات الرائعة التي حققوها في معارك التحرير والفتوحات من اسقاط الدولة الساسانية ، وتقليص النفوذ البيزنطي ، واقامة الدولة العربية الاسلامية التي امتدت حدودها إلى الصين شرقاً والأندلس والمحيط الأطلسي غرباً .

ولقد عبرت حروب التحرير والفتوحات عن سعة الطاقات التي تزخر بها الأمة العربية بعد توحيدها .

وقد رافق ذلك تشييد صرح حضارة عربية اسلامية زاهرة كان لها دورها المهم في الحضارة الانسانية وتأريخ البشرية .

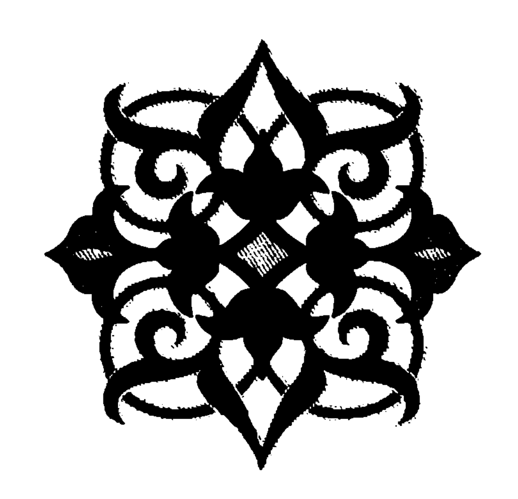
ومن أبرز نتائج حروب التحرير انتشار الدين الاسلامي واللغة العربية ، وكذلك خروج كثير من القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية إلى البلاد العربية المحررة والاستيطان فيها ، فاستوطن بعضهم في بلاد الشام ، واستقر الآخرون في وادي النيل والمغرب العربي ، كما انتشرت القبائل العربية في العراق ، واستقر بعضها ايضاً في الاندلس ، والأقاليم الشرقية .

لقد تطورت الدولة العربية الاسلامية في العصر الأموي بحيث اصبحت بمستوى الدولة القومية المستقرة ، ففي خلال الحقبة الممتدة بين سنة ٤١ هـ إلى ١٣٢ هـ حصل تحول وتطور نحو الحياة الحضرية ، وقد رافق ذلك تطور أساسي لتثبيت مفهوم الأمة والدولة ، وجعل الأمويون من الدولة الجديدة دولة عربية تستند في أسسها السياسية والادارية الى العرب وقد تهيأت الفرص لكي تمتد حدود الدولة العربية ، وأن تزدهر الثقافة العربي ، الأمر الذي أدى الى ازدياد وعي العرب بقوميتهم وكيانهم ومنزلتهم بين غيرهم من الشعوب وقد رافق ذلك تعريب شامل في المصالح الحكومية ودواوينها ومؤسساتها النقدية .

وما أن قارب العصر الأموي على الانتهاء إلا وكانت الثقافة العربية والحضارة العربية قد وضعت خطوطهما الرئيسة ، وكان العرب قد عنوا باستنباط احكام الفقه من القرآن الكريم والحديث النبوي ، وظهرت دراسات في علوم اللغة والعقائد والعلوم فاتخذت الدولة طابعاً

عربياً متناسقاً وموحداً في نظهمها وحضارتها .

وقد شهد العصر العباسي (١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ) تطور الحضارة العبرية الاسلامية ونضجها. ولا شك أن للوحدة الفكرية بين أبناء الأمة في عصر نهضتها أثرها في السمو بالحضارة العربية إلى مستواها الرفيع فقد كانت هذه الوحدة بين اعلام الفقة والأدب والتاريخ عاملاً من عوامل التجمع والتقارب ، وعنصراً من عناصر التفاهم ، وسبباً في الازدهار الفكري والثقافي .



مصادر ومراجع الباب الثاني

سيرة النبي محمد	ابن هشام
حياة محمد	الدكتور محمد حسين هيكل
تجديد الفكر الديني في الاسلام	محمد اقبال
محاضرات في تاريخ العرب (القسم الثالث)	الدكتور صالح احمد العلي
تنظيمات الرسول الادارية في المدينة	الدكتور صالح احمد العلي
فجر الاسلام	احمد امين
المجتمع العربي	الدكتور عز الدين فودة
في سبيل البعث	ميشيل عفلق
الفكر العربي الثوري	الدكتور الياس فرح
تطور الايديولوجية العربية الثورية	الدكتور الياس فرح
تاريخ الدولة العربية	الدكتور السيد عبد العزيز سالم
مقدمة في تاريخ صدر الاسلام	الدكتور عبد العزيز الدوري
تاريخ العرب القديم وعصر الرسول	نبيه عاقل
تاريخ خلفاء بني أمية	نبيه عاقل
قيام الدولة العربية الاسلامية	محمد جمال الدين سرور
الحياة السياسية في الدولة العربية خلال القرنين الأول والثاني	محمد جمال الدين سرور
التاريخ السياسي للدولة العربية	عبد المنعم ماجد
الدولة العربية الاسلامية	علي حسين الخربوطلي

١ – ما أهمية ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية ؟

٢ – لماذا اتخذ المسلمون يوم الهجرة بداية التقويم ؟

٣ – ماذا يستخلص الدارسين لتاريخ الهجرة من قيم ؟

٤ – ما الأمور التي اهتم بها الرسول (ﷺ) عند تنظيمه حكومة المدينة المنورة ؟

٥ – ناقش العبارة الآتية (رسخ نظام المؤاخاة قيم التعاون) ؟

٦ – ما خصائص الأمة الاسلامية ؟

٧ – ما أهم صفات حكومة الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة ؟

٨ – ما أهمية فتح مكة المكرمة ؟

٩ – ما العوامل التي مكنت العرب المسلمين من الانتصار السريع في حروب التحرير والفتوح

١٠– علل ما يأتي :

أ – ترسيخ وحدة العرب في شبه الجزيرة العربية بعد حروب الردة .

ب – ابطال نظام المؤاخاة بعد معركة بدر الكبرى .

جـ – انتشار اللغة العربية والدين الاسلامي .

نشاط

اطلع على صحيفة المدينة " الوثيقة " في أحد المصادر التالية واكتبها في دفترك ..

١ – سيرة النبي محمد (ﷺ) لابن هشام

٢ – السيرة النبوية لابن كثير

٣ – الجامع الصحيح للبخاري

تعريف بالخلافة

يقصد بالخلافة في تنظيم الدول العربية الاسلامية ، أعلى وظيفة سياسية وادارية يتولى بموجبها الخليفة سلطاته في ادارة مرافق الدولة وشؤونها كافة . فهي تعادل في العصر الحديث رئاسة الدولة . وسمي من يتولاها خليفة ، لكونه يخلف رسول الله محمداً (ﷺ) في ادارة شؤون الدولة ، ومن هنا سموا ابا بكر (رضي الله عنه) خليفة للمسلمين بـ "خليفة رسول الله " وقد استمر نظام الخلافة منذ انتخاب أبي بكر رضي الله عنه حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ .

(١) العصر الراشدي (١١ – ٤١ هـ)

لقد بويع ابو بكر (رضي الله عنه) في السقيفة (البيعة الخاصة) ثم بويع في الجامع البيعة العامة وقد تم اختيار ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) خليفة للرسول محمد (ﷺ) بسبب كبر سنه وسبقه وفضله في الاسلام وصحبته للرسول (ﷺ) . وكان انتخابه ينسجم مع التقاليد العربية في عصر ما قبل الاسلام لانتخاب شيخ القبيلة – كما ينسجم مع تعاليم الاسلام ، وقد أكد الخليفة ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) في الخطبة التي القاها أثر استخلافه أن الأمة مصدر السلطان وهذا نص الخطبة : " أم بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن احسنت فاعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله ، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله

ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله " .

وقد أصبحت البيعة الخاصة والبيعة العامة والخطبة التي يلقيها الخليفة أثر توليه من تقاليد الخلافة فيما بعد . وكانت تسمية ابي بكر بـ " خليفة رسول الله " تعني أنه سوف يسير على سنة الرسول (ﷺ) في الحكم .

وكانت خلافة ابي بكر (رضي الله عنه) فترة قصيرة (سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام) انشغل في أيامه الأخيرة مفكراً فيمن يخلفه في مركزه ، فلما اشتد به المرض عهد إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، بالخلافة ، بعد أن شاور الصحابة وحاورهم ، والظاهر أن أبا بكر (رضي الله عنه) كان يخشى الفتنة ، ولا ننسى أن جبهة القوى الدولية المعادية المحيطة بالدولة العربية لم تزل تتحين بها الفرص ، اضف الى هذا أن عمر (رضي الله عنه) كان من أبرز ومن اكفأ من يرشح لها ، وكان على صلة وثيقة جداً بادارة الدولة ومجريات الأمور فيها في عهد خلافة ابي بكر (رضي الله عنه) . وميز بذلك عن شعور عميق بالمسؤولية وجدارة فذة بقيادة الأمة .

بايعت الأمة عمر (رضي الله عنه) فثبتت خلافته . وقد خاطب المسلمين مؤكداً نزعته الديمقراطية في الحكم ، بقوله : ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله لما تقلدت امركم .

وطوال خلافته ـ وكانت عشر سنوات وثمانية عشر يوماً ـ انشغل عمر (رضي الله عنه) بترسيخ قواعد الدولة ، وتثبيت أسسها ، فنظم الجيش ، والادارة ، والقضاء والعطاء ، وكاد أن يكمل عمليات تحرير الأرض العربية ، لولا اغتياله ، بيد فارسية مجرمة آثمة " ابو لؤلؤة " مولى (عبد) المغيرة بن شعبة . وذلك لتصاعد حقد الفرس على الأمة العربية اثر انتصار العرب عليهم في معركة القادسية عام ١٥ هـ .

لما طعن عمر (رضي الله عنه) أتاه كعب فقال له : أنبأتك أنك شهيد ، فقال " من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب ! " وطيلة الأيام الثلاثة قبل استشهاده كان عمر (رضي الله عنه) مشغولاً في أمر الخلافة " ، وقد استقر رأيه على أن يجعلها شورى ، بقوله : " الأمر

بعدي شورى " وقد جمع وجوه الأمة وقادتها ، فلما دخلوا عليه قال لهم : إني قد جعلت أمركم شورى إلى ستة من المهاجرين الأولين ، الذين توفى رسول الله (ﷺ) وهو عنهم راض ، لتختاروا احدهم لامامتكم وهؤلاء الستة هم : علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن ابي وقاص (رضي الله عنهم) وقد كونوا بأمر عمر (رضي الله عنه) ما سمي بـ " مجلس الشورى " .

ولم يترك عمر (رضي الله عنه) أمر الخلافة لمجلس الشورى بلا ضوابط ، فقد نظمها تنظيماً دقيقاً ، فحدد مدة انعقاد المجلس بثلاثة أيام ، وعلى أعضائه ان ينتخبوا من بينهم خليفة للدولة خلال هذه المدة ، وجعل ولده عبد الله مع أصحاب الشورى يشاورنه ، دون أن يكون له حق الترشيح ، وأعطى لعبد الرحمن بن عوف مكانة خاصة في المجلس ، حتى قال : ان اجتمع رأي ثلاثة وثلاثة فاتبعوا صنف عبد الرحمن بن عوف واسمعوا له وأطيعوا. كما حذر عمر (رضي الله عنه) الستة المرشحين أن يرشح أحدهم نفسه دون مشورة الباقين واتفاقهم .

دام اجتماع المجلس ثلاثة أيام ، اسفرت المداولات بعدها ، على اختيار عثمان بن عفان (رضي الله عنه) خليفة ، وقد بايعه أعضاء المجلس ، كما بايعته الأمة ، وبعد اثنتي عشرة سنة من خلافته . استشهد عثمان (رضي الله عنه) فانعقد اجماع الأمة على انتخاب علي (رضي الله عنه) للخلافة .

انتخب علي (رضي الله عنه) للخلافة بعد عثمان (رضي الله عنه) ، فقد كان من ألمع الصحابة لسبقه في الاسلام ، ولقرابته من بيت النبوة مع غزارة في العلم وسعة في الحلم . وقد وقف كبار الانصار والمهاجرين الى جانبه فبايعوه كما بايعه جميع من كان بالمدينة من الصحابة ، وكانت البيعة في المسجد ، ثم بويع البيعة العامة .

لم تستقر الأوضاع السياسية للدولة العربية في خلافة علي (رضي الله عنه) ، وكان ذلك بعد أن توسعت الدولة ، وتبلورت بعض الاتجاهات السياسية والفكرية ، هذه الأمور مجتمعة ، كونت الظرف الذي أودى بالخليفة علي (رضي الله عنه) مستشهداً ، وهو

يصلي في مسجد الكوفة ، بعد عملية اغتيال دنيئة ، نفذها عبد الرحمن بن ملجم .

ان الخلافة كمؤسسة سياسية ادارية نمت نمواً طبيعياً في الظروف التي اوجدت فيها ، وقد تضافرت التقاليد العربية والروح الاسلامية على تكوينها ، تكويناً واقعياً عملياً ، سبق النظريات السياسية التي وضعت في ضوئها بعد وقت طويل .

ويلاحظ في الخلافة الراشدة ، تنوع في التجربة ، فخلافة أبي بكر (رضي الله عنه) كانت وليدة الظروف المفاجئة الصعبة التي مرت بها الأمة بعد وفاة الرسول العظيم (ﷺ) وقد مثلت نظرية الشورى ، في الفكر السياسي الاسلامي بشكلها الواقعي الصحيح ، خاصة بعد أن بايعه جميع الصحابة ، البيعة العامة في المسجد ، وبذلك حازت خلافته على اجماع الأمة ، هذا الاجماع الذي صار معياراً لشرعية هذا النظام ، لأن الخلافة أساسها " مبدأ الاجماع " .

والإجماع في هذه التجربة يقوم على أساس الانتخاب ، ولكن طريقة الانتخاب لم تكن واحدة ، انما تنوعت باختلاف الظروف والأوضاع التي أحاطت بالأمة آنذاك .

ان ترسيخ نظام الخلافة على أساس الشورى والانتخاب جعل الخلافة الراشدة ذات نزعة جمهورية ، وصبغة ديمقراطية ، ومع أن الخليفة يباشر سلطته بمفرده ، فهو مقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية وهما موضع تقديس الأمة والانحراف عنهما يعرض مركز الخليفة الى الخطر . ولا ننسى أن جميع المصادر تؤكد أن الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) كان كل واحد منهم محاطاً بهيئة من المستشارين من كبار الصحابة ، تعرض عليهم باستمرار سياسة الدولة وأوضاعها ، والأمور المستجدة فيها ، ولا يبت بها إلا بعد تمام مشورتهم . ومن المفيد ان نذكر ان سياسة ابي بكر (رضي الله عنه) مع حركات الردة ، خضعت لمشورة هؤلاء الصحابة ، حتى الراتب المخصص للخليفة حدده هؤلاء . ان هذه الصيغة الجمهورية ، ذات الطابع الديمقراطي للخلافة الراشدة ، ما لبثت أن دخلت في مسار جديد ، فرض عليها تطوراً جديداً في العهد الأموي من الدولة العربية الاسلامية ، وفي خلافة معاوية بالذات .

(ب) العصر الأموي (٤١هـ - ١٣٢هـ)

أدخل الأمويون مبدأ جديداً في النظام السياسي للدول العربية الاسلامية ، وهو مبدأ الوراثة في الحكم وتحولت بذلك الخلافة الى نظام سياسي جديد ابتعد تدريجياً عن مبدأ الشورى كما ابتعد عن التقاليد العربية ، التي وان اعترفت بحق حفظ السلطة في قبيلة معينة (قريش مثلاً) لكنها لم تعترف بالوراثة المباشرة من الأب إلى الابن .

عهد معاوية قبل وفاته بالخلافة إلى ولده يزيد ، وكتب إلى عماله في الأمصار ، أن يوفدوا إلى دمشق (مركز الدولة العربية الاسلامية آنذاك) الوفود لأخذ البيعة له .

ومع أن بعض ولاة الأمصار قد نجحوا في تكوين وارسال مثل هذه الوفود ، إلا أن امصاراً أخرى اعلنت عن معارضتها القوية لمثل هذا النظام ، وكانت المدينة مركز المعارضة الأقوى لنهج معاوية في توريث الحكم ليزيد .

ورغم المعارضة هذه لم يتراجع معاوية عن عزمه فعهد إلى ابنه يزيد بالخلافة من بعده معتمداً على تأييد أهل الشام وبعض ولاة الأمصار .

لم يوفق معاوية في عهده ليزيد ، الذي عهد بعد سنتين من حكمه إلى ولده معاوية الثاني بالخلافة بعده ، فلما مات يزيد بويع معاوية الثاني بالخلافة وهو كاره لها ، فلم يلبث أن تنازل عنها ، داعياً إلى الرجوع لمبدأ الشورى في الحكم ، واعتزل الناس في بيته مؤكداً أن مفتاح حل الأزمة إلى قاعدة الشورى . ان هذا الموقف يدلل على رسوخ فكرة الشورى والانتخاب في المجتمع العربي آنذاك ، فقد عارض العرب سياسة الأمويين في توريث الحكم في أسرتهم ، لنزوع المجتمع العربي إلى مبدأ الشورى .

تنازل معاوية الثاني عن الخلافة ، ونجح مروان بن الحكم في الحصول على تأييد البيت الأموي في ترشيحه للخلافة ، فكان عهده بداية لمجئ خلفاء ذوي مكانة مهمة في ادارة الدولة وسياسة الأمة ، مثل عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك . وقد شهدت الدولة العربية الاسلامية في عهود الخلفاء نوعاً من الاستقرار الداخلي ، لكن الصدام مع الروم على الحدود كان مستمراً .

لقد قوي مركز الروم مع مجيئ الخلفاء الضعفاء من الأمويين وكان البعض منهم صغاراً ، تسلموا هذا المركز القوي في الدولة (الخلافة) بحكم السير على نظام الوراثة ، الذي احدث انقساماً ، في بعض الأحيان داخل البيت الأموي نفسه عندما يبايع الخليفة بالعهد لولديه كما فعل مروان بن الحكم ان عهد بولاية العهد لولديه عبد الملك وعبد العزيز ، فحاول عبد الملك تنحية أخيه من العهد ، وتقليده لولديه .

ان قوة تيار الوراثة استند إلى دعم قبلي في بداية العهد الأموي من الدولة العربية ، لكنه ما لبث أن اصطدم بالتقاليد العربية نفسها ، فلم يرض العرب أن يورثوا الملك والسياسة للأحداث ، ومع هذا علينا أن نذكر أن تيار الوراثة لم يتجاهل الرأي العام نهائياً ، فقد ظل الخلفاء يحرصون على أخذ البيعة من الناس ، وجهود معاوية في الحصول على البيعة لابنه يزيد تدل بوضوح أن فكرة الانتخاب كانت ما تزال معترفاً بها نظرياً .

لكن اعتماد الخليفة على الوراثة جعل الحكم يتجه تدريجياً نحو الاعتماد على التكتل القبلي ، الذي أضعف بنية الدولة ، وكان عاملاً في تدهورها السريع .

(جـ) العصر العباسي (١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ) :

استمرت الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي في السير على نهج الأمويين في الأخذ بنظام الوراثة في الخلافة ، وقد اعتمد العباسيون في تقوية مركزهم على قرابتهم من الرسول (ﷺ) ، فهم أبناء العباس عم النبي (ﷺ) ، كما اعتمدوا على علماء الدين ، من الفقهاء والتقاة حتى جعلوا التعاون معهم ركناً أساسياً في سياستهم ذات الصبغة الدينية . تتضح هذه السياسة من وصية المنصور لولي عهده (ولده المهدي) يقول له : واطلب بجهدك رضا الرحمن وأهل الدين فليكونوا عضادك .

سلكت الخلافة العباسية نظام الوراثة في الحكم ، ولم يوفق الرشيد عندما اشرك مع الأمين أخاه المأمون في ولاية العهد ثم الحق بهم اخاهم المؤتمن ، فكان ذلك من دوافع الفتنة، ثم الحرب التي اشتعلت بين الأمين الذي تقلد الخلافة بعد وفاة أبيه وبين أخيه المأمون

مهدت سياسة العباسيين الطريق للقوى الغريبة للسيطرة على الأمة (الفرس ، الترك ، البويهيين ، السلاجقة) فتغلغلت في أجهزة الدولة وبسطت سيطرتها على الخلافة نفسها وعملت على اضعاف الدولة العربية وانهيارها.

ومن الجدير بالذكر هنا هو أن العصر العباسي الأول كان قد تميز بأن الخلفاء كانوا أقوياء ، قبضوا على السلطة بيد من حديد ، وقضوا على الحركات المعارضة للدولة العربية الاسلامية ومع أن الخلفاء العباسيين كانوا قد قربوا الفرس واشركوهم في ادارة الدولة العربية الاسلامية إلا أن سيادة العرب ظلت قائمة وذلك لأن كثيراً من العرب كانوا قد تقلدوا مراكز عليا عسكرية ومدنية في الدولة العربية الاسلامية لذا فإن العصر العباسي الأول كان عصر قوة الخلافة العباسية .

لقد اشرك العباسيون الفرس معهم في ادارة الدولة ، فهيمن هؤلاء على مؤسسة الوزارة ، ومارسوا نفوذاً في السياسة العامة للدولة ، ولكنهم كانوا تحت الرقابة الدقيقة للخلفاء العرب. الذين تحسسوا وأدركوا خطر نهج الفرس في اضعاف الدولة العربية بإضفاء الصبغة الفارسية على مؤسساتها وادارتها ، فتخلصوا منهم . فكان القضاء على البرامكة في عهد الرشيد وعلى آل سهل في عهد المأمون . ان قضاء العباسيين على الفرس كان نتيجة طبيعية بعد أن أساءوا التصرف واستغلوا مراكزهم الى درجة هدد معها كيان العباسيين وعروبة دولتهم .

لقد قوي مركز الخلافة ونفوذها بعد الحد من سيطرة الفرس ولكن الضعف ما لبث أن دب في كيانها (تدخل الأتراك) الذي اعتمد المعتصم عليهم كثيراً في تقوية الجيش، ثم ما لبث أن بنى عاصمة جديدة (سامراء) انتقل إليها مع الترك ، فمهد الطريق لكي تخضع الخلافة لهيمنة الترك وسيطرتهم فترة طويلة من الزمن وقد حاول المتوكل الحد من نفوذهم ، وتخليص الخلافة من سطوتهم ، ولكنه فشل في سياسته ، وذهب ضحية لها ، بتآمر الأتراك على قتله .

مثل المتوكل في عهده قمة الصراع على السلطة الفعلية في الدولة ، الصراع بين الخلافة (الرئاسة الشرعية للدولة) والترك القوة العسكرية المهيمنة على السلطة وتسلطهم الفعلي التام على الخلفاء من بعده . يقول ابن طباطبا " ان الأتراك كانوا قد استولوا – منذ قتل المتوكل– على المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في أيديهم كالأسير ، ان شاءوا أبقوه وان شاءوا خلعوه وان شاءوا قتلوه " .

بعد مقتل المتوكل بدأ صرح الخلافة بالتداعي ، اذ كان مقتله فاتحة لسلسلة من التعيينات للخلفاء ، والتجاوز عليهم بالقتل والحبس والخلع دون مبرر . وبهذا الأسلوب صار الترك سادة الوضع بشكل مطلق .

نعم حاول بعض الخلفاء استرجاع سلطاتهم بالقضاء على نفوذ الأتراك ، ولكن محاولاتهم فشلت لتحكم الترك وسيطرتهم على الجيش ، ويمكن أن نعتبر الخليفة المهدي أول من حاول جدياً وبرغبة صادقة احياء مجد الخلافة العباسية ، والقضاء على نفوذ القادة الأتراك ، ولكن هؤلاء فطنوا إلى خطته . وجرت معركة غير متكافئة خارج سامراء ، انتهت بمقتل المهدي ، بعد أن أسر وعذب .

جابهت الخلافة في أواخر القرن الثالث الهجري تحدياً مصيرياً ، فقد تصاعدت قوة العناصر المتمردة المناوئة للخلافة العباسية ، كما نشطت محاولات انفصالية ، نجحت بعدئذ في تكوين دويلات انفصلت فعلياً عن الكيان السياسي للخلافة ، وان اعترفت بهذا اسمياً ، مثل دويلة الطاهريين ودويلة الصفاريين. لقد استجابت الخلافة لهذا التحدي ، واستنفرت كل قواها الذاتية للدفاع عن كيانها .

بعد مجئ المعتضد للخلافة انعطافاً جديداً في تاريخها ، فقد أعاد هيبة الدولة ، وفرض سيادتها على الثغور ، وتخلص من الصفاريين ، وأخيراً اخضع الطولونيين في مصر فكان طبيعياً بعد هذا أن يسود الاستقرار أوضاع الخلافة وتزدهر ماليتها .

ان انتعاش أوضاع الخلافة ما لبث أن تلاشى في عهد الخليفة المقتدر الذي فقدت الخلافة في عهده حرمتها ورسومها .

اختير المقتدر للخلافة ، وعمره ثلاث عشرة سنة ، وقد اختارته مراكز القوة الفعلية في الدولة (الوزراء وكبار الكتاب وبعض قادة الجيش) ، الذين خضع لنفوذهم بشكل مطلق ، فكانوا يديرون الأمور السياسية ، وليس للخليفة حل ولا عقد ، فلا عجب بعد هذا أن جرت محاولاتان فاشلتان لخلعه .

طالت خلافة المقتدر أربعاً وعشرين سنة ، سيطر خلالها أحد قادة الأتراك (مؤنس) على الجيش والادارة . خاصة بعد نجاحه في اعادة المقتدر الى الخلافة بعد محاولة خلعه الثانية . وزاد نفوذ مؤنس حتى أصبح بلا حدود وساءت علاقته بالخلافة إلى درجة أن حاصر بغداد ، وقتل المقتدر نفسه .

يمثل مقتل المقتدر مرحلة خطيرة هددت أسس الخلافة وقد شهد عهده لأول مرة في تاريخ الدولة العربية الاسلامية ، ثلاثة خلفاء . في بغداد وقرطبة ، والقاهرة كما شهد عهده تفككا سياسياً ، خضعت في خلاله الدولة لسيطرة قوى متعددة ، فكان البويهيون في فارس ، والحمدانيون في الموصل وديار ربيعة ومضر والفاطميون في مصر والشام . والأمويون في الأندلس والسامانيون في خراسان .

وهن أمر الخلافة كثيراً وتفككت سياسياً ، وأفلست مالياً . وكان المتنفذون والأمراء في أقاليمهم قد قطعوا كل الموارد عن الخلافة حتى شهد عهد الراضي افلاساً تاماً للخزينة ، وقف الخليفة ازاءه عاجزاً ، لا يدري ماذا يفعل حتى واسط والبصرة ذهبت مواردها المالية إلى ابن رائق أحد القادة العسكرين الأتراك الذي أقام في واسط على رأس قوة عسكرية ينهب خيراتها ليدعم مركزه .

وفي عهد الخليفة المطيع لله زادت حالة الخلفاء سوءاً حيث سلب سلطات هذا الخليفة ثم اجبر على التنازل عن الخلافة ، ولما خلفه ابنه الطائع لله تمت مصادرة أمواله من قبل البويهين ، ثم اهانه الجند الديالمة وانزلوه بالقوة من سرير الخلافة .

وفي محاولة لانقاذ الأوضاع المالية أجرى الخليفة الراضي تغييرات وزارية متعددة لم تثمر

عن شئ سوى الافلاس التام للخزينة ، والعجز حتى عن دفع رواتب الموظفين . عند ذاك تحرك ابن رائق من واسط ، بطلب من الراضي ، ودخل بغداد ، فقلده الخليفة وظيفة أمير الأمراء تولى بموجبها كل السلطات الفعلية : السياسية والمالية والادارية لقاء تعهده بدفع الرواتب وانقاذ الخزينة من الإفلاس .

ان فترة امرة الأمراء استمرت عشر سنوات (٣٢٤هـ - ٣٣٤هـ) كان القائد العسكري خلالها ، يتولى وظيفة أمير الأمراء ، ويمارس من خلالها كل السلطات الفعلية في الدولة ، ويخصص للخليفة راتباً محدداً . واذا شاء ، خلع الخليفة أو قتله ومن الطبيعي أن تشهد بغداد صراعاً وحروباً بين هؤلاء القادة ، للاستئثار بهذا المنصب . ولكن هذا الصراع ما لبث أن توقف بدخول قوة أجنبية أخرى العاصمة بغداد ، وهم البويهيون . سنة ٣٣٤ هـ ، ففرضوا تسلطهم على الخلافة التي لم يبق له ادنى نفوذ في ظل حكمهم .

عصر السيطرة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٧) هـ

كان البويهيون يسكنون قرب بحر قزوين ، ثم ما لبثوا أن توسعوا تدريجياً فضموا الأراضي المجاورة لهم ، وبسطوا عليها نفوذهم . وكان معز الدولة البويهي على رأس هذه القوة التي دخلت بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وفي بدء التسلط البويهي شهدت بغداد الديالمة وهم يقودون الخليفة المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة ليعتقل هناك ، وتنهب دار الخلافة بعد أن قدموا له في أول عهدهم فروض الطاعة والخضوع . وأصبحت عمليات السلب والنهب وسمل العيون من ملامح التسلط البويهي وقدر للديلم أن يدخلوا دور الآمنين ، فيسكنوها على الرغم من استنكار الناس وتذمرهم من هذا التعسف .

وكأي سلطة اجنبية ، همها الحفاظ على مصالحها ، أبقى هؤلاء الخليفة العباسي شبحاً الى جانبهم ، فلم يكن يتعارض وجوده الديني الرمزي مع مصالحهم ، اضف إلى هذا أن الغاء الخلافة العباسية كان يضر بمستقبل العائلة البويهية وحكمها .

والبويهيون – كسلطة أجنبية – لم تكن تحمل قلباً وفكراً أي ولاء واحترام للخلافة ومركزها ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخشون قوة الامارة العربية الحمدانية ، وربما خافوا التعاون بين الحمدانيين والخلفاء العباسيين . وقد حدث هذا فعلاً بعد أن اعتقل معز الدولة الخليفة المطيع ، فتحرك الحمدانيون إلى بغداد دفاعاً عن الخلافة وكان الرأي العام في العاصمة إلى جانبهم ، معادياً بطبيعته كل سلطة أجنبية ، مرحباً بدخول أي قوة عربية تقف بوجهها . يقول ابن الجوزي واصفاً تذمر الرأي العام من البويهيين : " ان العوام كانوا يشتمون معز الدولة والديالمة شتماً مسرفاً " .

وقد شارك البويهين الخلفاء العباسيين في ثارات الخلافة ، فصارت اسماؤهم تذكر مع أسماء الخلفاء في خطبة الجمعة ، علماً أن الخطبة كانت ترمز لسيادة الخليفة السياسية والدينية ، وكتبوا أسماؤهم على النقود إلى جانب أسماء الخلفاء ، كما شاركوا الخلفاء في قرع الطبول والدبادب على أبواب الخلفاء ، وقد عبر الخليفة المطيع لله عن سلب سلطته في كتابه إلى الأمير البويهي عز الدولة بختيار سنة ٣٦١ هـ وحين طلب منه مالاً للجهاد قائلاً : " الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي وإليّ تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لي منها إلا القوات القاصر عن كفائي وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف فما يلزمني غزو ولاحج ولا شئ مما تنظر الأئمة فيه ، وانما لكم مني هذا الأسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن احببتم أن اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله " . وبعد التهديد والوعيد اضطر الخليفة إلى دفع اربعمائة ألف درهم بعد أن باع ثيابه وبعض انقاض داره ، فالملك هذه الفترة ما يقول البيروني كان " قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه " . ومع أن هذه الحقبة لم تخل من دور فعال أدته القبائل العربية ، كبني حمدان ، وبني عقيل ، وبني مزيد ، وبني خفاجة . إلا أن هذا الدور لم يرتق إلى وحدة مجابهة هذه القوة الأجنبية ، واسناد الخلافة اسناداً فعالاً .

لقد تردت أوضاع الخلافة كثيراً ، وهاجم الروم الأرض العربية فاحتلوا ديار ربيعة والتي استنجد أهلها بأهل العراق للمساعدة بالتصدي للروم ومحاربتهم . وزاد الأمور سوءاً تدهور

الأوضاع المالية ، وتردي نظام الري ، وتفشي المجاعات .

ولم تكن للخليفة سلطة سياسية . فقد اقتصر اهتمامه على ممارسة واجباته الدينية نحو المسلمين مما زاد تعلق الناس به والالتفاف حوله .

ولا ننسى أن في الشعب ولاءً طبيعياً عميق الجذور للخلفاء ، وربما تحول هذا الولاء إلى اسناد ودعم للخلفاء الأقوياء منهم ، كالخليفة القادر مثلاً الذي التف الناس حوله ، وتعلقوا به ، وزاد من تعلقهم به نزعته الدينية وورعه وزهده ، ورغبته في التخلص من التسلط البويهي .

في عهد القادر ظهرت بوادر قوية لمعارضة السلطة البويهية ، كما ظهرت ملامح انتعاش الخلافة وحيويتها ، وتراءى للناس أن القادر " اعطى الخلافة عمراً جديداً وأخضع الديالمة " .

وأخيراً فقد شهد عهد الخليفة القائم بأمر الله ، التخلص من النفوذ البويهي سنة ٤٤٧ هـ . ولكن بالخضوع الى سلطة أجنبية أخرى هم السلاجقة الذين قضوا على البويهين ليحلوا محلهم .

عصر السيطرة السلجوقية (٤٤٧ - ٥٩٠) هـ

السلاجقة من القبائل التركية القوية ، التي استقرت في ما وراء النهر ، ثم كونت لها دولة قوية في خراسان بزعامة السلطان طغرلبك . الذي توجه على رأس قوة عسكرية إلى بغداد في عهد القائم بأمر الله ، فقضي على البويهيين واعتقل آخر امرائهم في بغداد .

وكان أهل بغداد أوفياء لتراثهم الكفاحي الأصيل في مقاومة كل سلطة أجنبية تدخل أرضهم ، ديلمية كانت ام سلجوقية ، فكان الشعب ساخطاً على الجند السلاجقة . يقول ابن الأثير عن مقاومة الشعب لهم :

" رجموهم وهاجوا عليهم ، وارتج البلد من اقطاره ، وأقبلوا من كل حدب ينسلون ، يقتلون من الغز من وجد محال بغداد " كما يذكر أن الشعب تصدى للسلاجقة وقاتلوهم " فقتل من الفريقين جمع كثير " .

ولم يكن للخلفاء معهم أدنى نفوذ ، خاصة في عهد المقتدي والمستظهر اللذين عرفا بالضعف أمام السلاطين السلاجقة .

سيطر السلاجقة على زمام السلطة في العراق ، واستأثروا بالحكم دون الخلفاء ، واتبعوا سياسة سيئة مع هؤلاء الخلفاء ، بحيث لم يعد للخليفة العباسي في ظل التسلط السلجوقي " من الأمر إلا الأسم لا يتعدى حكمه بابه ولا يتجاوز جنابه " كما يقول صاحب كتاب " النبراس في تاريخ خلفاء بني عباس " .

ولكن العلاقات ما لبثت أن توترت حتى وصلت الى درجة الصدام العسكري بين السلاجقة والخلفاء ، خاصة في عهد الراشد والمسترشد والمقتفي .

وفي سنة ٥٢٩ هـ تمكن السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه من أسر الخليفة العباسي المسترشد بالله بعد معركة جرت بين الجيش السلجوقي وجيش الخلافة في المشرق ، وبعد أن تم الصلح بين الطرفين أوعز السلطان السلجوقي إلى جماعة بقتل الخليفة فتم قتله ، وتم مصادرة جميع أملاك الخليفة في العراق . وأموال أخرى ببغداد تعود للدولة العربية الاسلامية ، ولما تولى ابنه الراشد بالله سار على سياسة ابيه التي كانت قائمة على الرفض والتصدي للاحتلال الأجنبي . إلا أنه أراد أن يهيئ كل أسباب المقاومة قبل أن يتصدى للسلاجقة ، فأمر أن يُعلن على أبناء الشعب ما يؤكد إزالة الظلم وتحقيق العدالة في عهده ، وحصن بغداد ، وأسس جيشاً قوياً للدفاع عنها ، فلما علم السلاجقة بذلك تقدم السلطان السلجوقي مسعود على رأس جيش واستولى على بغداد بعد أن خاض أهل بغداد معارك ضاربة مع الأعداء ، وتم عزل الخليفة ، إلا أن الخليفة الراشد بالله توجه الى الموصل وتقدم من هناك على رأس جيشه لقتال السلاجقة إلا أنه قُتل في المشرق من قبل جماعة من أهل خراسان كانوا في خدمته وذلك بتحريض من السلاجقة .

ولما تم تعين المقتفي لأمر الله خليفة سنة ٥٣٢ هـ صادر السلاجقة جميع ما كان في دار الخلافة ، إلا أن الخليفة الجديد استعد لملاقاة السلاجقة ، فأسس جيشاً ، وحفر الخنادق حول بغداد ، وأمر باصلاح السور ، كما أمر سكان بغداد بلبس السلاح والدفاع عن بغداد ،

وبعد أن خاض أهل العراق معارك ضاربة مع السلاجقة المعتدين تم تحرير العراق من سيطرتهم سنة ٥٥١ هـ.

لقد كافح الخلفاء في هذه الفترة، وبمساندة جماهير بغداد، سيطرة السلاجقة واستبدادهم بالعراق، ومع أن الراشد والمسترشد ذهبا ضحية في سبيل استرجاع هيبة الخلافة، واعادة سلطة الخليفة إلى سابق عهدها، إلا أن جهودهما هيأت السبيل للمقتفي ان يسدد ضربة قوية للنفوذ السلجوقي في العراق.

لقد تضافرت ثلاثة عوامل ساعدت على تخلص العراق من التسلط السلجوقي، أولها ضعف التسلط السلجوقي بشكل عام وثانيها تحسن الأوضاع السياسية لصالح الخلافة العباسية، خاصة بعد انهيار الحكم الفاطمي في مصر، والخطبة للخلفاء العباسيين في القاهرة، وأخيراً مجيء الناصر لدين الله لمركز الخلافة .

عصر النهضة والسقوط (٥٩٠ - ٦٥٦) هـ

كان الناصر لدين الله من طراز الخلفاء الأقوياء ، متوقد الذكاء والفطنة ، خبيراً في أمور الدولة ، الداخلية منها والخارجية .

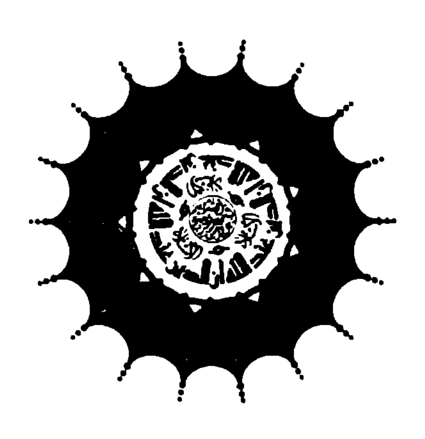
انعش الخلافة بنظام الفتوة ، وأراد بهذا النظام أن يجدد شباب الأمة ، عن طريق خلق تنظيم شعبي ثوري يعوض الضعف العسكري للدولة .

وتولى الخلافة من بعده الظاهر بأمر الله والمستنصر بالله ثم المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين حيث بويع للخلافة سنة ٦٤٠ هـ .

وكان كثير التلاوة للقرآن المجيد ، راوياً للحديث ظاهر الحياء ، كريم الطباع ، يسعى للتخفيف دائماً عن الرعية ، اهتم بالعلم والعلماء وبنى المدارس ، وقد تعرضت الدولة العباسية في خلافته إلى خطر الغزو المغولي فوجه قواده لصد هجماتهم إلا أن المغول تمكنوا من دخول بغداد واحتلالها بسبب تآمر العناصر غير العربية وخيانة الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الذي أخفى عن الخليفة اخبار تزايد خطر المغول وكاتبهم سراً لاحتلال بغداد وقد

قد الغزاة المغول بتدمير بغداد واعتقال الخليفة وارساله مخفوراً إلى معسكر أحد قادة الجيش مغولي " صهر هولاكو" الذي يقع في جنوب مدنية بغداد وفي ٢٠ شباط من عام ١٢٥٨م ٦٥٦ هـ" استشهد الخليفة المستعصم بالله حيث عُذب وقتل على أيدي الجنود المغول .

وقد سعى المغول إلى محو كل أثر لهذا الخليفة العباسي ومن ذلك ما فعلوه بجثمانه بعد قتله حيث دفن وأزيل قبره وبمقتل الخليفة المستعصم بالله سقطت الدولة العباسية وشهدت الحضارة العربية الاسلامية انتكاسة كبيرة .



نشأة الوزارة وتطورها :

ظهر نظام الوزارة في الدولة العربية الاسلامية بشكل واضح ومنظم في العهد العباسي ، ومصطلح (الوزير) ورد ذكره في القرآن الكريم ، قال تعالى :

وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (١)

مما يشير الى معرفة العرب بهذا المصطلح وتداول ألستنهم له ، حتى اطلق على عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اسم وزير ابي بكر (رضى الله عنه) .

ويرى اللغويون ان اشتقاق لفظ الوزارة من المؤازرة وهي المعاونة . لأن الوزير عون الخليفة يحمل عنه أعباء السياسة ، ويرجع إلى رأيه واستشارته عند الضرورة . ولا ننس أن اللغويين العرب حصروا الكلمات الدخيلة وارجعوها إلى أصولها ، وقد اجمعوا على أن كلمة وزير عربية مما يؤكد عروبة هذه الكلمة وأصالتها في تراثنا اللغوي والحضاري .

ومع أن الأمويين لم يستحدثوا منصب الوزير رسمياً إلا أنهم استفادوا من مجموعة من الكتاب والمستشارين كانت تقوم بعمل الوزراء ولا تتسمى بهذا الاسم . ولما جاء العباسيون استحدثوا وظيفة الوزير بصورة رسمية .

وكان أبو سلمة الخلال أول من تقلد هذا المنصب فهو أول وزير لأول خليفة عباسي (ابو العباس السفاح) وقد لقبوه بوزير آل محمد .

مارس الخلال مسؤولياته الوزارية بسلطة واسعة وقد حاول بحقده الفارسي التآمر على الخلافة فقتل جزاء خيانته .

ومع أن صلاحيات الوزير لم تكن محددة ، إلا أن ممارسته لهذه الصلاحيات إنما تتوقف على قوة شخصية وثقة الخليفة بادارته وحزمه . فالمنصور مثلاً لم يعط وزراءه كامل

---

(١) سورة طه / ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

السلطات ، وكان دائم الرقابة لهم ، وقد طغت شخصيته وادارته على كافة الوزراء والكتاب. حتى قال ابن طباطبا : انما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف .

وفي خلافة المهدي شهدت الدولة فترة استقرار سياسي واداري ، فظهرت أبهة الوزارة وتعددت مؤسساتها ، كما ظهر خيرة الوزراء كفاية وحزماً نذكر منهم ابو عبيد الله بن معاوية بن يسار ، أول وزراء المهدي ، فقد نظم الأمور المالية للدولة خير تنظيم ، كما رتب جباية الخراج وصنف كتاباً عنه ، ذكر فيه أحكامه الشرعية وقواعده .

ولثقة الرشيد بالبرامكة وادارتهم في بادئ الأمر وسع من صلاحيات وزيره يحيى بن خالد البرمكي ، حتى جعل مرافق الدولة ومؤسساتها الحساسة تحت ادارته وتوجيهه . ولكن البرامكة استغلوا ثقة الرشيد بهم فتوسعوا في سلطاتهم حتى أصبحت تهدد مستقبل الدولة وخلافة الرشيد نفسه ، فقضى عليهم .

في السنين الأولى من حكم العباسيين وحتى الانتقال إلى سامراء ، تكاملت أسس الوزارة واستقرت قواعدها ، لم يظهر ذلك بصورة مفاجئة بل تطور خلال سنين عديدة .

إن سياسة المعتصم في نقل العاصمة من بغداد إلى سامراء اثرت في التطور التاريخي لمؤسسة الوزارة ، خاصة بعد أن تسلط الأتراك على الخلفاء أنفسهم . والوزراء انما يستمدون سلطتهم من الخلفاء وبتفويض منهم ، فإذا وقع الخليفة تحت نير التسلط التركي ، فقدت الوزارة قوتها ، وصار بقاء الوزير في منصبه منوطاً برضى القادة الأتراك عنه .

وفي الفترة البويهية الغت السلطة الأجنبية مؤسسة الوزارة العباسية ، وحلت محلها وزارة الأمراء البويهين ، الذين عينوا للخليفة العباسي كاتباً يدير أموره .

وقد عادت مؤسسة الوزارة إلى مزاولة أعمالها في الفترة السلجوقية ، فقد أبقى السلاجقة الوزير العباسي ، إلى جنب الوزير السلجوقي ، الذي كان صاحب السلطة الفعلية في الأدارة والتأثير . وقد عزل بعض الوزراء العباسيين لسوء علاقتهم بالوزير السلجوقي .

ان دراسة نظام الوزارة في هذا العهد تشير بوضوح إلى أن أغلب الوزراء وقفوا إلى جانب

الخلافة في صراعها مع سلاطين السلاجقة ، ومنهم من قام بدور بارز في محاربة النفوذ السلجوقي مثل الحسن بن علي بن صدقة . فلما كتب أحد السلاطين السلاجقة رسالة إلى الخليفة المسترشد يهدد فيها بالزحف على بغداد ، رد عليه الوزير ابن صدقة :

" والله لئن تحركت لأقطعن ما وراءك عنك ، واقطعك عنه ، ولئن سرت فرسخاً لأسيرن إليك فرسخين " .

لقد تزايدت أهمية الوزارة بعد تحرر الخلافة من السيطرة السلجوقية خاصة في عهد الناصر لدين الله ، وقد شهد عهده وصول بعض أفراد الفئات الشعبية إلى منصب الوزارة مثل محمد بن احمد بن القصاب ، استوزره الخليفة على فقرة ، وكان ابوه قصاباً في بغداد وفي هذا العصر نلاحظ ظاهرة النيابة في الوزارة ، ومع أن نائب الوزارة كان أقل سلطة من الوزير ، إلا أن بعضهم مارسوا نفوذا واسعاً لشدة صلتهم بالخلافة .

ومنذ عهد المقتدر وحتى ظهور منصب أمير الأمراء في بغداد تدهور الوضع السياسي والمالي للدولة ، وزاد هذا التدهور نتيجة للدور السيئ الذي قام به بعض الوزراء وكبار الكتاب في تسيير الأجهزة الادارية للدولة ، فلقد تصدع كيان الدولة بدسائسهم ، وانقساماتهم ، وفضائحهم المالية ، ومع إن سلطة تعيين الوزراء وعزلهم كانت بيد الخلفاء ، إلا أن الوزراء الكبار استغلوا ضعف شخصية الخليفة ، فهيمنوا على الأجهزة الادارية للدولة ، وخربوا ماليتها ، ويمكن أن يعد موقف الوزير ابن الفرات من الخليفة المقتدر مثالاً على قولنا هذا .

ومع أن الفترة لم تخلُ من وزراء عظام مثل علي بن عيسى ، الذي دبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور الدولة بكفاية تامة ، إلا أن ضعف أسس الدولة آنذاك كان أعمق بكثير من أن تنقذها اصلاحيات هذا الوزير . لقد عجزت مؤسسة الوزارة من ضبط الأمور المالية ، وقد ظن الخليفة الراضي ، خطأ ، أن ابن رائق قادر على انقاذ الوضع المتدهور ، فقلده منصب أمير الأمراء ، وكلفه مسؤولية ادارة الدولة ، فبطلت وظيفة الوزارة ، ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير .

سلطات الوزارة وأنواعها :

الوزارة ، هي الوظيفة الثانية في الدول العربية الاسلامية ، بعد الخلافة ، يعهد بها الخليفة إلى أحد المرشحين الأكفاء لينوب عنه في ادارة شؤون الدولة والاشراف عليها . وكان الوزير يشرف على رؤساء الدواوين المختلفة كما يشرف على تسيير شؤون الادارة بشكل عام ، وأحياناً يدخل الإشراف على الجيش ضمن اختصاصه ، ومع هذا فإن سلطاته تتحد بنوع الوزارة التي يتولاها فإذا كانت وزارته ذات سلطاته مقيدة ، سميت وزارته هذه " بوزارة التنفيذ " وانحصرت مسؤولياته في تنفيذ أوامر الخليفة لا غير ، وهو في هذا الموقع واسطة بين الخليفة والشعب ، دون أن تكون له استقلالية في رسم السياسة العامة ، فالرأي والاجتهاد يبقى للخليفة وعلى الوزير أن ينفذ ما يؤمر به ، وما يصدر عن الخليفة من أحكام .

من هذا يبدو أن دائرة سلطة وزير التنفيذ تقتصر على وضع أوامر وتعليمات الخلافة موضع التطبيق ، دون أن ينفرد بممارسة السلطة والمسؤوليات . هذه المهمة التي يتولاها " وزير التفويض " مفوض من الخليفة في ممارسة كافة سلطاته ، دون الرجوع إلى فوزير التفويض ذو سلطة واسعة تشبه سلطات رئيس الوزراء في العصر الحديث ، بل تزيد عنها أحياناً ، مثل جباية الضرائب وانفاق الأموال العامة ، حسب اجتهاده وتقديره .

ويملك وزير التفويض ، سلطة الحكم ، واصدار الأحكام بما ينسجم وأحكام الشريعة السمحاء ، سواء في القضاء أو المظالم ، وله الحق في تولية الأمراء على الأقاليم ، وادارة الحروب ورئاسة الجيوش .

واذا كانت وزارة التفويض بهذه الأهمية والخطورة ، فقد وضع الفقهاء شروطاً لمن يتقلدها ، هي أقوى وأكثر من تلك التي يجب أن تتوافر في وزير التنفيذ ، فتوليها لا يتم إلا بعقد من الخليفة نفسه وبصيغة قانونية يفهم منها كافة سلطاته كأن يقول الخليفة لمرشح الوزارة .

" قد قلدتك ما إلي نيابة عني "

أو أن يقول له " قد فوضت إليك الوزارة " .

الكتابة والكتاب :

ظهرت وظيفة الكاتب في الدولة العربية الاسلامية منذ أيام الرسول الأعظم (ﷺ) في المدينة المنورة فقد ذكر من جملة كتابه الصحابة ؛ علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت (رضي الله عنهم) كتبوا له سور القرآن الكريم ، والكتب التي خاطب بها ملوك عصره ، يدعوهم للاسلام .

وباتساع الدولة العربية الاسلامية في عهد عمر (رضي الله عنه)، وتعقد ادارتها ظهرت الحاجة الماسة إلى وجود الكتاب في الأقاليم ، خاصة بعد أن دونت الدواوين ، وعين كاتب لكل ولاية يكتب في ديوانها .

وفي العصر الأموي ارتقت وظيفة الكتابة فكان لمعاوية طائفة من الكتاب ، كاتب للرسائل ، وكاتب للخراج ، وآخر لديوان الجند ، وآخر لديوان الخاتم .

لقد اهتم المسؤولون في الدولة العربية الاسلامية بالكتاب ، فهؤلاء مسؤولون عن تحرير الرسائل الرسمية في السياسة الداخلية والخارجية ، وهم الذين يعلنون للناس مراسيم وقرارات المؤسسات الادارية على اختلافها .

ويمثل العصر العباسي قمة التطور في ازدهار فن الكتابة ، وضبط أصولها ، وتعدد كتابها، فهناك كاتب للجيش ، وآخر للقضاء ، وللشرطة ، والوثائق ، والخراج ، وكاتب للوزارة ، ودار الخلافة .

الحجابة

يمكن تلمس جذور هذه الوظيفة في العصر النبوي الشريف إلا أنها كانت طوعية وليس لمن يقوم بهذه الوظيفة مكان محدد .

تطورت الوظيفة هذه في العصر الأموي . ويتولى صاحبها حجب رئيس الدولة عن الناس ، ولا يسمح لأحد بمقابلتها إلا في مواقيتها المحددة .

وقد رسخت أصول هذه الوظيفة في العصر العباسي ، حتى وجدنا المؤرخين يوردون قوائم

بأسماء الحجاب ضمن قوائم موظفي الدولة الآخرين . ولم يقتصر الحاجب على باب الخليفة حسب ، بل كان هناك حاجب للوزارة ، وآخر للقضاء ، كما اوجدوا وظيفة حاجب الحجاب ، يرأس الحجاب كلهم .

ولم يكن مفهوم الجبابة واحداً في المشرق والمغرب ، ففي العراق كان الحاجب يقوم بما يقوم به رئيس التشريفات ، بينما كان الحاجب في الأندلس يتمتع بسلطة الوزير ، وإن لم يتسّم بالوزير .

لامارة على الأقاليم :

جابه العرب في عمليات التحرير للأراضي العربية ، معضلات كثيرة ومشاكل معقدة ، كانوا يجهدون أنفسهم لايجاد الحلول المناسبة والملائمة لها .

ولا ريب أن أكبر هذه المشاكل ، كانت مشكلة ادارة الدولة العربية الاسلامية وتسيير شؤونها ، وحفظ مصالح الناس ، ورعاية أمورهم .

في العاصمة (المدينة ، دمشق ، بغداد) كان يقيم الخليفة ، وهي الجهة المركزية في ادارة الدولة ، وعنه تتفرع كافة السلطات والصلاحيات لموظفي الجهاز الاداري الواسع .

ومع أن الخليفة كان صاحب السلطة العليا في الدولة ، فلم يكن بوسعه عملياً ادارة شؤون الدولة على سعتها ، ومن قصره في حاضرة الدولة كان عليه أن يفوض لأمراء الأقاليم وولاتها حق النظر في شؤون ولاياتهم .

ظهرت ادارة الأقاليم في الدولة العربية الاسلامية منذ عهد الرسول العظيم (ﷺ) ، الذي عين ولاة الأقاليم البعيدة عن المدينة ، وعهد إليهم بصلاحيات ادارتها وفي العصر الراشدي ، توسعت الدولة العربية الاسلامية ، بعمليات تحرير سريعة ضمت امصاراً كثيرة كالكوفة والبصرة والشام ومصر والجزيرة . وكان لابد لهذه الأمصار من مؤسسات ادارية تتولى شؤونها ، ويقف على رأس هذه المؤسسات أمير المصر نفسه .

كان تعيين الأمراء يصدر من الخليفة مباشرة ، وبحكم ظروف التحرير آنذاك كان الأمراء يتولون القيادة العسكرية بأنفسهم ، وكما كان الجيش العربي آنذاك هو الأمة كلها ، كان

الأمير في المصر ، يمثل الدولة ، فهو ممثل الخليفة ، ومنفذ ارادته ، والمشرف على تطبيق القوانين في المصر .

كان الأمير يملك السلطة التنفيذية والقضائية معاً ، ثم صار الخليفة يعين قضاة مستقلين تصدر أوامر تعينهم ورواتبهم من العاصمة ، وذلك منذ عهد عمر (رضي الله عنه) فانفصلت السلطة القضائية عن التنفيذية واستقلت .

حقاً كان لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) دور أساسي في تنظيم ادارة الأقاليم ، خاصة فيما يتعلق بفصل السلطات (الادارية والمالية والقضائية) ، اذ جعل كلا منها مستقلاً عن الآخر ، تهيمن عليها رقابة الخليفة الصارمة ، إن توجيهات عمر وعلي (رضي الله عنهما) لولاة الأقاليم ، كانت تخدم هذا الغرض الا وهو : اشراف رئاسة الدولة على عمال الأقاليم ومحاسبتهم باستمرار .

شهد العصر الأموي من الدولة العربية الاسلامية اقصى توسع سياسي موحد للدولة ومن ثم فقد تطلب هذا التوسع تقسيماً ادارياً يسهل ادارته ، أما هذا التقسيم فقد توزع إلى ولايات كبرى منها الشام والحجاز ومصر والعراق والجزائر وتونس .

والملاحظ هنا أن هذه الولايات كانت ترتبط بها وحدات ادارية كبيرة ، فالبصرة ، مثلاً : كانت تتبعها البحرين وعمان . وقد دمجت في أغلب الأحوال مع الكوفة في وحدة ادارية تخضع لسلطة أمير واحد .

إن الدولة العربية الاسلامية في هذا العصر ، على سعتها ، (لم تنجح فيها المحاولات الانفصالية) كما هو الحال في العصر العباسي ، ولعل هذا يكشف قوة الادارة العربية ومتانتها ، ومركزيتها في عهودها المبكرة .

ومع أن التقسيمات الادارية في العصر العباسي قد زاد عددها على الثلاثة عشر ، إلا أن الخلفاء العباسيين الأوائل نجحوا في الحفاظ على الوحدة السياسية والادارية للدولة ، واخضاع هذه التقسيمات الى رقابة الخليفة المستمرة عن طريق صاحب الخبر ، وصاحب البريد ، ينقلان للخليفة الوضع العام للاقليم ، وسياسة الأمير مع أبناء الشعب ، وأسعار

المواد الغذائية ، وعدالة الأحكام القضائية وسيرة موظفي الخراج مع الناس في استحصال الضريبة ، يقول الطبري : " إن ولاة البريد في الافاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم ، بسعر القمح والحبوب والادم ، وبسعر كل ماكول . وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال ، وكل حدث ، فإذا وردت كتبهم ، نظر فيها .. " متابعاً استقرار أسعار المواد الغذائية ، وعدالة الأحكام القضائية ، وسلامة اجراءات عامل الخراج ، وكان يكتب إلى الولاة عنها ، وكثيراً ما عنف بعضهم وعزل البعض الآخر .

استعانت الادارة العربية في هذا العصر برجالات العرب ذوي المقدرة الادارية الحازمة ، لتسيير أوضاع هذه الأقاليم أمثال يزيد بن حاتم المهلبي والي افريقية (تونس) ومعن بن زائدة الشيباني والي اليمن ، وخازم بن خزيمة والي ارمينة . وقد عقب اليعقوبي على قائمة الاداريين العرب في السنين الأولى للعصر العباسي ، فأشار إلى ثقة الخليفة العباسي بهم واعتماده عليهم .

لقد اعتمدت الادارة العربية على (بعض) الفرس ايماناً منها بنزعة المساواة ، ولكن بعض هؤلاء ما لبثوا أن كونوا تياراً كان الخط العام له مناهضة السيادة العربية للدولة ، ويمكن اعتبار طاهر بن الحسين ، ومحاولته تكوين دويلة مستقلة في عهد المأمون مثالاً على ذلك .

ان هذه المحاولات ، وقد تعددت ، اضعفت البناء الاداري للدولة ، وفككت وحدتها منذ أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع ، ومع أن هؤلاء الولاة فرضوا سيطرتهم على بعض أقاليم الدولة بالقوة ، فقد ظلوا يحاولون الحصول على اعتراف شرعي بولايتهم من الخليفة العباسي الذي حافظ على مكانته الدينية المرموقة في نفوس الناس .

ان مثل هذه الولاية تسمى بعرف الفقهاء " امارة استيلاء " يقرها الخليفة اعترافاً بالأمر الواقع فهو يعقدها مضطراً بعد أن استولى هؤلاء واستبدوا في شؤن ولاياتهم . واكتفوا في ارسال بعض الأموال والهدايا إلى الخليفة في بغداد لقاء اعترافه بهم .

وامارة الاستيلاء على النقيض من (امارة الاستكفاء) التي يوليها الخليفة شخصاً باختياره

وترشيحه ، ويعهد إليه بادارت بتفويض منه .

ان الفقهاء يسمون هاتين الامارتين باسم الامارة العامة التي يفوض فيها الخليفة الأمير كل الصلاحيات العسكرية ، والادارية ، تمييزاً لها عن " الامارة الخاصة " التي يتولى فيها الأمير صلاحيات ادارية محدودة .

الدواوين في الدولة العربية الاسلامية :

نشأت الدواوين

في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ظاهرة مهمة وهي نشوء النظم والمؤسسات الادارية استجابة لحاجات المجتمع والدولة وتلبية لها . ثم ما تلبث هذه النظم ان تنمو وتتكامل تحت تأثير تطور المجتمع . ونشوء الدواوين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مثال حي لما نقول .

في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حرر العرب معظم الأمصار وضموا الأقاليم لدولتهم الفتية وكانت سياسة الخليفة الثابتة أن تبقى الأمة العسكرية وتحت السلاح، متأهبة متوثبة للتحرير والتحدي المجابهة لها فكان لا بد له ، أن يهتم بالجيش وعطاء الجيش ، فأنشأ ديواناً خاصاً بهذا الغرض ، ثبت فيه أسماء الجند ، وقبائلهم ومقدار اعطياتهم .

في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) انشئ " ديوان الجند " سنة ٢٠ هـ ودون باللغة العربية وكان الديوان الوحيد في المدينة ، أما في الولايات فهناك دواوين للخراج ودواوين للجند على غرار ديوان المدينة المنورة .

والديوان هو السجل الذي يحوي أسماء المقاتلين ، وأرزاقهم ، وحين تعددت الدواوين صار معناه السجل بصورة عامة . ثم صار المعنى أخيراً يطلق على المكان الذي يحفظ فيه السجل.

أنواع الدواوين :

تنوعت الدواوين في الدولة بتنوع حاجاتها وتشعب مهامها الادارية ، وقد تطورت بشكل

تدريجي ابتداء من صدر الاسلام وحتى العصر العباسي حيث اكتملت بشكلها النهائي .

ومن أهم هذه الدواوين هي :

١- ديوان الخراج :

من أهم الدواوين في الدولة ، يشرف على تنظيم الخراج وهو الضريبة التي تؤخذ عن الأرض الزراعية وجبايته والنظر في مشاكله . فهو العمود الفقري لمالية الدولة .

٢- ديوان الجند :

وضع هذا الديوان على نفس الأسس التي تم فيها ديوان الجند في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) واستمر العمل به طيلة عهود الدولة العربية ، وان كانت المصادر تشير في السنين الأخيرة إلى ديوان آخر للجند يسمى " ديوان العرض " يختص بالاشراف على تنظيمات الجيش ، ورواتب أفراده .

٣- ديوان البريد :

يشرف هذا الديوان على نقل الأخبار والرسائل بين الولايات وعاصمة الدولة (دمشق ، بغداد) والروايات تشير أن معاوية أول من أوجده . وقد اهتم العباسيون بديوان البريد ، ليشرفوا من خلال هذه المؤسسة على أقاليم الدولة وأوضاعها ، وقد قسمت طرق البريد إلى محطات ، يستريح فيها حملة البريد من عناء المسير وقد يتم استبدالهم بآخرين يواصلون الرحلة .

وكما استخدمت البغال لنقل الرسائل، استعمل إلى حد ما (الحمام الزاجل) لنقل الرسائل بسرعة فائقة إلى مركز الدولة أو أطرافها .

٤- ديوان الرسائل

كان عمل هذا الديوان قائماً على تحرير رسائل الخليفة إلى ولائه في أقاليم الدولة العربية الاسلامية ، والاشراف على مكاتبات الخليفة مع الدول الأخرى . كما كانت تجري فيه كتابة العهود والتقليدات . وكان يتولى هذا الديوان يعرف باسم " صاحب ديوان الرسائل " . وكان هذا الديوان يسمى أحياناً بـ " ديوان الانشاء " .

٥- ديوان الصدقات :

كانت مهمة هذا الديوان النظر في موارد الزكاة والصدقات ، وتحديد مستحقيها وتوزيعها بينهم حسب ما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾(١)

وقد ورد ذكر هذا الديوان لأول مرة في خلافة هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢ م .

٦- ديوان النفقات :

ومهمته الاشراف على نفقات الدولة المختلفة .

٧- ديوان الطراز :

كانت مهمة هذا الديوان الاشراف على المعامل التي تنسج الملابس الرسمية ، الأعلام ، وشارات الدولة .

٨- ديوان المظالم :

أسس هذا الديوان للنظر في شكاوي أبناء الشعب ضد رجال الحكم ، والموظفين ، وقد كان الخلفاء يباشرون بانفسهم النظر في ظلامات المتظلمين ، وقد جرت العادة خلال العصر العباسي الثاني وما بعده أن يعهدوا بذلك أحياناً للوزراء ، أو من يرون من القضاة .

تعريب ديوان الخراج :

إن أهم ثمرة من ثمار الحضارة العربية الاسلامية في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان كانت تعريب ديوان الخراج ، من اللغة الفارسية في العراق ، والاغريقية في الشام ، فصارت دواوين الخراج كلها تكتب باللغة العربية ، علماً أن الدواوين المركزية في حاضرة الدولة كانت تكتب بالعربية منذ البداية .

---

(١) سورة التوبة / ٥٩ .

جاءت خطوة التعريب ، بعد أن استقرت أوضاع الدولة ، واتجهت للوحدة الادارية واستقلالها من أي نفوذ اجنبي .

لقد اثبت الاداريون العرب أن لهم مرونة فكرية ، خدمت الادارة العربية ، فلا يعقل تغيير هذه الدواوين مباشرة وبشكل فوري ، والعرب مشغولون بالأمور السياسية العليا ، وبعمليات التحرير الكبرى . لقد كانت حركة التعريب أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الفارسية والاغريقية إلى اللغة العربية ، كما أدت إلى انتشار اللغة العربية بين الموالي مما أدى إلى انتشار الثقافة العربية بينهم ، كما أصبحت اللغة العربية لغة الادارة والثقافة اضافة إلى أنها لغة السياسة والدين . ولا ننس أن عملية التعريب كانت تحتاج بطبيعتها وقت كافياً يستطيع الاداريون العرب من خلاله تهيئة الأشخاص القادرين على أداء هذه المهمة .

كما استحدثت الادارة العربية في العصر العباسي دواوين أخرى ، شمل ديوان القضاء ، الذي يحفظ سجلات ووثائق المحاكم القضائية ، وديوان المظالم ، ويحوي سجلات وعرائض المظالم التي يرفعها الناس للخليفة أو وزيره ، كما نجد ذكراً لديوان المعونة ، الذي يشرف على تنظيم شؤون قوى الأمن وينظم أحوالها .

من هنا نرى أن الادارة العربية لم تتأثر بالنظم الأجنبية اياً كانت ، بقدر تأثرها بأحوال المجتمع العربي ذاته وتطوره ، وما استحدث من هذه الدواوين ، وبقية المؤسسات الأخرى إلا استجابة لحاجات المجتمع العربي وتطوره ، فالادارة العربية لم تغرم بالاقتباس من النظم الأجنبية كما يؤكد المستشرقون ، بقدر ما جهدت أن تستحدث النظم التي تسد حاجات معينة متطورة ، وهذا سر ظهور هذه النظم بشكل تدريجي وبتطور طبيعي .

أسئلة

س ١ : عرف ما يأتي : امرة الأمراء ، وزارة التفويض ، امارة الاستيلاء ، ديوان الجند .

س ٢ : ما العوامل التي ساهمت في التخلص من السلاجقة الأتراك ؟

س ٣ : بين باختصار النظام الاداري في العصر الأموي ثم اذكر أهم التطورات التي جرت عليه في العصر العباسي .

س ٤ : ما العوامل التي ساعدت على تعريب ديوان الخراج في العصر الأموي وما أهمية ذلك؟

نشاط

يبحث الطلبة عن كلمة " الخلافة " و " الوزارة " في القواميس اللغوية ويضعونها في كراساتهم .

الباب الرابع النظام القضائي في الدولة العربية الاسلامية

الفصل الأول القضاء

معنى القضاء وأهميته :

القضاء في اللغة هو ابرام الأمر والفراغ منه . أما في الاصطلاح فإن الكلمة المذكورة ترد لفصل الحكم بين الناس ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ (١)

أي الفصل بينهم . ومثل ذلك قولهم : قد قضى القاضي بين الخصوم ، أي قد قطع الحكم بينهم . فهو قاض إذا فصل وحكم بين المتنازعين .

وللقضاء في الدولة العربية الاسلامية أهمية أساسية ، فيه تناط مهمة اقرار العدل وسيادة القانون في المجتمع . وكان الرسول العظيم (ﷺ) أول من اهتم بالقضاء ومارسه فكان يقضي بين المتنازعين ويحكم بين المتشاجرين .

ظهور الوظيفة القضائية في الدولة العربية الاسلامية :

عني الرسول العظيم (ﷺ) بتنظيم قواعد القضاء في الدولة ، بعد أن صار لزاماً على المسلمين جميعاً الرجوع إليه والتسليم بحكمه ، قال تعالى مخاطباً رسوله العظيم :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٢)

لقد أصبح رجوع المسلمين إلى الرسول (ﷺ) في منازعاتهم من مقومات الايمان ، وتقررت

---

(١) سورة الشورى / ١٤

(٢) سورة النساء / ٦٥

بذلك السلطة القضائية للرسول (ﷺ) وحده ، فدخلت بذلك فكرة القانون عن طريق الدين إلى العرب ، واصبحت جزءاً من تراثهم الفكري .

وظهر اهتمام الرسول (ﷺ) بالقضاء واضحاً عندما كان يوكل لطائفة من الصحابة القضاء في خصومات الأفراد بحضوره . كما ولى القضاء جماعة من الصحابة ، فعين عليا (رضي الله عنه) ومعاذاً قضاء اليمن .

ولما تولى أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الخلافة ، حشد طاقات الأمة كلها للقضاء على حركات الردة ، والحفاظ على وحدة الأمة ، وكان عمر (رضي الله عنه) يقضي بين الناس بأمر من الخليفة .

وفي خلافة عمر (رضي الله عنه) انطلقت الأمة موحدة ، بعمليات تحرير شجاعة رائعة ، وسعت حدود الدولة العربية الاسلامية وكان أمير الأقاليم يباشر القضاء بنفسه في أول الأمر، إلى أن عين عمر (رضي الله عنه) قضاة على مختلف الأقاليم ، يمارسون مهمة القضاء بين الناس ، مستقلين بسلطاتهم عن الأمير ، من هنا وصف عمر(رضي الله عنه) بأنه أول من استقضى القضاة في الدولة وعين لهم الرواتب الكافية ، وعمل على استقلال القضاة .

كان سلمان بن ربيعة الباهلي أول قاضٍ عينه عمر (رضي الله عنه) على الكوفة ، ثم استقضى شريحاً . كما استقضى على البصرة كعب بن سور ، وعلى البحرين أبا هريرة ، وعلى دمشق أبا الدرداء ، وعلى مصر قيس بن ابي العاص . أوصى عمر (رضي الله عنه) عماله بالمحافظة على قيم العدالة من خلال وصاياه وكان مما كتبه إلى معاوية وكان عامله على الشام، إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة (أي الدلالة الواضحة) أو اليمين القاطعة وأدناه الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه وتعاهد الغريب فإنك ان تتعاهده ترك حقه ورجع إلى أهله وإنما ضيع حقه من لم يرفق به وأسى بين الناس في لحظك وطرفك وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء .

أما في عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فقد استمر حال القضاء على ما كان عليه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) .وفي عهد خلافة علي (رضي الله عنه)

عينت الدولة قضاة على جميع الأمصار ، التزموا قواعد العدل والقضاء ، وذا ينبوع خاص بهما حتى قال عمر (رضي الله عنه) :أقضانا علي .إن الحكم بالعدل قاعدة أكدها القرآن الكريم:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ

التزم القضاة في أحكامهم بالرجوع إلى القرآن الكريم ، والسنة ، وإجماع الأمة وما لم يجدوا حلاً للمسألة فإنهم احرار في الاجتهاد وقد أباح الرسول العظيم (ﷺ) لمعاذ حين ولاه قضاء اليمن حق الاجتهاد . وقد راعى القضاة العرب في اجتهادهم مصالح الناس ، وأعرافهم ، وقواعد العدل التي أكدها القرآن الكريم والرسول (ﷺ) .

في العهد الراشدي كان الخلفاء يعينون قضاة على مختلف الأقاليم . كما اعطي هذا الحق (تعيين القضاة) لبعض الولاة . ولكننا نلاحظ في العهد الأموي أن تعيين القضاة وعزلهم في مختلف الأقاليم صار من سلطة الولاة . حتى رواتب القضاة حددها الولاة أنفسهم . وذلك لأن الدولة العربية الاسلامية في العصر الأموي كانت قد اتسعت فأخذ الخلفاء بالنظام اللامركزي في ادارة أقاليم الدولة .

لقد ادخل العباسيون تطوراً أساسياً في السلطة القضائية ، عندما حصروا سلطة تعين القضاة بالخلفاء وحدهم ، فقوي مركز القاضي في الأقاليم ، واستقل بوظيفته عن الأمير ، وصارت رواتبه ترد إليه من العاصمة مباشرة .

ولم يكتف العباسيون بسلطة تعين القضاة فحسب ، بل طوروا الادارة القضائية بشكل دقيق ومنظم ، فاستحدثوا وظيفة " قاضي القضاة " ليشرف على قضاة الدولة كلها ، ، ويراقب سيرهم في القضاء . وكان القاضي ابو يوسف أول من تقلد منصب قاضي القضاء في العهد العباسي من قبل الرشيد .

وعنيت الادارة العربية باختيار الأكفاء من القضاة ، وكانت تصدر لهم عهوداً بتقليدهم

القضاة . فيها أصول وقواعد القضاء . وكثيراً ما قرئت هذه العهود في المسجد الجامع ، بحضور الناس والقضاة . ان المصادر تحفظ لنا كثيراً من هذه العهود ، التي تشير الى جهد الذي بذلته الدولة والأمة لفرض العدل بين الناس ، والحكم بينهم بموجبه .

وكان القاضي بعد أن يتسلم أمر تعيينه ، يجلس في المسجد الجامع ليباشر الحكم في خصومات الناس . تحيط به هيئة من المستشارين ، علاوة على كاتب الأحكام ، وطبقة من الشهود العدول والأعوان.

وكما هي الحال في العصر الحديث ، على المدعي أن يرفع دعواه برقعة " عريضة " فإذا كان خصمه حاضراً أجريت المرافعة أمام القاضي ، وإلا فللقضاة أعوان يستدعون الخصوم إلى مجالسهم . ويحق للمدعي والمدعى عليه أن يوكل وكيلاً عنه (محامي) ليترافع أمام القاضي لقاء أجر يدفع قسماً منه قبل المحاكمة ويدفع القسم الثاني بعد صدور القرار لصالحه .

ان دراسة تاريخ النظام القضائي في الدولة العربية الاسلامية يشير بوضوح إلى استقلال القضاء ونزاهته في الأحكام ، وقد حرص الخلفاء والوزراء على تجنب التأثير أو التدخل في شؤون القضاء ، تطبيقاً للعدالة ولدينا كثير من الدعاوي حسمت لصالح البسطاء من الناس، وكان الخلفاء أنفسهم طرفاً فيها .

نشأة وظيفة ناظر المظالم :

تميزت السلطة القضائية في الدولة العربية الاسلامية بالحيوية والنمو ، وكان من مظاهر حيويتها نمو مؤسسة قضائية ذات أهمية استثنائيةَ إلى جانب دائرة القاضي ، ينحصر اختصاصها في النظر في دعاوي الناس ، المرفوعة إلى رئاسة الدولة ، لترفع عنهم الظلم الذي حل بهم من موظفي الدولة أو أجهزتها

فناظر المظالم ينظر " في كل حكم يعجز عنه القاضي ، فينظر فيه من هو أقوى منه سلطة ".

ظهرت وظيفة ناظر المظالم في العهد الراشدي ، وكان الخليفة علي (رضي الله عنه) أول من نظر فيها ليرسي العدل ويرد مظالم الشعب كما وصف عبد الملك بن مروان انه خصص لها يوماً ينظر فيه مظالم الناس ويحول بعض دعاواهم إلى قاضيه ادريس الاودي الذي منحه بعض الصلاحيات الاستثنائية . ولما جاء عمر بن عبد العزيز (رد المظالم إلى أهلها) حتى لو كانت قد وقعت من الأمويين أنفسهم .

لقد اشارت المصادر إلى أن الخلفاء كانوا يبادرون إلى عقد مجلس المظالم بسرعة للنظر في مثل هذه الدعاوي ذات التأثير العام ، كالخراج ، والري ، والضرائب . ثم ما يلبثون أن يصدروا أحكامهم العادلة لتقرأ وتعمم على أقاليم الدولة كافة .

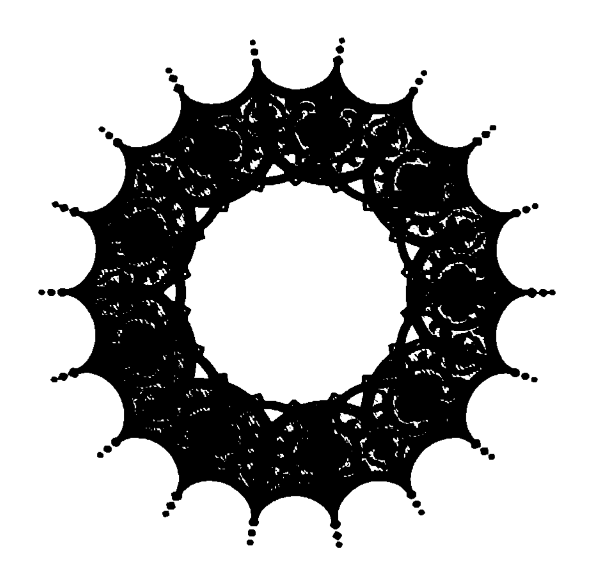
نظر الخلفاء في مظالم الشعب ، كما نظر الوزراء ، وقد أولى العباسيون هذه المؤسسة اهتماماً خاصاً ، فحضروا جلساتها بأنفسهم ، وتابعوا تنفيذ أوامرهم بأنفسهم أيضاً ، وقد استمر جلوسهم للمظالم إلى عهد الخليفة المهدي أما بعد هذا العهد فقد ضعفت سلطة الخلفاء لتسلط القوى الأجنبية فكان من الطبيعي أن تضعف سلطتهم في فرض الأحكام .

ان تطبيق مبادئ العدل من قبل القضاة في الدولة العربية الاسلامية يجعلنا نتخذ من عملهم قدوة لنا ودرساً في حياتنا الحاضرة التي يجب أن نضمنها مبادئ العدل وعدم المماراة وحب

الخير والفضيلة والصلاح والاستقامة .

ولكن الخلفاء ما لبثوا في عهود انتعاش سلطة الخلافة ، حتى عاودوا النظر في مظالم الشعب ، وكان ذلك في أواخر العهد السلجوقي .

لم يقتصر وجود مؤسسة المظالم على حاضرة الدولة (العاصمة) فحسب ، بل انتشرت في أقاليمها كافة ، ولكن أفراد الشعب كانوا يفضلون عموماً المجيء الى بغداد لعرضها على الخليفة مباشرة .



الحسبة ، كوظيفة القاضي ، استحدثت لتطبيق أسس العدالة في المجتمع ولتنفيذ مبدأ : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) . من هنا كانت وظيفة الحسبة ذات ارتباط بالقضاء تتوسط بين القضاء والمظالم .

ومع أن (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كقاعدة اجتماعية تدخل في مجال الاخلاق والتشريع ، لا يمكن تحديد اطارها بشكل دقيق ، فإن الحسبة ، كوظيفة قضائية ادارية اختصت بشكل أساسي في تنظيم أحوال السوق ومعاملاته . ثم تطورت مهامها .

التطور التاريخ لوظيفة الحسبة :

كانت الأسواق منذ عهد مبكر من الدولة العربية الاسلامية موضع اهتمام المسؤولين وعنايتهم لتعلقها بمعاش الناس وغذائهم . وفي أحاديث الرسول العظيم (ﷺ) اهتمام واضح بالسوق ومعاملات البيع والشراء فيه ، وحديثه " ليس منا من غشنا " انما يشمل غش البضاعة في السوق ، وبيعها على غير حقيقتها وقد عين الرسول (ﷺ) سعد بن سعيد على سوق مكة المكرمة لمراقبتها ، كما استعمل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على سوق المدينة المنورة .

وفي العصر الراشدي ، كان الخليفة عمر (رضي الله عنه) يشرف على أسواق المدينة المنورة واحالة الأسعار فيها بنفسه . والمصادر تذكر أنه ولى احدى الصحابيات (الشفاء بنت عبد الله العدوية) على سوق المدينة المنورة .

كذلك كان الخليفة علي (رضي الله عنه) يمر في الأسواق ينهى عن الغش ، في الكيل والميزان ، ويوصي اصحاب السلع بأخذ الحق واعطاء الحق .

واستمر اشراف الدولة على الأسواق طيلة العصر الأموي ، وقد اطلق في هذا العصر ، على الموظف الذي يشرف على الأسواق اسم " العامل على السوق " وانحصرت وظيفته بمراقبة

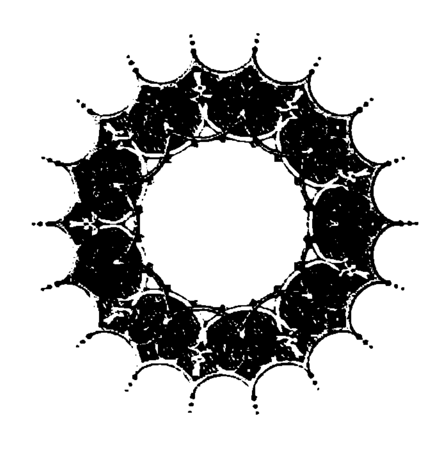
الأوزان والمكاييل .

ان وجود وظيفة العامل على السوق ، أو صاحب السوق ، لدليل واضح على عروبة أصول هذه الوظيفة . فوظيفة صاحب السوق اصلاً كوظيفة المحتسب في نظم الدولة العربية . ان نهضة الحياة الاقتصادية في المجتمع العربي الجديد ، والرخاء والانتعاش المالي الذي حل به ورغبة الدولة في تنظيم الأسواق ، كل هذه العوامل كونت الظروف الطبيعية الموجبة لاستحداث محتسب السوق في حياتها الاقتصادية .

وفي بداية العهد العباسي ، أولى المنصور أسواق بغداد اهتماماً ملحوظاً فعين عليها محتسباً ، وهو أبو زكريا يحيى بن عبد الله . ومنذ ذلك التاريخ صار الخلفاء يعينون محتسبين على أسواق بغداد ، وغيرها من المدن العربية في مختلف الأرجاء .

كان على المحتسب أن يقوم بمهام دينية واقتصادية واجتماعية واسعة ، كان يمنع المجاهرة بشرب الخمرة ، أو عقد المعاملات التجارية الفاسدة (التي فيها ربا) كما يمنع القسوة على الصبيان في الكتاتيب ، والمجاهرة في مظاهر الطرب والغناء والرقص .

إن المهم في واجبات المحتسب ما يتعلق بأمر السوق ، ومراقبة كافة أصحاب الصنائع والحرف والحيلولة دون غش المواطنين . ومن المهم أن نشير إلى أن عليه مراقبة الجاليات الأجنبية ورصد ما قد تقوم به من عمليات تجسس في المدينة وأسواقها .



الفصل الرابع

في ظل الدولة العربية الاسلامية ازدهرت الحضارة ، ونمت المدن وتوسعت ، وكان لزاماً على المسؤولين أن يوجدوا لهذه المدن نظماً تنظم نمط الحياة فيها وتوفر للسكان رغد العيش ورفاهه .

لقد ازدهرت المدن في أسواقها ، ومدارسها ، وحياتها الاقتصادية ظهرت هذه الوظيفة في الدولة العربية الاسلامية ، منذ زمن الرسول (ﷺ) حيث عهد إلى بعض الصحابة حفظ النظام في المدينة المنورة . وكان لا بد من جهاز أمني منظم يضبط شؤون المدن ، ويوفر لها استقرارها ، فكان استحداث نظام الشرطة خدمة لهذا الغرض .

في خلافة علي (رضي الله عنه) عرفت وظيفة (صاحب الشرطة) الذي يشرف على جهاز الشرطة والأفراد ، كما استحدثت موسسة السجن لحبس الجناة والمخالفين .

وفي العصر الأموي طُور جهاز الشرطة ، وزاد عدد أفراده في كل أقليم لغرض ضبط شؤون الاقليم والسيطرة على الأمن فيه .

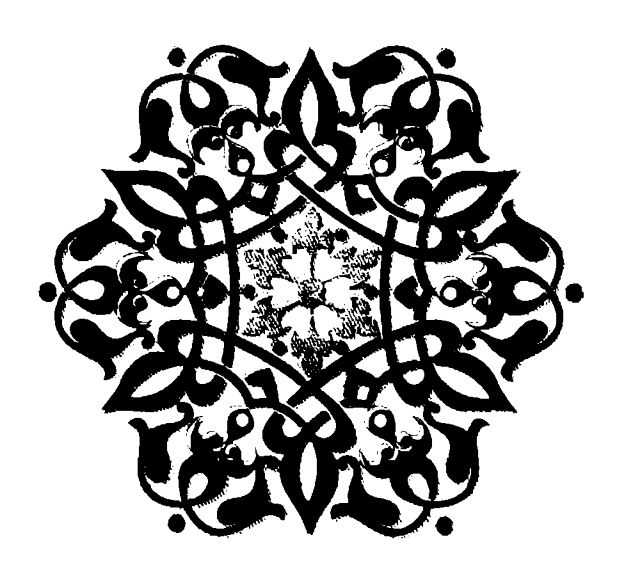
ونظراً لأهمية هذا المنصب فقد كان الخلفاء والأمراء في العصر الأموي يشترطون شروط معينة فيمن يقلدونه هذا المنصب ، فكانوا يولونه لأشخاص يتميزون بالكفاية والمقدرة والحزم والأمانة .

وكان إلى جانب صاحب الشرطة ، صاحب الحرس . يتولى مهمات أمنية كبيرة ، ويتلقى أوامره من أمير الاقليم مباشرة .

لقد رافق نمو المدن العربية وتوسعها ، توسعاً في جهاز الشرطة لحفظ الأمن والسيطرة على النظام ، ومراقبة المتجاوزين على القانون والنظام من أقاليم الدولة وقد أناط المسؤولين بصاحب الشرطة سلطات واسعة ، وقد ساعد الشرطة والحرس في هذا الغرض طائفة أخرى سموا بـ " العسس " الذين يطوفون أحياء المدن ليلاً لحراستها .

في المغرب العربي ، اطلق على صاحب الشرطة " الحاكم " وفي الأندلس سموه بـ " "صاحب المدينة " المسؤول عن أمنها واستقرار الحياة فيها .

وسلطة الشرطة ، في مشرق الوطن ومغربه ، واسعة ، خاصة بعد أن استقلوا عن دائرة القاضي ، وانيطت بهم مهمة النظر في الجرائم ومكافحتها .



اسئلة

س ١ اذكر أهم المؤسسات التي أهتمت بمهمة مكافحة الجريمة ؟

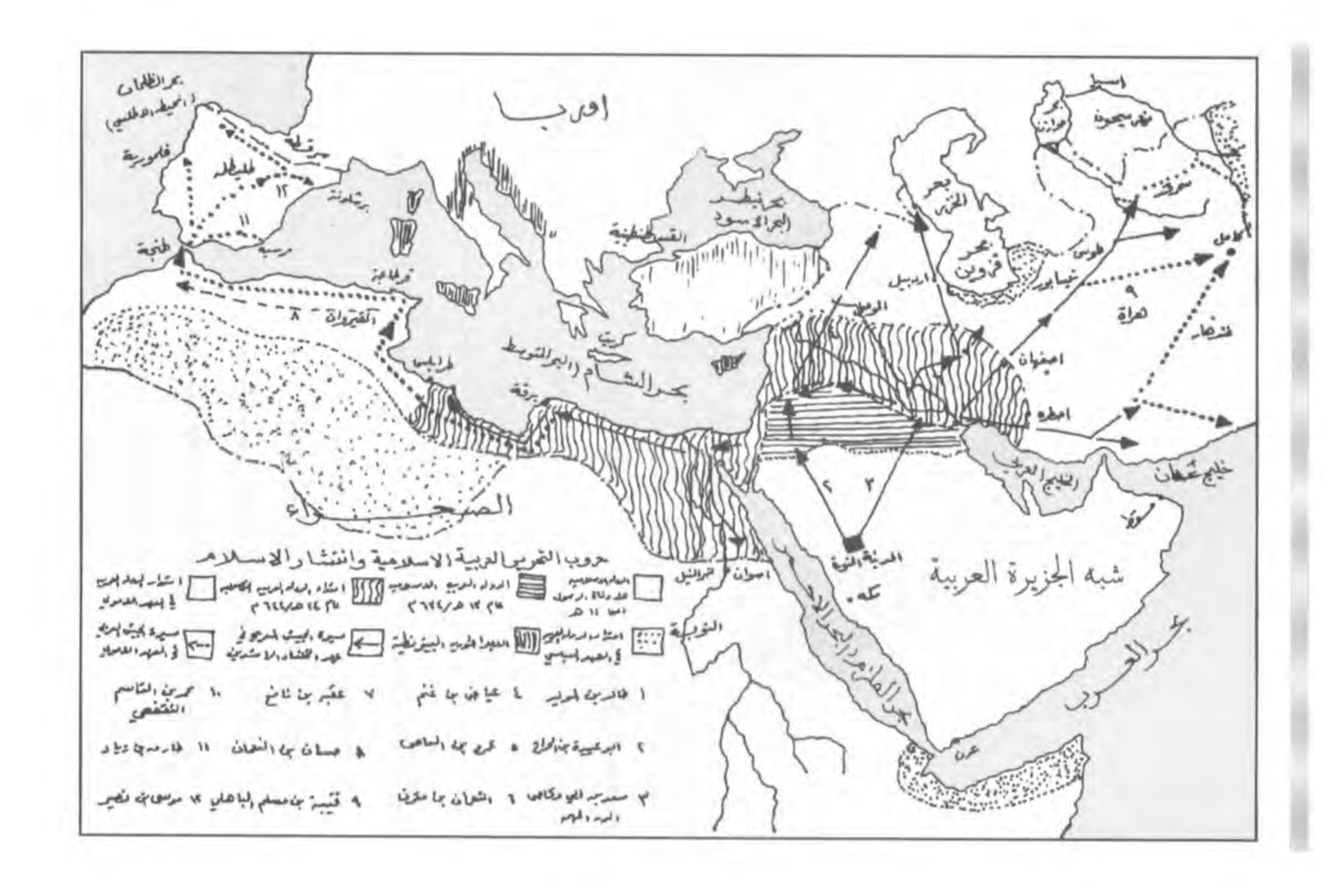
س ٢ ما هي التطورات الأساسية التي ادخلها العباسيون على السلطة القضائية ؟

س ٣ [ناظر المظالم ينظر في كل حكم يعجز عنه القاضي ، فينظر فيه من هو أقوى منه سلطة]

ناقش العبارة موضحاً أهمية النظر في المظالم في ارساء العدل ورد مظالم الناس .

نشاط

بعد أن درست نظام الحسبة وعرفت وظائفه حدد من يقوم بتلك الوظائف أو ما يشابهها في الوقت الحاضر .



أوروبا
بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)
طليطلة
طنجة
القيروان
برشلونة
القسطنطينية
بحر نيطس (البحر الأسود)
بحر الشام (البحر المتوسط)
برقة
الصحراء
بحر الخزر
بحر قزوين
أردبيل
الموصل
اصفهان
هراة
نيسابور
سمرقند
قندهار
شبه الجزيرة العربية
المدينة المنورة
مكة
أسوان
النوبة
الخليج العربي
خليج عمان
بحر العرب
بحر القلزم (البحر الأحمر)
عدن
حروب التحرير العربية الاسلامية وانتشار الاسلام
١ خالد بن الوليد ٤ عياض بن غنم ٧ عقبة بن نافع ١٠ محمد بن القاسم الثقفي
٢ أبو عبيدة بن الجراح ٥ عمرو بن العاص ٨ حسان بن النعمان ١١ طارق بن زياد
٣ سعد بن أبي وقاص ٦ النعمان بن مقرن ٩ قتيبة بن مسلم الباهلي ١٢ موسى بن نصير

الباب الخامس النظام الحربي

الفصل الأول الجيش

الجهاد :

كان لا بد للدولة العربية الاسلامية أن تعتمد على قوة حربية منذ بداية نشأتها للدفاع عن نفسها ضد الأعداء ، ونشر الاسلام . لذلك كان الجهاد فرضاً على جميع المسلمين وأمر به القرآن الكريم وأكدته الأحاديث النبوية الشريفة . وهو فرض على كل مسلم يستطيع القيام به والجهاد هو القتال في سبيل الله ، ومن قتل في سبيل الله فمأواه الجنة ، قال الله تعالى في ذلك :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١)

فهو من الشهداء ، والشهادة كانت الهدف الأسمى للمجاهد ، فهو يسعى في قتاله للعدو إلى تحقيق احدى الغايتين النصر أو الشهاد وقال تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ (٢)

(١) سورة آل عمران ١٦٩

(٢) سورة التوبة / ١٠٦

وهذه العقيدة زودت المحاربين بمعنويات عالية . وكان على الخليفة بصفته امام الدولة الاسلامية واجب القيام باعلان الجهاد ضد الأعداء (دار الحرب) ، اذ لم يكن يجوز في نظر المسلمين الصلح مع الدولة غير الاسلامية ولكن يجوز عقد هدنة معها لا تتجاوز عشر سنوات ، وبخاصة حين يحتاج المسلمون الى مثل هذه الهدنة .

تطور الجيش :

لقد كان المسلمون في حياة الرسول (ﷺ) جنوداً يجاهدون في سبيل الله وبقيادة الرسول (ﷺ) . ولم تكن للدولة ميزانية خاصة للإنفاق على الجند لأنهم يتطوعون وينالون أربعة أخماس الغنائم ، وكان كل مقاتل يجهز نفسه بأسلحته ودابته ، فإن لم يتح له ذلك استطاع أن يحصل على الدابة من مخازن الصدقة .

ولما بدأت حركة التحرير أيام الراشدين ، احتاجت الدولة الى جيش كبير دائم يكون على استعداد في أيام الحرب والسلم على السواء . وقد دفعت هذه الحاجة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى انشاء ديوان الجند وصرف العطاء لهم من خراج البلاد المحررة ليتفرغوا للجندية ولا يلجأون إلى الزراعة وامتلاك العقارات فيفقدوا روحهم العسكرية . وقد أبدى الجيش العربي المحرر تسامحاً وحسن معاملة للشعوب المحررة واحترام كرامتهم ، فلم يسترقهم ، بل صان حياتهم واملاكهم عبادتهم ، واكتفى بأن يدفعوا ضريبة معتدلة .

كان الجند يقيمون في العصر الأموي في ثكنات ومعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة في البلاد المحررة ، وجدير بالذكر أن العرب عمدوا منذ البداية الى تمصير الأمصار في البلاد المحررة ، فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها على شكل معسكرات يقيم فيها الجند المحرر وقسموها إلى خطط بحسب القبائل . وفي العصر الأموي كان للجيش دار لاقامته في كل مدينة ، ولكن إذا مرَّ عند تحركه بالريف فعلى أهل القرى اطعامه من طعامهم ثلاثة أيام .

وكان العرب في عصر الراشدين والأمويين يحملون معهم نساءهم الى ميادين القتال ، وكان جيش الخليفة الأموي الخاص يتكون من أجناد الشام وهو يقوم بحرب الروم والقضاء على الفتن الداخلية . أما في الولايات فقد كان الولاة هم المسؤولون عن شؤون الحرب وقد استعانوا بالقبائل العربية التي استوطنت الولايات . ولما كانت حروب الدولة الأموية مستمرة مع البيزنطيين (الروم) فقد وجهت عناية كبيرة لجيوشهم وكان التفوق في هذه الحروب للمسلمين في أول الأمر حتى اوشكوا السيطرة على القسطنطينية مرتين ، مرة أيام معاوية

ومرة أيام سليمان بن عبد الملك غير أن البيزنطيين انتهزوا فرصة الفتن والانقسامات الداخلية في أواخر العصر الأموي فأخذوا يغيرون على البلاد الاسلامية المتاخمة لهم . ومع ذلك ظلت الدولة الأموية تقوم بحملات سنوية منظمة على اراضي البيزنطيين وبخاصة في الصيف وهي التي سميت بالصوائف . وقد ازداد عدد أفراد الجيش في العصر العباسي حتى بلغ مئات الألوف من الجند ، فكان جيش العراق وحده (٥٢١) ألفاً ، وكانت للجند النظاميين رواتب تدفع من ديوان الجيش الذي سمي فيما بعد ديوان (العرض) . وكان راتب الجندي يبلغ عشرين درهماً في الشهر وهو مبلغ يكفي للمعيشة الاعتيادية بسبب القوة الشرائية للدرهم ورخص أسعار الحاجات وقيام الدولة بالصرف على تغذية الجنود وسلاحهم .

وعلى الرغم من وجود جيش منظم ظلّ التطوع للجهاد قائماً في جميع العصور الاسلامية ، وقد ساهم المتطوعون في الحملات على حدود الدولة البيزنطية وفي مناطق الحدود هذه قامت (الربط) التي امتلأت بالمتطوعة ، وهي المعسكرات التي يكونون فيها على استعداد دائم للحرب . ثم أصبح (الرباط) فيما بعد نوعاً من أماكن العبادة يعيش فيه رجال جمعوا الزهد والجهاد وأسهموا في الحروب ضد الروم والفرنجة (الصليبيون) فيما بعد .

قيادة الجيش وتشكيلاته :

كان الخليفة نادراً ما يقود الجيش ، إلا أن بعض الخلفاء قد خرجوا إلى الغزو بأنفسهم مثل

هارون الرشيد والمعتصم غير أن قيادة الجيش عهد بها في كل جبهة إلى قائد يدعى (الأمير) وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة ، لأنه ينوب عنه في القيادة وامامة الصلاة . وكان اذا اجتمع أكثر من قائد في مكان ما جعل الخليفة أحدهم على الاخرين فيصبح هذا القائد بمثابة (قائد القواد) ، واذا توقفت الحرب أصبحت مهمة هؤلاء القادة مقصورة على النظر في أمور الجند وتدريبهم .

لما ضعفت الخلافة العباسية وتعددت الدويلات الاسلامية ظهرت ألقاب عديدة تدل على قائد الجيش مثل : أمير الامراء ، وأمير الجيوش ، ورئيس الرؤساء ، وقائد القواد . ومع ذلك بقي الخليفة من الناحية النظرية القائد الأعلى لجيش المسلمين ومن ثم احتفظ بلقبه (أمير المؤمنين) .

ومنذ العصر الأموي هجر العرب تنظيم الجند في صفوف تجري في مقدمتها المبارزات الفردية التي كانت مجالاً لإبراز الشجاعة والمفاخر ، وتبنوا نظام تعبئة يقوم على تقسيم الجيش الى خمسة أقسام أو كتائب هي : الميمنة والميسرة والقلب – حيث يكون القائد – والمقدمة والساقة أي المؤخرة . وهذا النظام يقوم على تقسيم الجند الى مجموعات في عشرات ومئات وألوف على شكل مربعات أو مثلثات أو أهلة . وظل هذا التقسيم معمولاً به في أيام المماليك والعثمانين . واطلق على القائد الذي يقود عشرة جنود لقب عريف ، والذي يقود مائة لقب نقيب أو خليفة والذي يقود ألفاً لقب قائد . أما لقب أمير فأطلق على القائد العام للجيش .

ونجد بجانب المقاتلين من الفرسان والرجالة طوائف أخرى كثيرة تقوم بخدمة الجيش وتسهيل مهمته مثل النفاطين وضاربي المنجنيق والعيون وهم الطلائع الذين يرصدون تحركات العدو نجد كذلك القضاة والأطباء والمؤذنين والقراء والنجارين والحمالين .

كان العرب قبل الاسلام يعيشون في حالة حرب مستمرة بسبب فقدان سلطة مركزية عليا . وقد أدى هذا إلى تدربهم على القتال والى اهتمامهم الكبير بالأسلحة التي صنعوها

أو عملوا على توفيرها عن طريق الشراء من البلدان المجاورة لهم فاقتنوا السيوف والرماح والأقواس والسهام والدروع وغيرها . وكان من مبادئ تربية الصبيان قبل الاسلام وفي صدره تعليمهم العلوم والرماية .

كانت السيوف أبرز أسلحة العرب والمسلمين وهي أنواع ، منها اليمانية والهندية والمشرفية والبصرية ، أما الرماح فقد اشتهرت عندهم منها الردينية (نسبة الى امرأة تدعى ردينة اشتهرت قبل الاسلام بتثقيب الرماح) والسمهرية والخطية التي كانت تستورد من الهند وتباع في مدينة الخط في البحرين .

وكانت أسنة الرماح العربية تختلف ما بين مشعبة وعريضة ودقيقة ومموجة ومستوية . وكانت الرماح قبل الاسلام وفي صدر الاسلام تعقد برؤوسها الالوية (الاعلام) ، وكان يحملها الفرسان في المواكب . أما في الحرب فكان يقاتل بها الفرسان على الخيل .
وعرف العرب الأعمدة واستخدموها في مختلف العصور . كذلك عرفوا أنواع الخناجر والنصول والفؤوس وتفنن العرب في صنع السهام ، فمنها (النشاب) ذات النصول المثلثة من الخشب ، ومنها (الجرادة) وهي قصيرة تطلق نحو الهدف بتجري بسرعة هائلة ، ومنها النبل وهي السهام المعروفة . وحذقوا في استعمال القسي التي تطلق باليد وبالرجل أو التي تشد من ركاب الخيل .

وبرع العرب في استخدام آلات الحصار لحاجتهم إليها ، فعرفوا المنجنيق وهو آلة تقذف الحجارة أو اللهب ، وعرفوا الدبابات والأبراج والستائر ، وكلها من آلات الحصار يكون داخلها الرجال ويستخدمونها في ثقب أسوار القلاع والحصون . والحق أن العرب عرفوا هذه الأسلحة في وقت مبكر بحيث أن النبي (ﷺ) استخدم المنجنيق والدبابة والصبور (نوع من الدبابة يصنع من الخشب المغطى بالجلد) في حصار الطائف .

ولبس المحاربون العرب على رؤوسهم الخوذة " البيضة " . كما انهم وقوا اجسامهم بالدروع التي صنعت من الحديد في الغالب ومنها ما كان يغطي الصدر وهي (الجواشن) ومنها ما يغطي الجسم كله وهي الدروع المسبلة . وبسبب حب العرب للخيل وما اشتهر

عنهم من فنون الفروسية فقد اهتموا بوقاية خيولهم خلال الحرب فألبسوها التجافيف وهي دروع حديدية تغطي اجسادها وتصد عنها اصابات الأعداء .

واستخدم العرب النفط في حروبهم وكانت فرقة النفاطين من الفرق الأساسية في ارباك صفوف العدو واحراق سفنه وقلاعه .وبسبب الاحتكاك بالبيزنطيين اقتبسوا (النار اليونانية) وهي عبارة عن تركيب كيميائي أساسه النفط يستخدمه النفاطون في اشعال الحرائق في جبهة العدو .

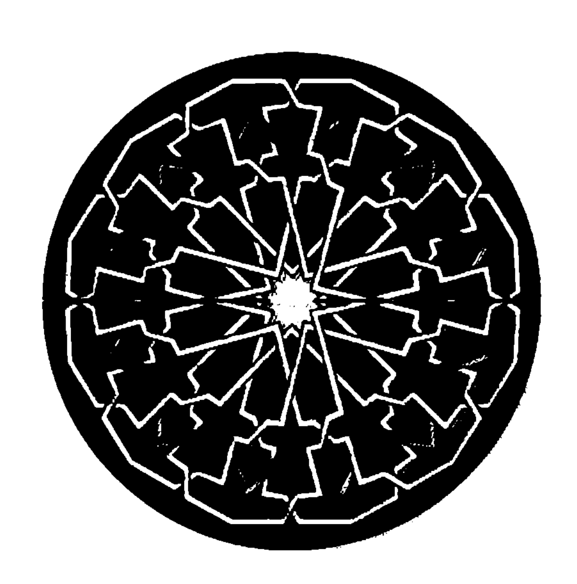
وكان الجيش العباسي يزود بكل ما يحتاج إليه من معدات مثل الخيام والدواب من الخيل والجمال والفيلة والبغال . ونجد (خزائن السلاح) من المؤسسات الرئيسة في بغداد أيام العباسيين وكانت موضع عناية الخلفاء . وقد استخدم في (خزانة السلاح) و (خزانة السروج) أيام العباسيين عدد كبير من الصناع والموظفين .

برع الجيش العربي الاسلامي في كل فنون الحرب المعروفة في العصور الوسطى فكانوا في حالة الدفاع يحفرون الخنادق ثم عمدوا الى انشاء القلاع والحصون . واستخدموا الكمائن والخدع الحربية ولجأوا الى عرقلة العدو بإحراق الأرض أو استخدام الثعالب والكلاب وذلك بأن يعلقوا النار في أذنابها ثم يطلقوها لتعدو في معسكرات العدو .

تميز الجندي العربي بالخفة وسرعة الحركة والصبر على الجوع والعطش والتعب . وكان الانضباط عالياً بين صفوف الجند ، فقد شدد القواد بالعقاب على الذين يعبثون بالنظام أو الذين يتعرضون للسكان المدنيين . ومما ساعد على حسن السلوك قوة العقيدة الدينية . وقد اتبع العرب المسلمون الرأفة مع الأسرى ومعاملتهم معاملة كريمة . وسلكوا مسلكاً انسانياً مع الأعداء فكان لا يجوز قتل الشيوخ والرهبان والنساء والأطفال في الحروب ولا في السلم.. ومن جهة أخرى اتبع العرب المسلمون اسلوب تبادل اسرى الحرب واسلوب (الفداء) بالمال . لقد خاض الجيش العربي معارك مهمة بعد أن حاز النصر المؤزر في معركة القادسية عام ١٥هـ . فقد واصل التقدم والزحف الى بقية اقطار الوطن العربي ، من أجل تحرير الأرض العربية الأبية من السيطرة الأجنبية عامة . والسيطرة الفارسية خاصة .

كما تصدى لكل الحركات الهدامة والمؤامرات التي كان يحوكها الفرس الحاقدون على الدولة العربية وكان له الدور المشرف في الدفاع عن سيادة الأرض العربية ووحدتها ، كما يفعل جيشنا العراقي الباسل في معركة الشرف والكرامة ، معركة قادسية صدام المجيدة ، ضد العدو الفارسي اللئيم .

لقد أخذ جيشنا المقدام على عاتقه مهمة الدفاع عن البوابة الشرقية لوطننا العربي بقيادة فارس الأمة المناضل صدام حسين (حفظه الله ورعاه) والذي حقق النصر والسلام في ٨/٨/١٩٨٨ م.



مصادر ومراجع الفصل الأول

صبح الأعشى	القلقشندي
كتاب الوزراء	الصابي
خطط الشام	محمد كرد علي
الاسلام والحضارة العربية	
تاريخ الحضارة الاسلامية	عبد المنعم ماجد
مختصر تاريخ العرب	سيد أمير علي

اسئلة

١- عرّف ما يأتي :

أ - الجهاد ب - المنجنيق جـ - الربط .

٢- تحدث عن تطور الفنون الحربية في الاسلام .

٣- ما أبرز الأسلحة التي استخدمها المسلمون ؟

٤- صف تشكيلات الجيش العربي وقيادته .

نشاط

اكتب تقريراً عن تطور الجيش في الدولة العربية الاسلامية مستعيناً بالمراجع المثبتة اعلاه .

الفصل الثاني البحرية

تطور القوة البحرية :

كان لإحاطة البحار بشبه الجزيرة العربية من ثلاث جهات أثر في تطور الملاحة على سواحلها قبل الاسلام ، لذلك كانت على اتصال بالبلاد الأخرى بحراً منذ العصور القديمة . وقد ازدهرت التجارة البحرية بين شبه جزيرة العرب ومصر والهند وكان معظمها بيد عرب اليمن الذين قاموا برحلات تجارية طويلة مع الشرق الأقصى وجلبوا منها البضائع النادرة وتركوا آثاراً في علم البحار تدل على مدى تقدمهم في الملاحة . كما كان أهل البحرين وعمان يشتغلون بصنع السفن والملاحة ، وكانت لهم موانئ كبيرة اشهرها دارين ، وقد ساهموا في ملاحة الخليج العربي والمحيط الهندي ، وقد وصف طرفة بن العبد سفنهم في معلقته المشهورة .

ولما ظهر الاسلام وبلغت حروب التحرير العربية السواحل المحيطة (بالدولة العربية الاسلامية) أبدى بعضهم ميلاً إلى ركوب البحر . وكان أول من قام بغارة بحرية من شواطئ شبه الجزيرة العربية هو عثمان بن العاص الثقفي والي البحرين الذي قام بغارة بحرية من ساحل الهند أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي كان حريصاً على العرب ، وقد دفعه حرصه هذا الى عدم ارتياحه من ركوبهم البحر . وأراد العلاء بن الحضرمي والي البحرين الذي خلف عثمان بن العاص الثقفي أن يظهر جرأته فعبر الى فارس بالسفن ، غير أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) غضب عليه غضباً شديداً فقرر عزله لأنه لم يستأذنه ولما طلب معاوية بن أبي سفيان والي الشام من عمر (رضي الله عنه) أن يأذن له في القيام بحملة على بلاد الروم بحراً منعه وحذره أن يعرض العرب المسلمين لأخطار البحار .

غير أن الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) سمح في سنة ٢٧ هـ ، لمعاوية في القيام

بحملة على جزيرة قبرص ، وبدأت الحملة من عكا في سنة ٢٨ هـ ، بمراكب كثيرة . والتحق من مصر اسطول آخر وتمت الحملة بنجاح ، وقد شجع هذا النجاح على تطور البحرية العربية . وكانت سياسية العرب البحرية في هذه الحقبة حذرة ودفاعية واهتموا بالدرجة الأولى بتعزيز الحصون في مدنهم الساحلية .

كانت مصر في مقدمة البلاد التي ساهمت في بناء الاسطول العربي لأن صناعة السفن كانت أكبر صناعات الاسكندرية . والى جانب السفن والاسطول التجاري كانت مصر تصنع السفن الحربية على نوعين ، نوع كبير كالبوارج وتتسع الواحدة لألف رجل ، ونوع صغير كالطرادات وكانت الواحدة تتسع لمائة رجل ، وهذه الأخيرة مهمتها السير السريع والالتفاف حول السفن الكبرى .

كانت السفن الحربية مزودة بآلات القذف من المجانيق ، ومن آلات رمي الحجارة ، وفيها الأبراج العالية تستعمل في تسلق الأسوار المحصنة وذلك بأن يقيموا قنطرة من الألواح على الفراغ القليل الذي يفصل بين البرج والسور يعبرون عليها . وكانت مجهزة بآلات تقذف النار .

وكان للعرب اسطول في البحر الأحمر أيضاً ، وقد استخدموه في نقل الحنطة وغيرها من مصر الى الحجاز . حيث تم في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتح قناة تربط النيل بالبحر الأحمر .

في سنة ٣٥ هـ استطاع العرب أن ينتصروا على الروم (البيزنطيين) في معركة (ذات الصواري) البحرية والتي سميت بهذا الاسم لكثرة ساريات السفن التي اشتبكت في القتال . وقد أدى هذا النصر الى دعم سيادة الأسطول العربي على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط . لذلك عمد معاوية بعدها الى القيام بمحاولة فتح القسطنطينية عاصمة الروم نفسها. وقد قوى معاوية الثغور البحرية في مصر والشام وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر ووجه اهتماماً كبيراً الى دور الصناعة التي تصنع السفن الحربية وغيرها من المراكب التي تنقل المؤن والعتاد . وعلى الرغم من أن العرب لم يستطيعوا الاستيلاء على

القسطنطينية بعد حرب استمرات سبع سنوات فإنهم أثبتوا للروم أن عاصمتهم اصبحت مهددة بالأسطول العربي .

كانت في العصر الأموي ثلاثة اساطيل مستقلة عن بعضها ، ويعمل كل منها في منطقة معينة هي اسطول مصر واسطول سورية ثم اسطول شمال افريقية، هذا علاوة على وحدة بحرية صغيرة تعمل في البحر الأحمر وقد انعقد لواء كل من هذه الاساطيل لأمير من أمراء البحر .

قام الاسطول العربي في العصر العباسي بنشاط واسع في اقريطش (كريت) وقد حاول الروم الحد من هذا النشاط بشن الغارات البحرية على شواطئ مصر ، غير أن الخليفة المتوكل على الله أمر ببناء حصون على ساحل البحر المتوسط مما عزز الدفاع عن هذه السواحل .

وحين ظهر خطر الفرنجة (الصليبيون) الذين أخذوا يغيرون على سواحل بلاد الشام للاستيلاء عليها ، قام العرب برد هذا الخطر باستخدام اساطيلهم الكبيرة حيث حققوا بواسطتها انتصارات باهرة في عدة مواقع حربية في موانئ بلاد الشام في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أولى الأسطول عنايته الكبيرة فأنشأ ديواناً له سماه (ديوان الأسطول) .

أنواع السفن العربية ومعداتها :

قام العرب المسلمون بصنع أنواع عديدة من السفن والشواني وشحنوها بالرجال والسلاح وسموا مجموع السفن اسطولا . وعلى مر الأيام برعوا في صنع السفن وأكثروا منها حتى ملأوا البحار بها ووضعوا لها أسماء بحسب اختلاف أشكالها وتباين حجومها وتستمد السفن العربية أسماءها من شكل الهيكل مثل البغلة والقنجة والسنبوق والجهازي وغيرها .

وقد تكّون القسم الأمامي من هيكل السفينة من المقدم والجؤجؤ وهو صدر السفينة . والدقل وهو سهم السفينة . ومن الأجزاء المهمة في مقدمة السفينة (الأنجر) وهو مرساتها . وفي القرن الرابع الهجري كانت السفن (التي تبحر في المحيطات) أكثر من مرساة قد تبلغ الستة أحياناً . أما المؤخرة فهو أجزاء المركب الخلفية ويتكون من السكان أو الخيزرانة أو الكوتل أي الدفة وهي التي تدير السفينة يميناً وشمالاً . وكانت الدفة الجانبية هي النوع

الوحيد الذي عرفه العالم القديم والوسيط ، لكن العرب عرفوا دفة المؤخرة . أما القاع فهو جوف السفينة في أسفل أجزائها ، والجمعة الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح ، والسلوقية مقعد الربان من السفينة .

وكانت هياكل السفن تصنع من خشب أشجار الصنوبر الذي كان يغطي أحياناً بطبقة من خشب البلوط . أما السفن الحربية فكانت تصنع من خشب البلوط ثم تغطى بطبقة من خشب الزان . ومن الأخشاب المهمة التي استخدمت في صنع السفن خشب أشجار اللخ والسنط والأرز اللبناني وأخشاب بلاد الأناضول ، وبعد أن تبنى السفن تكسى ألواحها من الخارج بالقار أو الشمع أو بكليهما .

ولما كانت طبيعة البحار مختلفة فإن العرب جعلوا لكل بحر أنواعاً خاصة من الخشب لتقاوم التيارات والأمواج والصخور ، لذلك استخدموا خشب الساج وهو أنفس أنواع الخشب وأكثرها مقاومة للمؤثرات البحرية والجوية في بناء السفن التي تمخر المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وفي هذه السفن لم يستخدم العرب المسامير ، إنما استخدموا حبال الليف في تثبيت الألواح لأن مياه هذه البحار تؤثر في الحديد ، في حين استعملوا المسامير في سفن البحر المتوسط ، وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب وبعض المواد الأخرى لمقاومة أذى النفط .

أما معدات السفن الحربية فكانت الزرد والخوذ والدرق والتراس والرماح والكلاليب والسلاسل ذات الرمانات (الكرات) الحديدية . وكانوا يجعلون فى أعلى السارية صندوقاً مفتوحاً من الأعلى يلقي منه الرجال الحجارة أو النار على سفن العدو . ومن الأدوات في السفن اللجام وهو كالفأس في مقدمة السفينة على شكل سنان ورمح بارز يساعد على خرق سفن العدو عند الاصطدام بها . وكانوا اذا اقتربوا من مراكب العدو ألقوا عليها الكلاليب وجذبوها إليهم ثم يلقون عليها ألواحاً فيعبرون إليها .

وكان من أجزاء السفن المهمة المجاذيف التي كانت كثيرة توضع في صفوف مناسبة . وتعتبر الصواري والشرع قلب السفينة وهي تسيرها وتحركها . وقد تفنن العرب المسلمون

في صنع السفن وزخرفتها حتى صنعوها على شكل الحيوانات كالفيل والأسد والفرس والعقرب .

مصادر ومراجع الفصل الثاني

المرجع	المؤلف
المقدمة	ابن خلدون
البحرية في الاسلام	الدكتورة سعاد ماهر
العرب والملاحة في المحيط الهندي	حوراني
قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط	الدكتور ابراهيم العدوي
تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام	الدكتور احمد مختار العبادي واخر
عمان في العصور الاسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الاسلامية	الدكتور عبد الرحمن العاني

أسئلة

١- ما العوامل التي دفعت العرب إلى ركوب البحر ؟

٢- عرِّف : (أ) ديوان الاسطول (ب) ذات الصواري

٣- كيف كانت تصنع السفن الاسلامية ؟ أذكر أجزاء السفينة

نشاط

اكتب تقريراً عن تطور القوة البحرية في الدولة العربية الاسلامية مستعيناً بالمراجع المثبتة علاه .

لقد شملت الدولة العربية الاسلامية أراضي شحيحة الأمطار وقليلة الزراعة ، منتشرة في أرجاء متعددة ، وخاصة على سفوح بعض الجبال وفي الصحاري الواسعة وكانت هذه المناطق الصحراوية يسكنها أقوام يمتهنون الرعي في الغالب ، وليس لهم مقام ثابت بل ينتقلون وراء الكلأ والمرعى هم البدو ، ويتميزون بتحمل المشاق والمهارة في القتال .

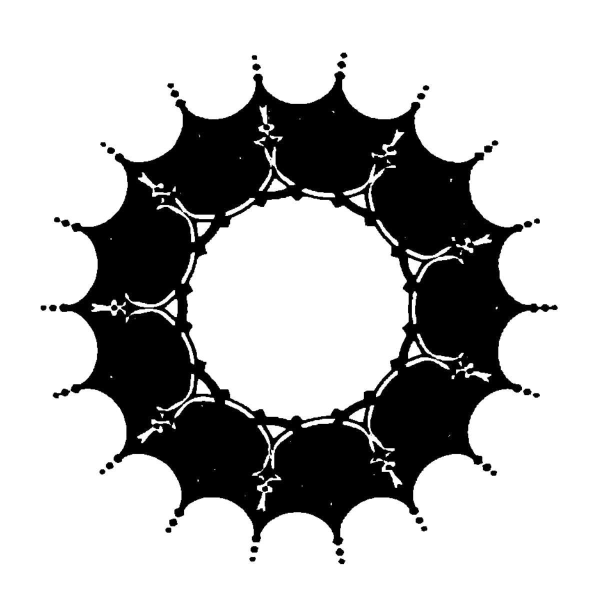
ولا شك في أن أهم المناطق الصحراوية هي شبة جزيرة العرب التي ظهر فيها الرسول الكريم (ﷺ) ونشر دعوته ، وثبت دولة الاسلام فيها ، وبذلك اعتنق العرب كافة الاسلام ، وكانوا قادة الجيش العربي الاسلامي في مختلف أقاليم الدولة . وقد أدى هذا إلى أن ينتقل من شبه الجزيرة العربية معظم رجالها من ذوي الحيوية والكفاءة إلى الأمصار وأقاليم الدولة العربية الاسلامية ، فقل عدد سكانها وهدأت الحياة فيها ولم تسهم بدور كبير في أحداث الدولة العربية الاسلامية بعد القرن الأول . غير أن أهل شبة الجزيرة العربية ظلوا يحتفظون باللغة العربية الفصيحة ، وكان كثير من علماء اللغة يرحلون إلى شبه الجزيرة العربية ليأخذوا من العرب المقيمين فيها الفصحى ، واخبار العرب .

وقد ظلت الصلات وثيقة بين سكان شبه الجزيرة العربية والأقاليم التي في أطرافها وخاصة العراق وبلاد الشام ، فكان كثير من العرب البدو يخرجون إلى هذه الأطراف ويستقرون فيها، وأدى هذا إلى قوة آثار البداوة في المجتمعات التي استقرت في غربي العراق وفي شرقي بلاد الشام ، ومن أهم هذه القبائل التي ظلت تلعب دوراً مهماً في احداث جنوب العراق حتى أواخر الخلافة العباسية ، بنو أسد ، وبنو المنتفق ، وخزاعة .

وقد انتقل من اقليم الحجاز إلى السودان منذ القرن الثالث الهجري عدد من القبائل العربية من بلاد الحجاز ، وخاصة من بني سليم وبني عذرة ، كما انتقل إلى المغرب العربي بنو

هلال، واكتسحوا في طريقهم كثيراً من المدن ، ودحروا كثيراً من الجيوش ، وكان خروجهم المصدر الأساس لقصة الهلالية المشهورة في الأدب العربي . كما انتقل بنو حنيفة من اليمامة إلى مصر وبلاد النوبة وسكنوا في وادي العلاقي وهو واد مشهور بالذهب فاشتغلوا بالتعدين.

ولما غزا الفرنج (الصليبيون) بلاد الشام وهددوا مصر نشط عرب شبه الجزيرة العربية لمقاومتهم ، وانضم كثير منهم إلى جيوش الأيوبيين والمماليك التي قاتلت الصليبيين حتى أزاحتهم عن البلاد التي كانوا قد احتلوها .



الفصل الثاني
الفلاحون

أهمية الزراعة

كانت للزراعة أهمية رئيسية في الدولة العربية الاسلامية ، فقد كانت المنتوجات الزراعية هي المصدر الأول للمواد الغذائية التي يعتمد عليها الناس في معاشهم ، كما أنها تقدم أهم المواد الأولية في الصناعة ، فالقطن والكتان من أهم المواد في المنسوجات التي يلبسها الناس، والأخشاب ضرورية للبناء وللوقود ولصنع كثير من الأثاث البيتية ، وبناء السفن ، والحصران المصنوعة من القصب هي من أهم المفروشات وخاصة في بيوت العامة من أبناء الشعب . ثم إن كثيراً من الأصباغ والعطور والأدوية تعتمد على المنتوجات الزراعية .

والزراعة هي الحرفة الرئيسة التي يشتغل فيها أكبر عدد من سكان البلاد الاسلامية ، وهي مصدر معيشتهم وحياتهم ، ومنبع ثروة الملاكين ؛ وكان اعتماد الدولة الرئيس في مواردها على ما تجبيه من الضرائب على الزراعة ، ولذلك كان توفير وسائل ازدهار الزراعة وتقدمها من واجبات الحكومة ، كما أن ديوان الخراج هو المسؤول عن تنظيم جباية الضرائب الزراعية من الفلاحين وهو أهم دواوين الحكومة وأكثرها تعقيداً .

[illegible]

تعتمد الزراعة على الري ، لما كانت الدولة العربية الاسلامية واسعة جداً ، وتختلف أقاليمها في مناخها وامطارها وتوافر مياهها ، لذلك كانت وسائل الري متنوعة . ففي بلاد الشام ، وشمالي العراق فأن الأمطار الغزيرة فيها كانت تكفي للزراعة ، أما المناطق الجبلية فتعتمد على المياه الجوفية المتكونة من ذوبان الثلوج .

غير أن قلة الأمطار في بعض الجهات جعل الاعتماد الأول للزراعة فيها على الآبار والينابيع والأنهار . ومن المعلوم أن المناطق الصحراوية ، وخاصة في شبه الجزيرة العربية ، تعتمد على المياه الجوفية والآبار التي يختلف عمقها وكميتها باختلاف الأماكن . ففي

بعض المناطق تكون المياه عميقة وقليلة ولذلك لا تكفي الآبار فيها إلا للشرب والماشية . غير أنه توجد مناطق قليلة تتوافر فيها كميات من المياه القريبة من سطح الأرض ، وهي تكفي لزراعة أرض واسعة نسبياً . وقد انشئت في بعض المناطق خزانات واسعة يجمع فيها الماء تحت الأرض ، كما كانت تحفر أحياناً قنوات تحت الأرض لايصال الماء إلى مناطق بعيدة ، وتبنى أحياناً حول بعض البقع المنخفضة سدود لحصر مياه الأمطار وجمعها والاستفادة منها في الري . وقد كانت البقع المنخفضة سدود لحصر مياه الأمطار وجمعها والاستفادة منها في الري . وقد كانت مياه بعض الينابيع غزيرة لدرجة تكفي لزراعة أراضي واسعة ، كما هو الحال في الواحات .

ولا ريب أن مياه الأنهار الدائمة هي الوسيلة الرئيسية لدى الأقاليم الغنية وخاصة مصر والعراق . فأما مصر فإنها تعتمد على النيل الذي يخترقها من الجنوب إلى الشمال فيروي الأراضي التي حوله على شكل شريط ضيق تحف به الصحاري من جانبيه . ووادي النيل مصبه خصب جداً ، وهو ضيق لا يتجاوز عرضه بضعة كيلو مترات ، ولكنه يتسع بالقرب من مصبه فيكون دلتا واسعة ترويها ترع كثيرة تستمد مياهها من النيل .

الري في العراق وتنظيمه :

أما العراق فإنه يعتمد على مياه دجلة والفرات اللذين يجريان من القسم الشمالي منه في أراض مرتفعة الضفاف . فلا يستفاد منهما في الزراعة إلا على شواطئهما الضيقة . غير أن هذه النهرين عندما يصلان الى وسط العراق يجريان في أرض منبسطة قليلة الانحدار ، فيستفاد من ميهاهما للإرواء ، وقد شق العراقيون من هذين النهرين ترعاً كثيرة لإرواء الأراضي ، ومن ذلك نهر عيسى ونهر صرصر ونهر الملك ونهر النيل التي تأخذ مياهها من نهر الفرات بين الرمادي والحلة ، وتسقى الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات في وسط العراق، كما تتشعب من الفرات عدة فروع تروي الأراضي التي في منطقة الكوفة .

أما دجلة فيأخذ منه نهر الدجيل الذي يروي الأراضي الواقعة غربي دجلة في شمال بغداد ، كما يأخذ منه النهروان الذي يروي الأراضي الواقعة في شرقي دجلة بين سامراء

والكوت ، أما في المناطق الجنوبية فتتفرع من دجلة ترع وأنهار كثيرة تسقي تلك الأراضي . وتعتمد منطقة البصرة في الأرواء على الترع الكثيرة التي تأخذ مياهما من شط العرب .
ونظراً لانبساط أراضي القسم الجنوبي من العراق ، ورخاوة تربته ، وخطورة الفياضانات فيه فقد انشئت في العراق سدود كثيرة لدرء أخطار الفيضان وتنظيم توزيع الماء في الترع والجداول .

استصلاح الأراضي

بذل العرب المسلمون جهوداً كبيرة في تجفيف البطائح والمستنقعات وتحويلها الى أراضي زراعية وكانت الدولة تقوم ببناء السدود الكبيرة والعناية بها ، وتهتم بكري الأنهار وأنشأوا ديواناً خاصاً للماء والترع الكبيرة وتنظيفها من الرمال التي تترسب فيها فتعرقل جريان الماء .
وكانت الأملاح تهدد بإفساد المزارع وتحويل الأراضي الى سباخ : لذلك اهتم العرب بمعالجتها ، بقشط الطبقة الملحية من على وجه الارض وجمع الاملاح . او بزراعة بعض النباتات التي تقاوم الملح ، كالجت والشعير وقد يزرعون الأرض سنة ويتركونها سنة أخرى، ويقومون احياناً بغسل الأرض من الأملاح وبزل المياه الزائدة .
وقد اختلت أحوال الري في العراق أواخر العهد الساساني بسبب الفياضانات الكثيرة التي اجتاحت البلاد فكسرت السدود ودمرت الترع وأغرقت كثيراً من الأراضي وحولتها الى مستنقعات وبطائح ، ثم اجتاحت البلاد على أثرها الأوبئة كالطاعون فأفنت كثيراً من السكان وانقصت الأيدي العاملة فساءت أحوال الريف .
فلما حرر العرب العراق اهتموا بإعمار البلاد وعنوا بالري ، وقد قاموا بحفر عدد كبير من الأنهار لتوفير ماء الشرب لأهل البصرة ، ولاعمار الأراضي التي تقع على ضفاف شط العرب . وفي جنوب العراق ومنطقة واسط جففوا كثيراً من البطائح والمستنقعات وأحيوا أراضي واسعة ، وحفروا عدداً من الأنهار .

وقد تابع العباسيون عنايتهم بشؤون الري في منطقة البصرة وواسط ، كما اهتموا أيضاً بالأنهار الواقعة في وسط العراق ، فحفر المنصور عدة أنهار في منطقة بغداد لتوفير مياه

الشرب لأهلها وحفر هارون الرشيد القسم الأعلى من النهروان في منطقة سامراء كما حفر المتوكل عدداً من الأنهار في سامراء أيضاً . وتابع العباسيون اهتمامهم بصيانة السدود والترع الأخرى .

وقد أدت الاضطرابات التي حدثت في أواخر القرن الثالث الهجري الى انحطاط في أحوال الري ، وقد حاول العباسيون معالجة الوضع وطهروا عدداً من الأنهار والترع التي جفت في منطقة بغداد ، كما شقوا أنهراً في منطقة الكوفة ولكن هذه المحاولات لم تؤد الى نتائج كبيرة ، فقد استمر تدهور أحوال الري في وسط العراق وجنوبه ، ثم أصاب النهروان الاهمال ، فجف في القرن السادس الهجري ، وتدمرت بجفافه مئات القرى التي كان أهلها يعتمدون على مائه في الزراعة .

ملكية الأرض

وبالنظر لأهمية الزراعة في حياة الناس فقد اعتبرت الدولة الأراضي الزراعية ملكاً عاماً للدولة ، وأما الفلاحون فإنهم يحوزون الأراضي ويستغلونها مقابل دفع الخراج الذي هو كالاجارة للدولة ، ولما كانت الدولة هي المالكة للأراضي ، فإنها تقوم بتوجيه الفلاح على زراعة المنتوجات الضرورية لحياة المجتمع ، كما أن لها أن تفرض الضريبة التي ترتأيها ؛ ولم يكن بمقدورها الاعتماد في معاشها على ما تستورده من مناطق بعيدة ، وذلك نظراً لصعوبة المواصلات في تلك الأزمنة .

غير أنه بالرغم من حق الدولة القانوني في أن تفرض على الفلاح ما تراه في الزراعة من الضرائب ، إلا أن مصلحتها كانت تقضي بالعناية بأمور الزراعة وتوفير الوسائل اللازمة لها ، وكذلك في الترفيه عن الفلاح وتمكينه من الانتاج الجيد الوافر ، اذ على مثل هذا الانتاج يتوقف ازدهار المجتمع وغنى الحكومة وقوتها .

كانت الضرائب المفروضة على الزراعة تكّون المورد الرئيسي الذي تعتمد عليه مالية الدولة وتختلف هذه الضرائب باختلاف أحوال الري والزراعة وعلاقة أهلها بالاسلام . فأما في الحجاز فإن الرسول (ﷺ) فرض على اليهود من أهل خيبر وفدك ووادي القرى أن

يدفعوا نصف الحاصل ؛ وأما بقية الأراضي الزراعية التي يمتلكها المسلمون في شبه جزيرة العرب ، فقد كانت الضريبة عليها تختلف باختلاف وسائل الإرواء وهي تزيد على عشر الحاصل .

وقد عقد العرب مع بعض البلاد التي حرروها صلحاً قرروا بموجبه الضريبة التي يدفعها أهل البلاد عن أراضيهم ، وتختلف شروط هذا الصلح تبعاً للظروف التي تم فيها عقده . غير أن أغلبية الأقاليم المحررة اعتبرت "فيئاً" للمسلمين ، تكون ملكية أراضيها للدولة ويقوم المزارعون بزراعتها واستغلالها مقابل دفع ضريبة تسمى الخراج . وقد تم في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تحرير العراق وبلاد الشام ومصر ، وهي أغنى الأقاليم الزراعية في الدولة العربية الاسلامية . وقد أصر الخليفة عمر (رضي الله عنه) على عدم توزيع الأراضي المحررة على العرب المقاتلة لأن توزيع الأرض على العرب يجعلهم ينصرفون عن القتال والفتوح ، فتحرم الدولة من خدماتهم في تلك المجالات التي كانت بأشد الحاجة اليها ، كما أن العرب اذا وزعت عليهم الأرض سينصرفون الى زراعة فينافسون الفلاحين الذين كانوا يعملون فيها ، وتتولد بينهم كثير من المشاكل ، ثم ان توزيع الأراضي على المقاتلة الذين شاركوا في التحرير سيؤدي إلى حصر ملكية الأرض بعدد محدود من العرب ، ويحرم الباقين منها ، ولا يخفى أن جعل ملكية الأراضي للدولة يمكنها من القيام بدورها في الادارة والعناية بمشاريع الري واصلاح الأراضي ، ويمكنها أيضاً من التدخل الفعال في تنظيم العلاقة بين الفلاحين والمقاتلين ، وبذلك يصبح للحكومة دور مهم في تثبيت سلطتها وتعزيز دورها في الادارة .

فرض عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الخراج على كل أرض قابلة للزراعة سواء زرعت أم لم تزرع ؛ ومقدار الخراج يختلف تبعاً لقابلية الأرض في الانتاج ، وموقعها من الأسواق ، والمحاصيل التي تنتجها . وعلى العموم فإنه فرض على كل جريب يزرع الحنطة أربعة دراهم ، والشعير درهمين ومن النخيل ثمانية دراهم ، ومن الكروم عشرة دراهم ، ومن قصب السكر

ستة دراهم ، ومن القطن والسمسم خمسة دراهم ، كما فرض على الخضر ثلاثة دراهم على كل جريب . والمحاصيل المذكورة هي المنتوجات الزراعية الرئيسية ، وتبلغ مساحة الجريب الاسلامي ١٣٦٦ متراً مربعاً أي حوالي نصف دونم .

أما الدرهم فكان في صدر الاسلام من الفضة الخالصة ويبلغ وزنه مثقالاً من الفضة النقية، أي حوالي ٤ غرامات ، وكان سعر التبادل بين الفضة والذهب حوالي ١ / ١٢ أي أن الدينار من الذهب يساوي اثني عشر درهماً ، مع العلم أن وزنهما واحد وهو مثقال .

وكان الخليفة عبد الملك بن مروان هو الذي عرب النقود أي سكها على طراز عربي وطبع عليها بالعربية آيات قرآنية وكذلك الدنانير أي جعلوا الكتابة عليها بالعربية ، ولكنهم أبقوا وزن الدينار مثقالاً ، وكان الدينار يسك من الذهب الخالص ، والدرهم من الفضة الخالصة ، وكان الدينار في زمن هارون الرشيد يساوي ٢٢ درهماً ، ثم أصبح بعده يساوي ٢٥ درهما؛ وكانت جباية الخراج في العراق والمشرق بالدرهم ، أما في بلاد الشام ومصر واليمن فكانت بالدنانير .

تخمين خراج المساحة

ان تقدير الخراج تبعاً لمساحة الأرض يسمى خراج المساحة ومن فوائد هذا النظام أن يؤمن للدولة موارد ثابتة لا تتأثر بتقلبات الأحوال الزراعية ، لأنه يعتمد على مساحة الأرض وهي ثابتة ، انه يشجع الفلاحين على تحسين الانتاج وزيادته ، اذ ما دام مقدار الضريبة ثابتاً فإن زيادة الحاصل والفائدة من تحسينه تذهب الى الفلاح ، كما أن نقص الحاصل ورداءة نوعيته يقع عبؤه على الفلاح .

جبايته

أما جباية الخراج فتتم بدراسة مساحة أرض كل قرية ومنتوجاتها ، ثم يقدر ما عليها من الخراج بعد تطبيق الأسس التي ذكرناها ، فيجبى الخراج من القرية أو المقاطعة وتقوم الدولة بين فترة وأخرى باعادة مسح الأراضي وفحص منتوجاتها . ويعاد تقدير الضريبة على أساسها . وكثيراً ما يقوم بالجباية " متقبلون " أي متعهدون يقومون بالجباية ويسلمونها الى

الدولة مقابل بعض الأرباح .

إن خراج المساحة يتطلب نجاحه أن تكون أحوال الري والزراعة والأيدي العاملة والأسعار ثابتة مستقرة .

وقد قام العرب في العهدين الراشدي والأموي باستصلاح مساحات واسعة من الأراضي بتجفيف المستنقعات والبطائح ، وبشق الترع وإزالة ملوحتها . كما أن بعضهم أخذ يمتلك أراضي زراعية واسعة وكانوا يدفعون عن كل هذه الأراضي عشراً ، وهو أقل من الخراج .

وكان الاقطاعيون في زمن الساسانيين يهيمنون على الزراعة ويجبرون الفلاحين على البقاء في أراضيهم ، فلما حرر العرب المسلمون العراق تشتت معظم الملاكين الاقطاعيين الساسانيين وتخلص منهم الفلاحون فأصبح بامكانهم ترك أراضيهم وخاصة بعد أن خربت بعض الأراضي الزراعية فأصبح بامكانهم ترك أراضيهم وخاصة بعد أن خربت بعض الأراضي الزراعية نتيجة الحروب وتكسر بعض السدود ولم يقيد العرب الفلاحين انتقلوا الى الأراضي التي أحياها العرب وامتلكوها ، مستفيدين من الحماية التي يوفرها لهم العرب . وهكذا تناقصت الأيدي العاملة في الأراضي الخراجية . ولما كان مقدار الخراج ثابتاً على كل قرية مهما كان عدد فلاحيها ، لذلك فإن من بقي في أرضه يكون مسؤولاً عن دفع الخراج عن أرض من يغادرها ، وهكذا زاد العبء على من بقي من الفلاحين في أرضه .

وكان أكثر الخراج تجبيه الدولة بالدراهم التي تدفعها لعطاء المقاتلة المقيمين في الأمصار ، ثم أن الدولة كانت تأخذ من الفلاح أيضاً بعض محاصيل مزارعه ، وخاصة الحنطة وتوزيعها وساعدت على ازدهار الحياة الاقتصادية فيها ، أما الريف فقد تناقصت فيه وأصبح على الفلاحين ايجاد النقود لدفع الخراج . ثم أن الامويين ظلوا يجبون الخراج بالدراهم التي وزنها مثقال حتى بعد أن سكّوا الدراهم الخفيفة .

وقد فرض الأمويون على الفلاحين ضرائب اضافية ، منها هدايا الأعياد .

ومن الضرائب الاضافية أيضاً أجور الفيوج وهم الذين كانوا يرافقون الجباة ، وكذلك نفقة

اقامة الجباة وحاشيتهم في القرية ، وأثمان القراطيس التي تستعمل لتسجيل الجباية .
وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز أن تلغى هذه الضرائب الاضافية ، ولا تستعمل الشدة في الجباية . ولكن أوامره الغيت بعد وفاته .

ذكرنا ان الاضطرابات التي حدثت في أواخر الحكم الساساني أدت الى تدمير كثير من المشاريع الري وخراب كثير من الأراضي الزراعية في العراق ، فلما حرر العرب المسلمون البلاد واستقروا فيها عنوا بشؤون الري والزراعة ؛ واهتموا باحياء الأراضي واصلاحها وشجعوا الناس على ذلك ؛ فكانوا يملّكون الأرض لمن يحييها ويصلحها ويأخذون عنها العشر . فأقبل الناس على اصلاح الأراضي وتملكها ؛ واستطاع بعض المتنفذين امتلاك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية . ثم أن عدداً من العرب أخذوا يشترون أراضي الخراج ويدفعون عنها العشر ، كما أن بعض أهل الخراج الذين شعروا بثقل الخراج وأساليب الشدة في جبايته ، أخذوا يلجؤون أراضيهم ، أي يعطونها للمتنفذين مقابل حماية هؤلاء المتنفذين لأهل الأرض ؛ وكانوا يدفعون عن هذه الأراضي العشر أيضاً ؛ وقد أدى كل هذا إلى ازدياد الأراضي العشرية وتناقص الأراضي الخراجية . وكان له تأثير كبير في تناقص مقدار الخراج الذي تجبيه الدولة .

وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع حد لتحويل الأراضي الخراجية الى أراض عشرية ، فقرر أن الخراج هو ضريبة على الأرض ، وينبغي أن يدفع حتى لو تملكها العرب المسلمون وقد أمر أيضاً أن تلغى الضرائب الاستثنائية ، وأن يعامل الفلاح بالحسنى ، غير ان قراره لم يستمر بعد وفاته ، فاستمر العرب يقتنون الأراضي ويدفعون عنها العشر .

ولما جاء العباسيون الى الخلافة ، استمر العرب بالاهتمام باقتناء الأراضي الزراعية ، وكان أغلب الملاكين يقيمون في بغداد والمدن الرئيسة ويديرون أملاكهم بواسطة وكلاء عنهم همهم بالدرجة الأولى الحصول على الأرباح التي تجني من الزراعة واستغلال الأرض . وقد أدى عدم اقامة الملاكين في الريف الى بقاء الريف مهملاً ، فلم يكن بين الفلاحين والملاكين

اتصال مباشر ، وقل اطلاع أهل المدن على المساوئ التي كانت تسود الريف فزادت الهوة بين الريف والمدن .

وقد حاول بعض الخلفاء العباسيين معالجة أحوال الريف ، وتحسين أحوال الفلاحين .

خراج المقاسمة في العصر العباسي

ولما ولى العباسيون الخلافة اهتموا بأمر الخراج ومعالجة مشاكله فأمر أبو جعفر المنصور باعادة مسح السواد وضبط الأراضي المزروعة وتمييزها عن الخراب ؛ أما المهدي فقد أمر بابطال خراج المساحة ، وأحل محله خراج المقاسمة الذي تأخذ الدولة بموجبه نسبة معينة من الحاصل تبعاً لطريقة ري الأرض ، ففرض على الأرض التي تسقي سيحاً نصف الحاصل وعلى الأرض التي تسقي بالدوالي ثلث الحاصل وعلى التي تسقى بالدواليب الربع . غير أن هذه الضريبة زيدت فيما بعد ، فأصبح يؤخذ من أرض السيح ثلاثة أخماس ثم ارجعها الرشيد الى النصف ، وأنقصها المأمون بعدئذ خُمسين ، أي أربعين بالمائة من الحاصل .

الصوافي

وكان الملوك الساسانيون وأبناء أسرتهم يمتلكون اقطاعيات واسعة ، كما كانت في زمنهم أراضٍ واسعة موقوفة لبيوت النيران والمعابد ، أو مخصصة لرعي خيول الجيش والبريد . وهي خصبة واسعة ، فلما حرر العرب العراق وضعوا أيديهم على تلك الأراضي واعتبروها صوافي ، فكانت جبايتها في العراق تبلغ حوالي خمسة ملايين درهم سنوياً .

جباية الخراج

وكانت جباية الخراج تتم اما بواسطة عمال جباية ، أو بواسطة "متقبلين" أو متعهدين يقوم كل منهم بجباية الخراج في منطقة معينة ، وكثيراً ما كان هؤلاء المتقبلون يحاولون أن يجمعوا من الفلاحين أكثر مما هو مقرر عليهم ويختلقون لذلك أعذاراً .

تدهور أحوال الريف

وقد أدى كل هذا الى تناقص النقود في الريف والى عجز الفلاحين عن دفع الخراج المقرر عليهم ، فتناقصت الجباية في العراق ، كما أن الاضطرابات التي حدثت في الأقاليم

واستقلال بعضها أدى الى تناقص ما يصل العاصمة العباسية من موارد ، وقد حاول بعض وزراء الدولة العباسية معالجة هذه الأوضاع لتأمين حصول الدولة على الموارد الكافية الضرورية لمواجهة نفقات البلاد والجيش والادارة وخاصة في العصر العباسي الثاني عندما ازداد سلطان قواد الجيش وزادت حاجتهم الى الأموال لدفع رواتب الجند .

وكان الخلفاء العباسيون الأولون قد خصصوا موارد بعض المناطق لسد نفقات معينة ، فقد حفر الخليفة المهدي نهر الصلة في منطقة واسط وجعل ما يجبى منه لأهل الحرمين ، وحفر الرشيد نهر القاطول الذي يأخذ ماءه من دجلة في شمالي سامراء وسماه أبا الجند لأنه كان يعطي من موارده رواتب الجند .

ثم أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعطون بعض أنصارهم أو المقربين اليهم أراضي لاستغلالها والاستفادة منها أو يعفونهم من دفع الضرائب عنها ، أو يأخذون منهم عنها مبلغاً مقطوعاً من المال ، وهو عادة مبلغ غير كبير .

وقد منح الخلفاء بعض الوزراء وكبار الموظفين طيلة بقاء هؤلاء في مناصبهم غلة بعض المزارع ، وذلك لسد نفقاتهم وتقوم مقام الرواتب وقد سميت هذه المنح " اقطاعات " وهي تبقى لصاحبها ما دام يشغل منصبه ، ثم تسترد منه بعد عزله .

مصادر ومراجع الباب السادس

الأموال	ابو عبيد القاسم بن سلام
الخراج	ابو يوسف
الخراج في الدولة الاسلامية	ضياء الدين الريس
تاريخ العراق الاقتصادي	الدكتور عبد العزيز الدوري
مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي	الدكتور عبد العزيز الدوري
ري سامراء	الدكتور احمد سوسة
فيضانات بغداد	الدكتور احمد سوسة
النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط	الدكتور ابراهيم علي طرخان

أسئلة

١- من هم البدو وما هو دورهم في العصر العباسي ؟
٢- ما أهمية الزراعة في العصور الاسلامية ؟
٣- بين أهمية الري في العراق واشرح اهتمام الدولة العربية الاسلامية به .
٤- لماذا لم يوزع الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الأرض المحررة على مقاتلة العرب ؟
٥- اشرح نظام خراج المساحة ومميزاته ، ثم بين لماذا أبطله العباسيون وأخذوا بنظام خراج المقاسمة ؟
٦- تكلم عن أسباب ظهور وتوسع الأراضي العشرية واشرح نتائج هذا التوسع .
٧- ما أسباب هجرة الفلاحين من الريف الى الأمصار وما نتائجها ؟
٨- اشرح اسباب اضطراب أحوال الريف في العراق في العصر الأموي .
٩- عرف : الدرهم . الجريب . العطاء .

نشاط

- بعد الاطلاع على واحد من كتب الخراج ... اكتب مقالة لا تقل عن ثلاث صفحات عن الخراج في الدولة الاسلامية .

ساد العرب المسلمون وكونوا دولتهم العربية وتوحدت أقاليم (الوطن العربي وغيرها) في ظل دولة واحدة نشرت الأمن والسلم وازالت العقبات والحواجز التي كانت تعيق سير التجارة وتبادل السلع وتنقل الناس ؛ وأحلت مكان ذلك حرية العمل والتنقل والتجارة .

تطور التجارة

وقد أدت حروب التحرير الى زوال الطبقات القديمة المترفة وحل محلها العرب الذين ازداد دخلهم وارتفع مستوى معيشتهم بعد التحرير فزاد طلبهم للسلع التي يحتاجونها في حياتهم الحضرية الجديدة ، ولما كان عددهم كبيراً ولم يكونوا قد تعودوا الترف فقد راجت المصنوعات الشعبية من الألبسة القطنية والصوفية ومواد البناء أما السلع الكمالية التي كانت ترغب فيها الطبقة المترفة القديمة ؛ كالجواهر والألبسة الحريرية ، فقد أصابها الكساد لزوال تلك الطبقة . غير أنه بتقدم الزمن نمت في البلاد العربية والاسلامية طبقة مترفة ، وخاصة في العصر العباسي ، فعاد الاهتمام بالسلع الكمالية وراج سوقها .

ازدياد الذهب في المشرق

وقد أدى تحرير العرب الأقاليم الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الى وضع ايديهم على كميات كبيرة من الذهب الذي كان في تلك الأقاليم ؛ كما أن المصادر الرئيسة التي كانت تمون العالم بالذهب ، وهي جنوب مصر والسودان وافريقية اصبحت بيد العرب وبذلك حرموا الدولة البيزنطية من الذهب الذي كانت تعتمد عليه حياتهم الاقتصادية ؛ فاضطربت عملة البيزنطيين وساءت أحوالهم المالية ، وتأثرت أوربا بهذا الاضطراب فازدادت انحطاطاً وتدهوراً .

وقد تبع تأسيس الدولة العربية الاسلامية تحول في مراكز الازدهار الاقتصادي ، وازدادت أهمية الحجاز والعراق بصورة خاصة . فأما الحجاز فإن أهله كانوا معروفين بالاهتمام بالزراعة والتجارة قبل الاسلام ، فكان أهل الطائف والمدينة وسكان الأودية في جنوب الحجاز والواحات التي في شماله يقومون بالزراعة التي يعتمد على منتوجاتها كثير من القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية . أما التجارة فقد كان أهل مكة المكرمة يمارسونها يقومون بنقل السلع والمتاجرة بين اليمن والشام بصورة خاصة ، وقد اكسبهم ذلك خبرة وتمرساً في أمور التجارة . فلما تكونت الدولة العربية الاسلامية تابعوا اهتمامهم بالتجارة ، ومدوا نشاطهم الى العراق واقاليم المشرق وأخذوا ينقلون اليها الذهب من بلاد المغرب ، كما أن الموارد الكثيرة التي جائتهم بعد التحرير ساعدت على تزايد ثروة أهل الحجاز وارتفاع مستوى معيشتهم وازدياد قدرتهم الشرائية ، فاتسعت واردات أهل الحجاز من سلع بلاد المشرق وخاصة الألبسة القطنية والعطور . وقد استفاد أهل الحجاز من ازدياد الثروات في اقليمهم فاهتموا بالزراعة واستثمار الأراضي .

غير ان ازدهار الحجاز لم يدم فترة طويلة ، فقد أدى استقرار أحوال الدولة الى استغناء الناس عن خيرات أهل الحجاز ، فضعف دورهم في التجارة ، كما أن قلة المياه في اقليمهم حد من امكان استثمار الأراضي ، فاصاب الحجاز التدهور بعد القرن الثالث الهجري .

اما العراق فقد كان فيه مقر معظم الدول التي حكمت المشرق قبل الاسلام وهو أغنى اقليم في دولتهم فلما حرر العرب العراق من قبل السيطرة الساسانية بعد حروب التحرير اضطر انصار الساسانيين الى البقاء ، لأنهم لم يعد لهم ملجأ يهربون إليه ، كما أن المنظمات المالية والتجارية في العراق والمشرق بقيت دون تفكك ، أي أن التاجر الذي كان لتجارته فروع في المدائن واصفهان ومرو مثلاً ، ظلت فروع تجارته باقية على حالها بعد أن بقيت المدن الثلاث في الدولة العربية الاسلامية الجديدة .

ولا شك أن الطبقة المترفة الساسانية زال نفوذها وتدهورت حالتها المالية فقل رواج السلع الكمالية التي كانت تحرص على اقتنائها ، كما تفككت النظام الاقطاعي الذي كانت تطبقة ، وحل محله الطبقة الاقطاعية الساسانية العرب الذين يؤمنون بحرية العمل والتنقل، فأتاح ذلك للفلاحين مجال الهجرة الى المدن . ثم أن العرب أخذوا يهتمون بأحياء الأراضي وامتلاكها فكانوا يجنون من ذلك ارباحاً تزيد من ثروة المدن التي كانوا يقيمون فيها . وقد وزع العطاء على عدد كبير من العرب مما ساعد على زيادة دخلهم وارتفاع مستوى معيشتهم ، وقد استفاد العراق والأقاليم الشرقية من موارد الذهب العالمية . في ظل الدولة العربية الاسلامية فصار يصدر اليها بعد أن كانت تفتقر اليه في العهد الساساني ، وساعد ازدياد الذهب نشاط التجارة وخاصة مع بلاد الهند والشرق الأقصى ، ولا يخفى ان الطرق البرية بين الصين وشرق البحر المتوسط تمر بالعراق ، كما ان طريق الخليج العربي اقصر لتجارة الهند من طريق البحر الأحمر وقد أدت هذه العوامل الى استمرار الازدهار الاقتصادي في العراق بعد تحريره . ويمكن تصنيف المدن في التاريخ العربي الاسلامي حسب نظمها الى الاصناف التالية :

١ - الأمصار العربية الإسلامية الأولى

بعد ان اتم العرب تحرير العراق وبلاد الشام ومصر ، انشأوا مدناً سكنها المقاتلة العرب واهلهم ، واقام فيها الولاة المسؤولون عن ادارة الأقاليم . وتسمى هذه المدن (الأمصار) ، وتقع هذه الأمصار الأولى كافة في اطراف الأقاليم المحررة ولا يفصلها عن شبه الجزيرة العربية نهر أو بحر .

ثم بعد أن اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية ، انشأ العرب في العصر الأموي القيروان في تونس ، كما اسكنوا المقاتلة العرب في عدد من مدن بلاد الشام ، وفي الأندلس، وفي بعض مدن الهضبة الايرانية ، وكذلك في عدد من مدن خراسان وبلاد ما وراء النهر .

ولا ريب أن أشهر الأمصار التي كان لأهلها دور مهم في الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في العصور الاسلامية الأولى هما الكوفة والبصرة ، اللتان انشئتا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بعد تحرير العراق . وقد انشئت كل من هاتين المدينتين في غربي العراق ، وفي طرف الصحراء ، فكانت صلتهما بشبه الجزيرة العربية وثيقة. وتقع الكوفة في غربي الفرات وبالقرب من الحيرة التي كانت مقر دولة المناذرة ، ويمر بها الطريق الرئيس الذي يربط اواسط العراق بالجزيرة ، كما يمر في طرفها نهر الفرات الذي يروي اراضيها ويتسخدم في نقل تجارات المناطق الواقعة عليه من الجنوب والشمال .

وكان العرب بعد أن حرروا العراق قد نزلوا المدائن واتخذوها مركزاً لهم ، غير أن انتشار البق والبعوض والملاريا في منطقتها جعلتها غير ملائمة ، وبعد دراسة المنطقة وأحوالها ، اختار سعد بن ابي وقاص ، والي العراق ، في سنة ١٧ هـ ، المنطقة التي شيدت عليها الكوفة، وهي تتميز بالمناخ الملائم ، والأرض الخصبة وباتصالها بشبه الجزيرة العربية من جهة والعراق من جهة أخرى .

وقد بدأ سعد بن أبي وقاص بتعيين موضع الجامع ، ثم بناه باللبن ، وكان واسع المساحة مستطيل الشكل ، وبنى بجانبه القبلي داراً للامارة وبيتاً للمال ، وأحاطه برحبة واسعة تتفرع منها عدة شوارع واسعة ، وتتفرع منها طرق فرعية ، واقطع كل قبيلة ، منطقة ارض تقاسمها رجال تلك القبيلة وشيدوا عليها بيوتهم من القصب والطين .

أما البصرة فقد شيدها في سنة ١٥ هـ ، عتبة بن غزوان وهو الوالي الذي ارسله الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لتحرير تلك المنطقة . وقد اختار عتبة موضع الجامع فبناه، وبني بجانبه القبلي دار الامارة ، ثم خط الشوارع والطرق ، واقطع القبائل اراضي لسكانهم كما فعل سعد في الكوفة .

كان الهدف من انشاء الكوفة والبصرة اتخاذها مقراً يستوطن فيه المقاتلة العرب ، وكان أغلب هؤلاء المقاتلة هم من قبائل شبه الجزيرة العربية ، ولذلك كانوا متعودين على الحياة

البدوية ونظمها . وقد كان لهذا اثر في تنظيم كل من الكوفة والبصرة وفي الحياة فيهما ، فقد قسمت كل من هاتين المدينتين الى " خطط " أي محلات ، ويقيم في كل خطة منها عشيرة وتسمى الخطة باسم العشيرة . وافراد العشيرة مسؤولون جميعاً عن الأمن والاستقرار ومنه المشغابين من تعكير صفو الأمن في الخطة ولكل عشيرة (عريف) يقوم بحفظ اسماء أفراد العشيرة ومواليهم .

ويوزع العطاء عليهم ، ويبلغهم أوامر الولاة . والواقع أن المقاتلة العرب المسلمين في العهود الأولى كانوا منظمين في الجيش على أساس العشائر .

الإدارة

وكانت هذه الامصار مراكر ادارية يقيم في كل منها وال يشرف على ادارتها وادارة الأقاليم التابعة لها . وهو مسؤول عن استتباب الأمن والنظام ونشر العدل في هذه المدن والأقاليم ، كما أنه يشرف على الدواوين وتحت تصرف كل وال قوة من الشرطة والحرس يعتمد عليها في حفظ الأمن وتنفيذ الأوامر . ويقيم الوالي في دارة الامارة الملاصقة للمسجد الجامع الذي كان المركز الرئيس لاقامة الصلاة واجتماع الناس .

وكانت الأموال التي تجني من الاقاليم ترسل إلى الأمصار ، فكانت الكوفة تأخذجبايات العراق واقاليم شمالي ايران ، اما البصرة فكانت تأتيها جبايات معظم الأقاليم الشرقية . وهكذا أخذت تتجمع في هاتين المدينتين النقود ، فساعدت على نمو الحياة الاقتصادية ، فنشطت الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، وقد أسهم كثير من العرب في الأعمال المالية والنشاط الاقتصادي ، واقتضى ذلك أن يكونوا روابط جديدة قائمة على أسس اقتصادية بصرف النظر عن عشائرهم .

ولم قامت الدولة العباسية اتخذت الكوفة مقراً لها بداية ثم أعادوا بناء مدينة بغداد لتكون عاصمة لهم وجعلوها مقراً لجيشهم وموظفيهم وانصارهم فلم يعد أهل الكوفة يأخذون العطاء فتناقصت مواردها ، وهاجر كثير من أهلها الى بغداد ، أما الذين ظلوا

مقيمن فيها فقد انصرفوا الى الحياة الاقتصادية وظلوا يتابعون اهتمامهم بالأمور الفكرية وخاصة في اللغة والنحو والفقه كما أنها ظلت من أكبر مراكز طرق الحج بين العراق والحجاز.

أما البصرة فأن موقعها الجغرافي على رأس الخليج العربي ساعد على استمرار ازدهارها الاقتصادي فكانت من أعظم مراكز التجارة في العالم العربي الاسلامي ، كما ازدهرت فيها الصناعة وكذلك الحركة الفكرية ، فظهر فيها كثير من الشعراء وعلماءاللغة والنحو والأدب ، وظهر فيها عدد من الفلاسفة والمعتزلة والمتصوفة . ولكن الزنج هاجموها في اواسط القرن الثالث الهجري وقتلوا كثيراً من اهلها وادخلوا الرعب في نفوس الباقين ، ففر عدد كبير منهم الى بغداد وغيرها من المدن ، فتدهورت أحوالها ، ولكنها عادت الى الانتعاش بعد أن قضى العباسيون على تمرد الزنج ..

٢- الحواضر الكبرى في الدولة العربية الاسلامية

١ - بغداد

ولما ولي العباسيون الخلافة اتخذوا مركزهم في العراق ، وقد بويع الخليفة العباسي الأول ابو العباس السفاح في الكوفة واقام بها فترة ثم انتقل منها الى الأنبار فلما ولي ابو جعفر المنصور الخلافة عاد إلى الكوفة وبنى له في طرف الكوفة مدينة سماها الهاشمية واتخذها مقراً له . غير أن ضعف تأييد أهل الكوفة للعباسيين حملت ابو جعفر المنصور على التفكير في اتخاذ مركز آخر له . وبعد دراسة دقيقة قرر ان يختار عاصمته في بغداد .

موقع بغداد

تقع بغداد في منطقة خصبة تتوافر فيها وسائل الارواء من نهر دجله ومن الترع التي تستمد مياهها من دجلة والفرات فتسقى الأراضي والمزارع ، ثم تصب الماء الزائد في دجلة . وتوفر هذه الأنهار والترع ووسائل المواصلات مع كافة الأقاليم المحيطة بمختلف جهات العراق كما أن شبكة الانهار والترع تؤمن وسائل دفاعية تقف بوجه الجيوش التي تتقدم لتهديد

العاصمة . ولا يخفى أن موقع بغداد كان بعيداً عن حدود الدولة البيزنطية التي كانت أقوى دولة تناصب الدولة العربية الاسلامية العداء ولذلك فإنها كانت في موقع أمين .

اسباب اختيارها

وقد أراد المنصور من اختيار بغداد ان يتخذ مركزاً ادراياً وعسكرياً له ولاتباعه الذين يعتمد عليهم في حكم الدولة .

بدأ ابو جعفر المنصور باختياره عاصمته الجديدة في سنة ١٤٥ هـ وانتقل إليها في سنة ١٤٩ هـ واطلق عليها اسم " مدينة السلام " وبقيت تسمى بغداد نسبة الى مدينة بغداد العراقية القديمة التي يرجع عمرها الى حوالي أربعة آلالف سنة . وكانت العاصمة الجديدة تضم العناصر المؤيدة لأبي جعفر والذين لا يعادونه ولا يهددونه .

وقد ظل أهل بغداد عموماً مخلصين للعباسيين . فدافعوا عن الخليفة الأمين بحماس في حربه مع المأمون ، واعلنوا عداءهم للمأمون عندما أراد الانحراف عن العباسيين ثم عادوا يؤيدونه عندما رجع إلى اتباع الاتجاه العباسي وظلوا مخلصين .

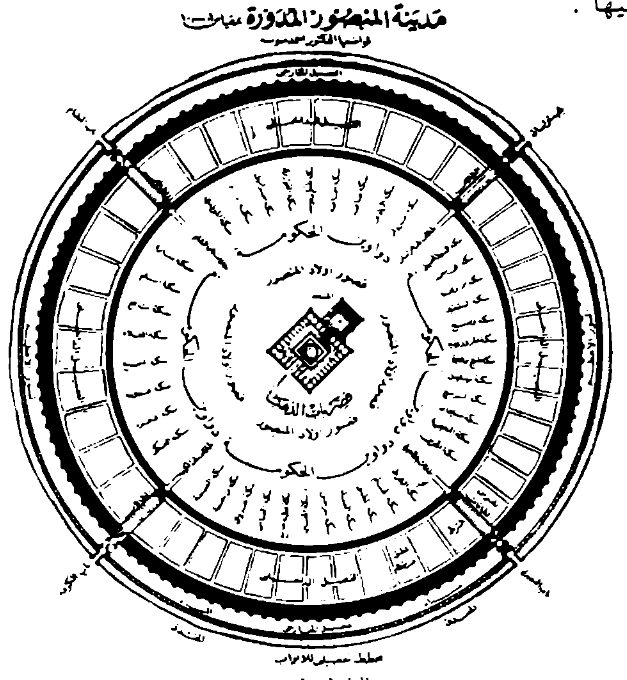
مدينة المنصور المدورة

وقد جعل المنصور مدينته مدورة وأحاطها بخندق وسورين ضخمين بينهما فسحة من الأرض ، وجعل لها أربعة أبواب متقابلة ، وعند كل باب دهليز وعليه قبة ضخمة ، وانشأ في وسطها قصراً فخماً له ايوان كبير وعليه قبة خضراء عالية ، ويلاصق هذا القصر مسجد جامع واسع ، وعدد من الدواوين ، ويحيط بهذه الأبنية رحبة ، وبين الرحبة والأسوار تمتد دروب كثيرة مستقيمة ، تقع عليها طاقات وحوانيت ، ووزع على حرسه قطائع ليبنوا عليها بيوتهم . ثم مد إليها قناتين تأخذ احداهما مائها من نهر الدجيل الذي يقع في شمال المدينة ، وتأخذ الثانية من نهر كرخايا الواقع في جنوبي المدنية . وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدورب ، ويجري فيها الماء صيفاً وشتاءً دون انقطاع .

لقد كانت مدينة المنصور المدورة المركز الرسمي للخليفة ودواوينه وحرسه فكانت خالية من الحدائق والتزيينات والميادين ولم تكن فيها من الأبنية الفخمة غير قصر الخليفة والمسجد

الجامع . اذ أن أبا جعفر المنصور بنى له قصر الخلد في خارجها ، كما أن أولاده وأقاربه من رجال الأسرة العباسية كافة بنوا قصورهم خارجها أيضاً . والواقع أن الناس لم تقبل على السكنى فيها ، ولا ريب أن انتقال الخلفاء العباسيين الى سامراء أثر في المدينة المنورة اذ انتقل منها قصر الخلافة ، فلما عاد الخلفاء العباسيون إلى بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري اقاموا في دار الخلافة على الضفة الشرقية من دجلة في الرصافة ، كما أن معظم كبار رجال الأسرة العباسية سكنوا الحريم الطاهري الذي يقع في شمالها . وهكذا اهملت المدينة المنورة حتى أنها اصبحت منذ القرن الرابع الهجري كالصحراء ليس فيها إلا المسجد الجامع وبعض رباطات الصوفية ، ثم ترك اسمها وأصبحت تسمى باب البصرة .

لقد كانت مدينة المنصور المدورة صغيرة المساحة ، اذ لم يتجاوز قطرها نصف كيلومتر ، كما أن رقعتها كانت محصورة بالأسوار الضخمة والخنادق التي تحد من توسعها ، لذلك لم تكف لاستيعاب جيش المنصور وأتباعه كافة فضلاً عن الأعداد المتزايدة من الناس الذين بدأوا يهاجرون إليها .



مخطط مدينة مدورة بغداد سنة ١٤٥ هـ .

لذلك اقطع المنصور حاشيته واتباعه وجيشه الأراضي التي حول المدينة المدروة ، ففي الأطراف الشرقية ، وهي شقة ضيقة من الأرض محصورة بينها وبين دجلة ، اقطع اولاده قطائع شيدوا لهم فيها قصوراً ، كما أن المنصور بنى له هناك قصر الخلد .

أما الأراضي الواقعة في جنوب المدينة المدورة ، والمحصورة بينها وبين نهر الصراة ، فقد وزعها على عدد من رجال الأسرة العباسية ، واصحابه ، وهم رجال استقدمهم من الأنبار والبصرة والكوفة والأحواز .

أما الأطرف الغربية والشمالية من المدينة المدورة فقد أوطنها الجماعات العربية التي جاءت من خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وجعل في كل ربع سوقاً فيه حوانيت للسلع التي يحتاجها السكان من منطقتهم .

ولما تم تأسيس مدينة المنصور ازدهرت فيها الحياة الاقتصادية ، وهاجر اليها من مختلف الجهات عدد كبير من الناس لممارسة نشاطهم الاقتصادي ، وكان هدفهم الرئيس هو التجارة والربح . وقد هدد تزايدهم بتبديل الطابع العسكري والاداري الصارم الذي اراده المنصور لمدينته ، كما أنهم اصبحوا على ممر الأيام خطراً يهدد الأمن في المدينة المدورة .

الكرخ

وقد شعر المنصور بهذه الأخطار ، فأمر في سنة ١٥٧ هـ بنقل الأسواق الى الكرخ التي تقع جنوب المدينة المدورة ، وقد نمت الكرخ بسرعة كبيرة وكثرت أسواقها وازداد سكانها وصارت من أغنى وأكبر المحلات ببغداد ، كما اصبحت من أهم مراكز الحركة الفكرية حيث استوطنها عدد كبير من العلماء . وقد شقت فيها عدة انهار وترع لتوفير الماء الى أهلها وامتدت فيها العمارة حتى وصلت الى نهر عيسى الذي كان يصب في دجلة بالقرب من جسر الشهداء الحالي .

وقد ظل الكرخ مركز الحياة الاقتصادية والفكرية ومن اكثر المناطق ازدحاماً بالسكان حتى أواسط القرن الرابع الهجري حيث ضعفت الخلافة وبدأت الاضطرابات السياسية تهدد الأمن

واهملت أنهار الكرخ فجف معظمها فهاجر كثير من أهله ، وقل سكانه ، وضطر الباقون الى تسوير المحلات التي ظلوا فيها . وبذلك فقد الكرخ تماسكه ، واصبح مجموعة محلات متباعدة يحيط كل منها سور .

وفي القرن السادس الهجري عاد الانتعاش الى المنطقة التي تقع على نهر عيسى ، فصار عامراً مزدحماً بالسكان ، وانشئت فيه كثير من المساجد والمدارس والربط للصوفية .

الرصافة

لقد ذكرنا أن مدينة المنصور بدأ يهاجر اليها عدد كبير من الناس حتى بدأت تضيق بهم، وقد تجلت أهمية تزايد السكان بعد فترة قصيرة من اعادة بناء بغداد، ففي سنة ١٥١هـ قدم المهدي الى بغداد مع جيشه ، فبنى له المنصور الرصافة في الجانب الشرقي من دجلة ، مقابل المدينة المدروة (وموقعها بين شارع المغرب وساحة عنتر حالياً) ؛ وقد أحاطها بسور وخندق وجعل لها ميداناً وبستاناً ، واجرى لها الماء وبنى للمهدي فيها قصراً ، كما اعطى عددا من كبار الأسرة العباسية أراضي شيدوا لهم فيها قصوراً ، وجعل فيها عدة أسواق ، وقد نمت الرصافة وازدهرت ، ولكنها لم تصل في عمرانها المستوى الذي وصله الجانب الغربي وخاصة الكرخ . ثم اصاب الرصافة في القرن الرابع الاهمال ، فهجرها معظم الناس ولم يبق فيها إلا المسجد الجامع ومدافن بعض الخلفاء ، غير أن المحلات التي تقع في شمالها ظلت مزدهرة .

دار الخلافة

ولما عاد الخلفاء العباسيون من سامراء الى بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري ، واتخذوا مساكنهم في القصر الحسني الذي كان قد بناه الحسن بن سهل في الطرف الجنوبي من الجانب الشرقي (قرب شارع النهر حالياً) . وقد بنى الخلفاء في هذه المنطقة عدداً من القصور الفخمة ، واحاطوها بسور كبير له عدة أبواب ، فصار يدعى دار الخلافة .

ثم بدأ الناس يسكنون قرب دار الخلافة ، فازدحم حولها السكان ، وكثرت حولها المحلات والربط والمساجد والمدارس ، ومنها المدرسة النظامية التي كانت بالقرب من خان مرجان

الحالي ، والمدرسة المستنصرية التي ما يزال بناؤها قائماً على شاطئ دجلة . ونجد عند دار الخلافة سوق الثلاثاء الذي يقع عند سوق السراي حالياً ووصلت العمارة الى باب كلوذاي (الباب الشرقي حالياً) وصارت هذه المنطقة منذ القرن الخامس الهجري المركز الرئيس في بغداد بعد أن كان المركز في القرون الأولى بالكرخ في الجانب الغربي .

[illegible]

لقد تم اعادة بناء مدينة بغداد لتكون مقراً للدولة العباسية وقد نمت بسرعة واصبحت من أعظم مراكز الحياة الاقتصادية ، فازداد اقبال الناس على الاستيطان فيها والمساهمة في النشاط الاقتصادي فيها ، فزادت ثروتها وتقدمت فيها الحضارة ، وتقاطر اليها العلماء والمفكرون ، حتى صارت حاضرة الدنيا وأعظم المدن العربية الاسلامية ورمز العباسيين وعظمة دولتها . وبالرغم مما اصابها من نكبات ومحن ، فإنها صمدت لعاديات الزمن وظلت من أعظم مدن الشرق .

٢ - نشوء سامراء

إن تقريب المعتصم للأتراك وتفضيلهم أثار الأجناد في بغداد وكان هؤلاء قد قاتلوا الروم وكان مقرهم الأكبر في بغداد التي استوطنوها منذ تأسيسها وتوطدت علاقتهم ببقية سكانها ، وقد لقي الأتراك مضايقات كثيرة من جند بغداد كما أن أهل بغداد استاءوا من سوء تصرف هؤلاء الأتراك ؛ وقد خشي المعتصم أن يؤدي هذا إلى حدوث اضطرابات أو ثورة ضده ، لذلك قرر أن يختار مقراً جديداً له ولجنده الجديد فانتقل الى سامراء وقد استهدف المعتصم من ذلك أن يزيل أسباب الاحتكاك مع أهل بغداد ، ويقضي على عوامل اثارتهم ، وأن يكون في مكان يستطيع منه القضاء على أية محاولة قد يقومون بها ضده .

لم يكن لانتقال المعتصم عن بغداد أثر خطير في حياة بغداد التي اصبحت على مر الأيام تقوم على الازدهار الاقتصادي الذي يعتمد على موقعها الملائم وارتباطها بمواصلات سهلة مع الجهات كافة . والواقع أن انتقال المعتصم عن بغداد سيخلص أهلها من جيشه السئ السلوك ، ويبقى مدينتهم " مدينة السلام " مركز الحياة الحضرية والاقتصادية والفكرية ، ان

بغداد لم تعتمد في معيشتها على الخلفاء والبلاط ، فلم تتأثر كثيراً ببعد الخلفاء عنها . والواقع ان انتقال عاصمة الخلافة في زمن المعتصم والخلفاء الثمانية الذين تلوه . لم يؤثر كثيراً في حياتها " فلم تخرب بغداد ، ولا نقصت أسواقها لأنهم لم يجدوا عوضاً عنها " وقد اضطروا في الأخير الى العودة إليها .

لقد قام الخليفة المعتصم بنفسه بختيار الموقع الذي سيكون مقراً له ولحاشيته ولجنده ، وقد حاول ان يختار مكاناً قريباً من بغداد ، يقع على دجلة ليؤمن له الاتصال مع بغداد ، وبعد أن فحص عدة مواقع استقر رأيه ان يختار موقع سامراء ليشيد عليه عاصمته الجديدة . ويقع هذا المكان على بعد ١٢٠ كليومتراً شمال بغداد ، في أرض يمر بها دجلة شرقاً والنهروان غرباً ، وهي أرض سهلة كان فيها عدد من المزارع . وقد شيد له قصراً محكماً ومسجداً جامعاً ، كما بنى الدواوين . وخط له ثلاثة شوارع عريضة وطويلة موازية للنهر ، ثم أضيف اليها شارعان آخران ، فصار لها خمسة شوارع طول كل منها عدة أميال .

ولما كانت سامراء قد بنيت لتكون مقراً للجند فقد أصبح هؤلاء هم العنصر الأهم من السكان ، وكان طابع تنظيمها عسكرياً ، وقد اقطع كل جماعة من الجند قطيعة فكان للمغاربة ، وهم عرب من أهل اليمن وشبه الجزيرة العربية ومصر ، قطيعتهم بالقرب من شاطئ دجلة ، وللخراسانين وقوادهم قطائع في الشارع الأعظم الذي يخترق المدينة من وسطها ، ووزع الأتراك على طول الأطراف الشرقية للمدينة . "بعيداً عن الأسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال ، ليس معهم في قطائعهم ودروبهم أحد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره ، ثم اشترى لهم الجواري فزوجهم منهن ، ومنعهم أن يتزوجوا ويصاهروا أحداً من المولودين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم بعضاً ، واجرى لجواري الأتراك أرزاقاً قائمة وثبت اسماءهن في الدواوين، فلم يكن أحد منهم يطلق امرأته ولا يفارقها " .

تطلب بناء سامراء استخدام عدد كبير من العمال ، لذلك كتب المعتصم الى البلاد لاحضار الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات " وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها ، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر ، وحمل من الكوفة من يعمل الخزف ومن يعمل الأدهان ، ومن سائر البلدان من أهل مهنة وصناعة ، فأنزلوا بعيالهم بهذه المواضع ، واقطع فيها ، وجعل هناك أسواقاً لأهل المهن بالمدينة " .

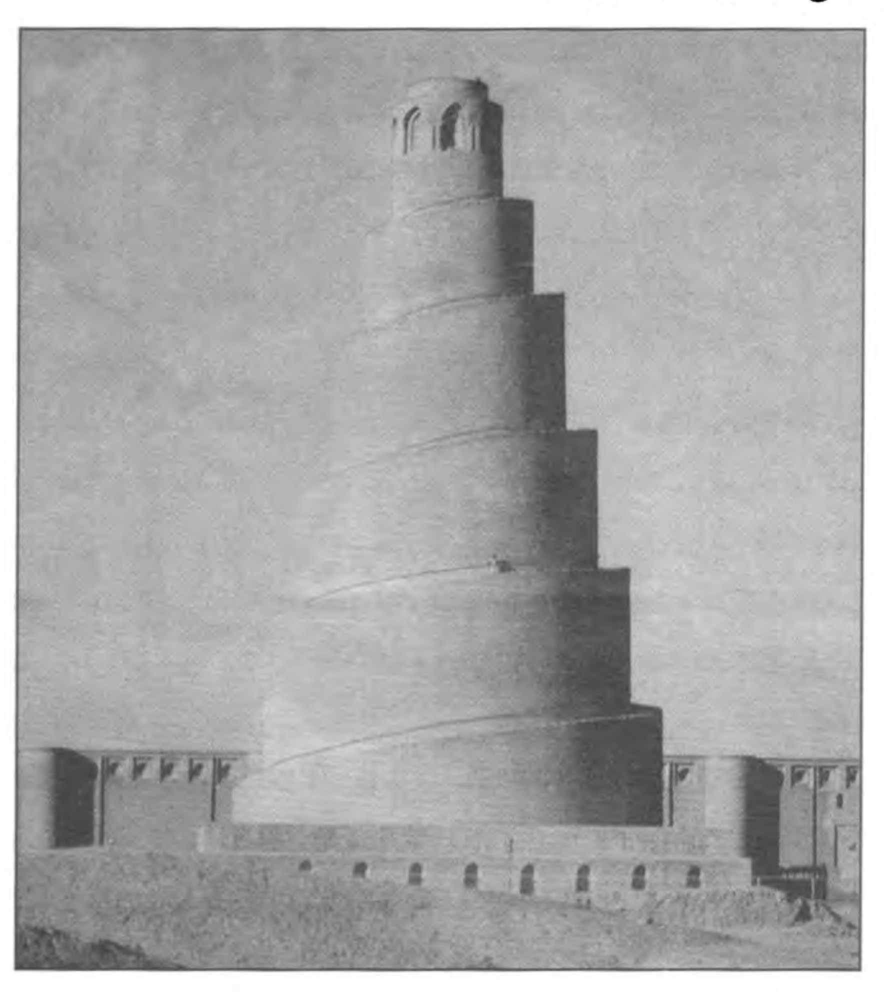
لقد كانت معظم الأسواق الرئيسية حول المسجد الجامع ، كما كان عدد منها في الشارع الأعظم ، وبالاضافة الى ذلك فقد كانت معظم الأسواق الرئيسة حول المسجد الجامع، وبالاضافة الى ذلك فقد كانت في كل من القطائع التي ذكرناها أسواق تسد حاجة أهل القطيعة . ولما بنى المتوكل المسجد الكبير عند ملوية سامراء، جعل على الطرق المؤدية له حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات كما أنشأ في المتوكلية سوقاً كبيرة وأسواقاً فرعية صغرى .

لقد جاء أهل السوق من بلدان متعددة ، لذلك كانت أصولهم وحرفهم مختلفة كما أنهم متفرقين في مناطق متعددة من المدينة ، وقد ساعد هذا على تفككهم وعلى عدم قيامهم بدور كبير في الحياة العامة بسامراء ، وكانت الدولة تشرف على تنظيم الأسواق وتجبي منها الضرائب التي بلغت عشرة ملايين درهم في السنة .

ونظراً لأهمية الجامع في الحياة الدينية والسياسية في المدينة الاسلامية ، فقد شيد المعتصم بالقرب من قصره ، عند الشارع الأعظم ، جامعاً يصلي فيه الناس الجمعة ، غير أن ازدحام السكان جعله يضيق بالناس ، فلما ولي المتوكل الخلافة بنى مسجداً جامعاً ضخماً انفق عليه سبعمائة ألف دينار ، وشق من دجلة قناتين تدخلان الجامع وتتخللان شوارع

سامراء ، بنى قربه منارة مرتفعة . وهذا الجامع الذي بناه المتوكل لا تزال آثاره باقية مع منارته الملوية .

ثم بنى المتوكل جامعاً في المتوكلية التي تقع شمالي سامراء ، وجعل له منارة ملوية تشبه منارة الجامع الكبير ولكنها أصغر منه .



المسجد الجامع والمئذنة الملوية في مدينة سامراء من عهد المتوكل على الله العباسي
(٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ) - (٨٤٧م - ٨٦١م) .
بناه الخليفة المتوكل على الله بعد أن ضاق الجامع الذي بناه المعتصم بالمصلين .

تميزت سامراء بكثرة القصور التي بناها الخلفاء والقواد في أماكن مختلفة منها . وقد ساعدت كثرة القصور على اهتمام الخلفاء بالبناء واتساع رقعة المدينة وعدم وجود أسوار تحد نموها واتساعها . وقد اهتم المعتصم بانشاء القصور له ولكبار قواده ، فلما اختار موضع سامراء استدعى المهندسين فاختاروا مواضع بنوا فيها قصوراً أشهرها العمري ، والوزيري ، وقصر الجص ، وكانت القصور التي بناها المعتصم تتميز بالإحكام ولكنها كانت خالية من الزخارف والزينة .

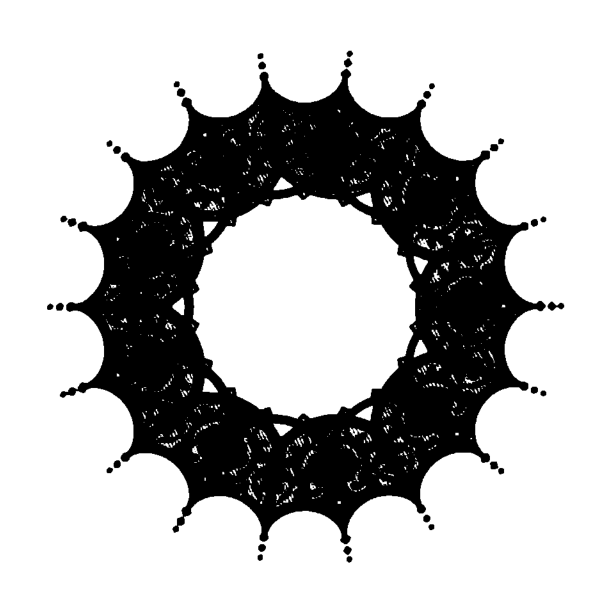
أما الواثق فقد بنى قصر الهاروني الذي يقع على دجلة مقابل قصر المعشوق .

وكان المتوكل أشد الخلفاء شغفاً ببناء القصور وبذل الأموال فيها فلم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأي من الأبنية الفخمة مثل بناء المتوكل . وان أشهر القصور التي بناها المتوكل هو قصر الجعفري الذي بناه في أقصى الشمال من سامراء ، وشق اليه نهراً من دجلة ، ولما انتقل المتوكل من سامراء الى الجعفري انتقل معه عامة أهل سامراء فأصبح ما حول القصر مدينة سميت الجعفرية . غير أنه لما قتل المتوكل أخربت الجعفرية ونقصت وعاد الناس الى سامراء . وما تزال بقايا كثير من قصور سامراء قائمة حتى اليوم ، ويتبين من هذه البقايا مدى فخامة هذه القصور وهي تدل على ما كان يمؤها من حياة وترف . ولا بد أن كل قصر كان يقيم فيه عدد كبير من أهل صاحب القصر وخدمه وحراسه . والواقع أنه لم تبن في أية مدينة اسلامية من القصور ما بني في سامراء ، وان هذه القصور كانت أبرز ما فيها .

لقد كانت سامراء مدينة للخليفة وعسكره وقواده ، وكان أبرز ما فيها القصور الفخمة المنتشرة على رقعة واسعة من الأرض ، ولم يكن لها سور يحد توسعها ، وكان بقية السكان يعتمدون في حياتهم على ما يتطلبه الخليفة وحاشيته وجنده ، وأرضها مرتفعة عن دجلة ،

لذلك كان أهلها يعتمدون في شربهم على ما يحمله السقاؤون من دجلة من الروايا ، لأن آبارها عميقة وماءها مالح غير سائغ ، وقد قام بعض الخلفاء بشق الترع لتجهيز سامراء بالماء ، ولكن محاولاتهم لم تنجح لارتفاع الأرض وتموجها ، وهكذا افتقدت سامراء الماء الذي هو الأساس في نمو المدن .

ثم ان موقعها المنعزل نسبياً أدى الى عدم ازدهار التجارة فيها ، فلم تستطع منافسة بغداد ، وظلت تعتمد على الخلفاء واتباعهم ، فلما انتقل الخلفاء منهاالى بغداد ، تعرضت سامراء الى زوال أهميتها ، واصبحت بعد مدة من الزمن قرية ليس فيها إلا بقايا القصور وبعض المزارع .



المدن هي المراكز الرئيسية للحياة الاقتصادية في البلاد ، فان ازدحام السكان فيها وتعقد الحياة وارتفاع مستوى المعيشة يؤدي الى التخصص في العمل والى ازدهار الصناعة والتجارة ومن الطبيعي ان يقوم في كل مدينة عدد من الصناعات والحرف التي تسد الحاجات الضرورية لسكانها ولأهل الريف القريبين منها . وأهم هذه الصناعات والحرف ما يتعلق بالمسكن والمأكل والملبس ؛ فأما المساكن فإنها تتطلب الآجر أي الطابوق والجص ، والمبيضين والمزخرفين والنجارين والحدادين والنحاسين ؛ وأما ما يتعلق بالألبسة فهي تشمل الغزالين والنساجين والقصارين والصباغين والخياطين ؛ وأما الصناعات المتعلقة بالطعام فهي تتعدد بعدد المأكولات المستعملة في البلد ، كالطحانين والخبازين واصحاب الشواء وغيرها .

مراكز صناعية في العراق

وقد اهتم سكان البلاد العربية الاسلامية بالمنسوجات اهتماماً كبيراً واشتهرت بعض المدن بمنسوجات معينة تميزت على غيرها . ففي العراق كانت بغداد أهم المراكز الصناعية ، وقد اشتهرت بما تنتجه من المنسوجات الحريرية والأقمشة القطنية الرقيقة وبانتاج (السقلاطون) وهونسيج حريري سميك وردي اللون ، وكانت تصنع فيها أيضاً الثياب العتابية وهي ثياب تصنع من خيوط القطن والحرير مخططة بالأحمر والأصفر .

وقد اشتهرت بعض البلدان الواقعة في الأطراف الشمالية من بغداد بالأنسجة القطنية الغليظة .

واشتهرت الكوفة بالوشي وصنع الخز والعمائم ، كما اشتهرت بصنع الخرف وماء الورد ودهن البنفسج . وكانت الحيرة مركزاً لصناعة البسط . أما مدينة قصر ابن هبيرة القريبة من الكوفة فقد عرفت بكثرة من فيها من الحاكة مما يدل على ازدهار صناعة النسيج فيها .

أما البصرة فقد اشتهرت بصنع الخز ، وهو نسيج رقيق يعمل من الصوف والحرير ، والبز وهو

ينسج من القطن . واشتهرت أيضاً بصنع الفوط ونسج الكتان والعمائم . كما اشتهرت أيضاً بالخزف والبلور وماء الورد .

واشتهرت الموصل بنسيج الشاش والمسوح والخز والستائر ، وبالمصنوعات النحاسية وعمل السكاكين .

وقد اشتهرت كل من تكريت والنعمانية بالأنسجة الصوفية ، وميسان بالبسط ، وعبادان بالحصر ، وسامراء بالبلور . أما الأحواز فقد تركزت في مختلف مدنها مصانع الحرير .

مراكز التصنيع في الأقاليم

وقد اشتهرت بعض أقاليم الدولة العربية الاسلامية بمنسوجات خاصة ، فقد عرفت اليمن منذ عهود ما قبل الاسلام بالبرود والمطارف (وهي اردية من الخز أي الحرير) ، وعمان بالمنسوجات الصحارية ، واشتهرت مصر بالمنسوجات الكتانية ، والشام بالمنسوجات الحريرية والقطنية ، وارمينية بالبسط والسجاد والفرش والثياب الصوفية .

وكانت خراسان مركزاً لأحسن وأكثر المنسوجات القطنية ، وكانت منتوجاتها تصدر الى كثير من انحاء الدول وخاصة الى بغداد والحجاز ، واكبر مراكز النسيج في خراسان هي مرو وهراة ونيسابور .

أصحاب الحرف والمهن

وقد مارس عدد كبير من الناس الحرف والمهن المختلفة التي احتاج اليها أهل المدن ، فنجد الوراقين والفصادين الحجامين والأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين والبياطرة والمنجمين ومؤدبي الصبيان والمؤذنين وأصحاب الحمامات . وهذه الحرف والمهن تحتاج الى مهارة خاصة وحذق ، وفيها مهن علمية تتطلب المعرفة والموهبة كمهنة الأطباء والجراحين والكحالين (أي أطباء العيون) .

أما الوراقون فقد قصدوا الأمصار الكبرى طلباً للرزق لأنهم عاشوا كما يعيش أصحاب المطابع اليوم عن طريق نشر الكتب فكانوا يقومون بالنسيج والتصحيح والتجليد والتذهيب . وكانت مهنة الوراقة رائجة فقد عمد الخلفاء والوجهاء الى الاحتفاظ بعدة نسخ

من الكتاب الواحد غير أن الثقة لم تكن متوفرة دائماً في الوراقين لانهم لم يكونوا في الغالب علماء أو من أهل الرواية ، وانما كانوا أهل حرفة . لذلك كثر الطعن فيهم للتحريف في النقل إلا أن وصف كثير من الوراقين بحسن الخط وجودة الصنعة وسرعة الكتابة ، حتى راجت مهنتهم وجنوا من ورائها ربحاً لا بأس به واتخذهم الكبراء والوجهاء موظفين لديهم، في حين جلس الآخرون في سوق الكتب ببغداد أو غيرها طلباً للرزق . ويذكر أن أحد قضاة قرطبة كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً . وكان بعض كبار الأدباء والعلماء يتخذون لهم وراقاً يختص بهم ، فقد كان لأبي العلاء المعري وراق نسخ له كتبه بدون أجرة، وكان للجاحظ أكثر من وراق وهكذا .

كانت مهنة الطب وما يتفرع عنه مهنة كثيرة الرواج لحاجة المجتمع اليها . وقد عاش كثير من الأطباء عيشة رغيدة اذ قدر لهم أن يعملوا في قصور الخلفاء والوجهاء ، فقد كان جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد يعتبر في مصاف كبار الأثرياء بسبب ما كان ينال من الرواتب السخية والمنح ، وقد راجت مهنة الحجامة والفصادة وكثر الحجامون والفصادون الذين كانوا يقومون باخراج الدم الفاسد من جسم المريض .

وفي مجتمع اهتم بالنظافة اهتماماً كبيراً باعتبارها من لوازم الدين ، كثرت الحمامات في المدن وبخاصة في بغداد ، وقد كون أصحاب الحمامات فئة مهمة بين أصحاب المهن ، وقد كان في كل حمام (معلم) – وهو صاحبه – يجلس عادة في غرفة بعد المدخل على مصطبة مغطاة بالمفارش أو السجاجيد ، وكان تحت إمرة المعلم خدم ومدلكون لخدمة الزبائن . ونحن نجد كثيراً من التفاصيل عن هذه الحمامات في كتب الأدب ودواوين الشعراء ومؤلفات الرحالة الذين ابدوا دهشتهم من كثرة الحمامات وكثرة العاملين فيها .

[illegible]

احتل الصناع والعمال مركزهم المهم في المجتمع العربي الاسلامي نتيجة التطور الاقتصادي ونمو الصناعة في المدن ، وبسبب تحسن النظرة الاجتماعية الى العمل اليدوي . وقد نظر المجتمع الى الصناع نظرة تقدير عالية جداً ، ويرى الغزالي أن حصول الانسان على

معاشه في هذه الدنيا أمر لا بد منه للحصول على الحياة السرمدية في الدار الآخرة ويقول : ان الأسواق موائد الله وكل من زارها أصاب منها ، ولا يعفى من واجب اكتساب الرزق بكد اليدين أو من طريق التجارة إلا الزاهد والصوفي والعالم والموظف .

وكان العمال قد احترفوا مهناً وصنائع مختلفة كانوا يختارونها بأنفسهم ، وكثيراً ما كان الأبناء يحترفون حرفة آبائهم . وكان العمال يشتغلون بأجور يومية أو في محلات خاصة ، والغالب أنهم كانوا يجعلون من بيوتهم محلات للعمل . ويبدو أن الأجور كانت تحدد بالاتفاق بين صاحب العمل والعامل وكان المحتسب مسؤولاً عن تنظيم العلاقة بين رب العمل وعماله وحل الخلافات التي تقوم بينهما .

وكان الصناع يتدرجون في الحرفة ، فكل صانع له استاذ يتعلم منه صنعته ، كما ان الاستاذ تعلم من قبل على يد أستاذ آخر . وكان أول السلم في حرفة الصناع "المبتدئ" الذي يتعلم الصنعة ، ثم "الخليفة" الذي تكون مرتبته دون مرتبة الاستاذ ، وفوق هؤلاء جميعاً رئيس الصنعة أو "شيخ الصنف" .

كانت أجور العمال مختلفة ، فقد تقاضى عامل في حانوت نصف درهم في اليوم اضافة الى كسوته وغذائه ، غير أن هذه الأجرة كانت تزيد حسب رغبة صاحب العمل ، وكانت اجرة عامل الحفر ثلاثة دراهم في اليوم ، واجرة الحداد خمسة دراهم يومياً واجرة عامل حمام خمسة دراهم يومياً .

والعمال طائفتان الأولى الاجراء الذين يعملون لحساب غيرهم لقاء أجور يومية أو عن القطعة . وهؤلاء قد يعملون في دكاكين أو يعملون في بيوتهم ، مستخدمين أدوات عمل يمتلكونها ومواد أولية يشترونها أو يزودهم بها رب العمل الذي يستأجرهم ، وقد ذكر أن يومية الزجاج في نهاية القرن الثالث الهجري كانت درهماً ودانقين (الدناق سدس الدرهم) أو درهماً ونصفاً .

أما الطائفة الأخرى فهم الصناع المستقلون الذين يعملون لحسابهم الخاص وهؤلاء يعملون في دكاكين أو في بيوتهم يساعدهم أولادهم الذين يرثون الحرفة منهم وكان هؤلاء

أحسن حالاً من ناحية الدخل لأنهم مستقلون ويمتلكون أدوات العمل ورأس المال الذي قد ينمو على مر الأيام اذا حالفهم الحظ وكانوا ذوي كفاءة .

الأصناف والنقابات

ظهرت الأصناف نتيجة التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي رافقت نمو المدن العربية الاسلامية في العصر العباسي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . وقد قامت هذه الأصناف – أو النقابات في المدن الرئيسة في العراق والشام ومصر وولايات المشرق والأندلس.

ان التقدم الاقتصادي منذ القرن الثالث الهجري صاحبه تكدس رأس المال وتجمع العمل . وكان الفضل في تكدس رأس المال وتركزه يرجع الى ارتقاء النظام الصيرفي العربي الاسلامي وكثرة العملة الذهبية والفضية مما ساعد على نشاط التبادل الاقتصادي .

مثلت الأصناف والنقابات في المجتمع العربي الاسلامي كرد فعل للأحوال الاقتصادية الجديدة ، وكمحاولة أهل الحرف والعمال لتحسين مستواهم المعيشي .

ان نقابات الحرف في المجتمع العربي الاسلامي انبثقت حرة وشعبية ومستقلة وظلت تحمل الطابع الديمقراطي في تنظيمها في عصور ازدهارها بعكس ما كان الأمر في الغرب في العصور الوسطى حيث كانت النقابات طبقية ، بحيث أن العضوية حصرت في فئات معينة من السكان .

وقد اتسحدثت عدة مصطلحات مختلفة للدلالة على النقابة العربية الاسلامية أشهرها اصطلاع " صنف " وكان واجب النقابة أو الصنف تنظيم الحرفة ورعاية مصالح أعضائها والمحافظة على أسرار الحرفة وتحديد الأسعار والحفاظ على مستويات الصنعة .

وكانت كل نقابة – أو صنف – تتكون من رئيس يدعى " المعلم " وخلفاء وعمال (صناع) ومبتدئين . وعندما يرتقي المبتدئون ليصبحوا معلمين يجري لهم احتفال خاص ترافقه شعائر وطقوس معينة يتلوها اداء القسم ثم وليمة خاصة . أما النقيب (أو الأمين ، العريف) فكان يختار من بين أعضاء النقابة برضى المحتسب وموافقته . وقد يقوم المحتسب بتعيين هذا

النقيب . وكان النقيب يتمتع بصلاحية واسعة وسلطة على الأعضاء ، أما في المسائل المهمة كتحديد الأسعار فكان عليه أن يستشير المحتسب . كان النقيب رئيس النقابة ، يعمل كممثل لها في جميع الشؤون العامة ، كما أنه يعتبر حكماً في الخلافات بين الأعضاء . غير أن الخلافات بين نقابتين كانت من مهمات القاضي .

كان لكل نقابة تعليمات مكتوبة تنظمها ، وصار لكل حرفة شعارات ومراسيم يتمسك بها أفراد النقابة ويطيعونها . واعتز أبناء كل صنف بالنقباء العرب المسلمين الأوائل . واعتبروهم حماة ورعاة لهم . وكان من الأمور المستحبة انتقال الحرفة من الاباء الى الأبناء .

التجارة

يتبين مما تقدم أن الدولة العربية الاسلامية كانت غنية بمواردها النباتية والحيوانية والمعدنية ، وكذلك بمنتوجاتها الصناعية ، غير أن هذه الموارد لم تكن منتظمة في توزيعها ، فبعض المناطق تفيض مواردها ومنتوجاتها عن حاجتها ، في حين ان مناطق أخرى تحتاج الى منتوجات وسلع تنقصها . وقد أدى هذا الى نشاط التجارة وازدهارها في مختلف الأقاليم . ويعملون فيها ؛ وكانت مكة المكرمة التي ظهر الرسول (ﷺ) فيها وبشر بالدين الاسلامي قبل الهجرة ، من أهم المراكز التجارية ، وقد اشتغل عدد من الصحابة في التجارة ؛ ولم يعرقل الخلفاء النشاط التجاري في الدولة العربية الاسلامية ، فأباحت الدولة حرية العمل والتنقل ، وفرضت على التجارة ضريبة العشر ، وهي ضريبة قائمة في البلاد الأخرى ، ونسبتها غير كبيرة .

والتجارة منوعة في بضائعها وسعتها وبعدها ، فبعضها بين كل مدينة والقرى القريبة منها وبعضها بين المدن ؛ غير أنه لما كانت بغداد هي أكبر مركز في الدولة العربية الاسلامية ، فإن تجارتها كانت أوسع تجارة في الدولة العربية الاسلامية ، وكانت معظم الطرق الرئيسة تتشعب منها . وهي أما طرق نهرية أو برية .



درهم أموي



درهم أموي



درهم عباسي



درهم عباسي



درهم أموي



درهم أموي ضرب في واسط

درهم عباسي

درهم سلجوقي



درهم سلجوقي



دينار أموي



درهم عباسي



دينار عباسي

فأما الطرق النهرية فهي التي تسلك دجلة أو الفرات ، ومن المعلوم ان بغدادتقع على نهر دجلة ، وكانت تمر بها كثيراً من بضائع الجزيرة والموصل والمدن الواقعة في شماله ، وتمر بها أيضاً بضائع البصرة وواسط والمدن الواقعة في جنوبه ، أما الفرات فكان يرتبط بدجلة بنهر عيسى الذي تنقل فيه السلع من أعالي الفرات ومن منطقة الكوفة . أما المجاري الجنوبية من هذين النهرين فكانت تعرقلها السدود والأهوار والفروع الصغيرة التي تعترض هذين النهرين في أطرافها السفلى .

أما الطرق البرية فأهمها الطريق الذي يربط بغداد بالمدن المقدسة في الحجاز ، وهو يمر بالكوفة ويخترق صحراء شبه الجزيرة العربية ماراً بكثير من المحطات التي تتوافر فيها المياه . وهذا الطريق يسلكه الحجاج الذين يؤم منهم البيت الحرام سنوياً عدد كبير . ويستخدم هذا الطريق لأغراض عسكرية وادارية وتجارية ، وبالنظر لما لهذا الطريق من أهمية كبيرة فقد عنيت به الدولة ، فأزالت العقبات منه ، وحفرت عليه الآبار، وعنت بتوفير المياه في محطاته، ووضعت عليه اشارات الأميال والمنار . وأولت قوافل الحجاج عناية كبيرة ، فكانت تعين عليها اميراً تختاره من كبار رجال الأسرة العباسية ، وترفق هذه القوافل بقوات عسكرية لحمايتها من الاعتداء عليها وتتفرع من بغداد طرق تربطها بواسط والبصرة والأحواز في الجنوب ، وطرق أخرى تربطها بالموصل ، أو بشمال بلاد الشام ، وتسير هذه الطرق موازية لنهري دجلة والفرات .

غير أن الطريق الرئيس هو الذي يربط بغداد بالمشرق ، وهو يمر شرقاً بالمدن الواقعة على نهر ديالي ، ثم يسير الى همدان فالري فنيسابور فمرو ، ويسير هذا الطريق الى بخارى وسمرقند ، وتتفرع من هذا الطريق طرق أخرى تربطه بالمدن التي تقع على مسافة منه . ان لهذا الطريق أهمية كبيرة منذ العصور القديمة فقد كانت تسلكه تجارة الصين البرية وكان يسمى في القديم " الطريق السلطاني " وقد ازدادت أهميته في العصور العربية الاسلامية

لأنه يربط بغداد بالهضبة الايرانية وخراسان وبلاد التركستان ؛ وتقع عليه مدن كانت لها أهمية كبيرة في الدولة العربية الاسلامية .

التجارة الخارجية

كانت اراضي الدولة العربية الاسلامية واسعة وخيراتها كثيرة ومنتوجاتها وفيرة ، ومع هذا فقد كانت تعوزها بعض السلع المتوفرة في الأقاليم البعيدة ، وكان لا بّد أن تستوردها من تلك البلاد ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة معها . وأهم الأقاليم الخارجية التي كانت تتاجر مع البلاد العربية الاسلامية الصين ، والهند وجزر الهند الشرقية ، وافريقية واوربا .

وبلاد الصين واسعة تمتد من اواسط آسيا حتى المحيط الهندي ، وقد عرفت منذ أقدم الأزمنة بانتاجها للسلع الكمالية التي تتطلب مهارة في الصنع ، كالحرير والمرايا ، والأدوات الخزفية والخشب المحفور ، وكانت تجارة الصين تسلك الطريق البري الذي يخترق اواسط آسيا ثم يمر بخراسان سالكاً " الطريق السلطاني " الذي ذكرناه آنفاً ، غير أن بعض تجارة الصين كانت تنتقل بحراً عن طريق ارخبيل الملايو والمحيط الهندي فالخليج العربي .

أما الهند وجنوبي شرقي آسيا فإن العرب كانوا يستوردون منها منذ أقدم الأزمنة التوابل والبهارات ، والاحجار الثمينة ، والأخشاب الصلبة وخاصة الصاج ، وهم يستوردون من افريقية الذهب والعاج والتوابل ، وكان أهل اليمن يحتكرون الملاحة في المحيط الهندي حتى القرن الأول قبل الميلاد ، وظلو يقومون بأكبر قسط من تجارته بعد ذلك ، غير أنه في العصور الاسلامية كانت معظم التجارية البحرية مع الهند تسلك الخليج العربي ، وكانت تسير موازية للشواطئ الغربية ، لأن الشواطئ الشرقية وعرة وقليلة المياه . وقد ساعد هذا على ازدهار المدن في عمان والبحرين . وكانت السفن التي تسير في هذا البحر تصنع من الخشب وتربط بالألياف ولا تستعمل فيها المسامير . وتتعرض الملاحة البحرية الى كثير من

الأخطار الناجمة عن الأمواج والزوابع والحيتان والقرصان وكذلك من الأخطار الناجمة من اعتماد الملاحين في معرفة سيرهم على الشمس أو النجوم التي لا تظهر عند حدوث الغيوم . وقد ادت هذه الاخطار الى ارتفاع أسعار السلع التي تستورد في البحر وكان التجار يفضلون سلوك الطرق البرية كلما امكن ذلك .

التجارة مع اوربا

أما في اوربا ، فإن العرب كانوا يستوردون من روسيا وبلاد البلطيق الفراء والكهرب والصفيح ، وكانوا يذهبون الى روسيا بطريق بحر قزوين ونهر الفولجا . وقد وصلت تجارتهم الى بلاد البلطيق .

لقد كان العرب المسلمون هم الذين يقومون بالتجارة ، ولذلك كونوا لهم جاليات في خانقو (كانتون) بالصين ، وكذلك في الملايو وسومطره وعلى سواحل الهند وافريقية . كما وصلتنا اخبار عن رحلاتهم الى روسيا وبلاد البلطيق واوربا الشرقية وقد وجدت في هذه البلاد كميات غير قليلة من النقود العربية الاسلامية التي كانوا يشترون بها هذه السلع .

التجارة في البحر المتوسط

أما في البحر المتوسط فأن العرب المسلمون انشئوا لهم اساطيل تمكنوا فيها من فتح كثير من الجزر مثل قبرص وكريت وصقلية ، ووصلوا شواطئ ايطاليا وفرنسا . وكانت سفنهم التجارية تنقل السلع بين الأقاليم الاسلامية الواقعة على هذا البحر . ولم تكن تجارتهم واسعة مع اوربا التي ظلت في القرون الأولى التي اعقبت حركة التحرير العربية تعاني من تأخر في الحياة الاقتصادية وفقر في السكان والثروة ثم بدأت الأقاليم الأوربية تنتعش منذ القرن الرابع الهجري ، فبدأت التجارة تنمو بينها وبين بلاد العرب ، وأخذت اوربا تستورد المصنوعات القطنية والمعدنية وكذلك المعادن الثمينة والتوابل من البلاد العربية الاسلامية وتصدر اليها الأخشاب ، وقد ساعد ازدهار التجارة على نمو بعض الموانئ الايطالية وخاصة البندقية وجنوا التي انشأت كل منهما سفناً للتجارة ، واستطاع تجار هاتين المدينتين بمرور الزمن السيطرة على الملاحة التجارية في البحر المتوسط . وقد ظلت تجارة اوربا مع العالم

الاسلامي تتدرج في النشاط والنمو الى أن اكتشفت امريكا في سنة ١٤٩٢ م فحول الاوربيون انظارهم الى القارة الجديدة ، وبدأت اوربا الغربية تنمو فتدهورت التجارة في البحر المتوسط .

مصادر ومراجع
الفصلين الثالث والرابع

التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة	الدكتور صالح احمد العلي
المجتمعات الاسلامية وحركة الفتح	الدكتور شكري فيصل
الادارة العربية في عصر الاسلام	محمد كرد علي
بحوث في التاريخ الاقتصادي	ترجمة توفيق اسكندر
بغداد في عهد الخلافة العباسية	لي سترانج
بغداد	الدكتور مصطفى جواد
	والدكتور احمد سوسة
الخطط المقريزية	المقريزي
القاهرة	عبد الرحمن زكي
الملاحة العربية في المحيط الهندي	جورج حوراني
لطائف المعارف	الثعالبي
التبصر بالتجارة	الجاحظ
الاشارة الى محاسن التجارة	الدمشقي
تراث الاسلام (فصل التجارة والجغرافية)	توماس ارنولد وجماعته
	ترجمة جرجيس فتح الله
صور الأرض	ابن حوقل
كتاب البلدان	اليعقوبي
عُمان في العهود الاسلامية الأولى	الدكتور عبد الرحمن العاني

أسئلة

١- ما خصائص الأمصار التي شيدها العرب بعد حروب التحرير ، وما أهميتها في التاريخ الاسلامي ؟

٢ - لماذا تفككت النظم القبلية في الأمصار الاسلامية ؟

٣ - لماذا اختار ابو جعفر المنصور موقع بغداد في وسط العراق ؟

٤ - تتبع تطور نمو بغداد في العصور العباسية ؟

٥ - لماذا انشأ المعتصم مدينة سامراء ؟

٦ - لماذا تدهورت سامراء بعد هجر الخلفاء لها ؟

٧ - تكلم عن عوامل ازدهار الصناعة في الاسلام ، واذكر أهم المراكز الصناعية .

٨ - اشرح طرق المواصلات الرئيسية في العالم الاسلامي .

٩ - تكلم عن أهمية تجارة العالم الاسلامي مع الهند وبلاد الشرق الأقصى .

١٠- تكلم عن دور العرب في التجارة في البحر المتوسط .

نشاط

خذ خريطة صماء للدولة العربية الاسلامية وأشر عليها :

- الأمصار العربية الاسلامية الأولى .
- الحواضر الكبرى في الدولة العربية الاسلامية .

الباب السابع الحركة الفكرية

الفصل الأول عوامل ازدهار الحركة الفكرية

ان أهم عوامل ازدهار الحركة الفكرية عند العرب والمسلمين عامة هو الاسلام نفسه . لقد وضع الاسلام مبادئ وقيماً للأخلاق والسلوك ومثلاً عليا في الحياة ، وتوجيهات اجتماعية واقتصادية تحترم العمل وتحث عليه . وكان نشر الدين يحتاج الى اشخاص يعرفون الكتابة والقراءة . وقد رفع القرآن الكريم من شأن العمل وحث عليه . وكان نشر الدين يحتاج الى اشخاص يعرفون الكتابة والقراءة . وقد رفع القرآن الكريم من شأن العلم وحث الناس عليه ، فقد وردت فيه مادة (علم) ومشتقاتها نحو ٨٥٠ مرة ، وأول ما نزل من القرآن الكريم (اقرأ) ، وأول أداة أقسم بها الله في القرآن هي (القلم) . ويعتبر الاسلام طلب العلم فريضة وعدم استعمال العقل ذنباً . وقد شجع الرسول (ﷺ) العرب المسلمين على تعلم الكتابة . ففي بدر كان فداء بعض أسرى المشركين الذين يكتبون ان يعلموا عشرة صبيان المدينة الكتابة .

ولما انتهت حروب التحرير العربية الاسلامية ، واصبح العرب هم الحاكمين ، كان لا بد لهم ان يتعلموا القراءة والكتابة لادارة البلاد . وقد اقبل الداخلون في الاسلام من غير العرب على تعلم اللغة العربية كتابة لادارة البلاد . وقد اقبل الداخلون في الاسلام من غير العرب على تعلم اللغة العربية كتابة وقراءة لفهم دينهم ، ولحاجة الدولة لخدماتهم .

وقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من أحوال الأمم القديمة ، وقص تاريخهم واخبارهم ، وقد رفعت هذه المعلومات من مستوى المسلمين العقلي ووسعت مداركهم ، وحفزتهم على الاستزادة منها ، ومعرفة تفصيل مجملها .

وقد نظم الاسلام أمور المسلمين في معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية ، فاصبحت دراسة القرآن الكريم والحديث ، وهما مصدر الشريعة في الاسلام ، أساساً لحركة علمية واسعة ،

وباعثاً لنهضة لغوية كبيرة .

ولعل أعظم أثر للاسلام في الحركة العلمية انه وحد العرب ، واشعرهم بقوتهم ، وزودهم برسالة ، فتمكنوا بذلك من تحرير معظم اقطار العالم المتحضر يومئذ ، وازالوا الحدود بين الأمم والشعوب . وقد سهل ذلك على طلاب العلم الانتقال من بلد الى بلد سعياً وراء المعرفة، واصبحت الرحلة في طلب العلم من التقاليد الراسخة عند المسلمين . وبفضل التحرير دخلت أمم وشعوب كثيرة في الاسلام ، وتعربت ، واستردت نشاطاتها وطاقتها على الابداع ، وساهمت جميعاً في الحركة العلمية . ان حروب التحرير العربية لم تكن غزواً مدمراً كغزو التتر والمغول ، ولم تكن استعماراً غاشماً كاستعمار الدول الرأسمالية للشعوب الضعيفة ، وانما كانت اداة تحريك وتنشيط للحضارات القديمة الراكدة المعطلة ، فظهر العديد من العلماء المسلمين في شتى ميادين المعرفة .

وكان اسلوب القرآن الكريم في الدعوة إلى الايمان بالله ذا أثر كبير في الحياة العقلية فقد دعا الناس الى النظر الى ما العالم من ظواهر ليستدلوا بها على وجود الله وعظمته وحث الناس على التفكير المنطقي والاستدلال العقلي . فكان ذلك دافعاً للمسلمين الى دراسة الكون ، والبحث في ظواهره ، واستكشاف أسراره . وتتردد في القرآن الكريم الفاظاً العلم والفقه والنظر والحكمة والجدل ومشتقاتها كثيراً . وحث القرآن الكريم المسلمين على نشر دينهم بالاقتناع العقلي والحجة المنطقية ، وعلمهم روح التسامح وآداب الجدل ، ونهاهم عن ادخال الناس في الاسلام بالقسر والقوة والكراه ، قال تعالى

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾(١) ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾(٢)

وقد حملت هذه التعاليم المسلمين على التعمق في دراسة الدين الاسلامي لتوضيح أهدافه ، واكتشاف اسرار عظمته . كما حملتهم على التعمق في دراسة الثقافات والديانات والعقائد المختلفة للإفادة منها في الدفاع عن الاسلام ، وللرد عليها عند المجادلة مع

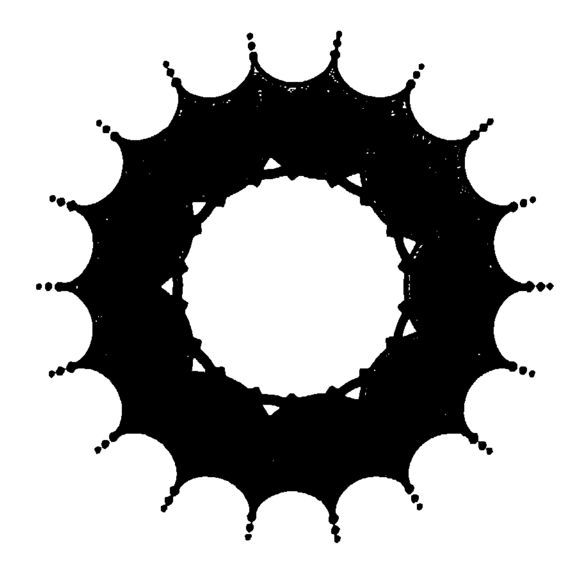
---

(١) سورة البقرة /٢٥٦.

(٣) سورة النحل \ ١٢٥ .

أصحابها عن فهم وادراك . وكان اقبال المسلمين على دراسة الثقافات الاجنبية من عوامل تقدم العلوم العربية والاسلامية .

وقد اصبحت اللغة العربية لغة العلوم والآداب والفلسفة في العالم الاسلامي الواسع ، فكانت اداة للوحدة الثقافية والحاضرية فيه . وهذا مما سهل نشر العلم ، ومشاركة أبناء الأمم المختلفة في تقدمه وتنميته وتطويره . وقد اصحبت اللغة العربية لغة الحضارة العربية في العصور الوسطى لأنها كانت لغة القرآن الكريم ، ولغة العرب المحررين ، ولغنى مفرداتها ، على النمو والتطور والاستجابة لحاجات الثقافة والعلم . لقد تطورت اللغة العربية لاستجابتها لحاجات الحياة والمجتمع والعلم ، ولأنها أصبحت لغة والتعليم والادارة والعمل . ولم تصبح اللغة العربية لغة العلم والادارة في البلاد المحررة فحسب ، وانما أثرت بلغة التخاطب ، وبذلك أثرت في عواطف الناس ومفاهيمهم وقيمهم ، فتعربت بذلك المقاييس الخلقية ، والخلاصة أنه بفضل الاسلام توحد العرب ، وتمت حروب التحرير وقد نتج عن ذلك التقاء ثقافات مختلفة ، ورقي الحضارة عموماً ، والعلوم والآداب خصوصاً وبفضل الإسلام نمت اللغة العربية ، وأصبحت لغة عالمية ، ذات شأن رفيع في تاريخ الثقافة الانسانية .



كان القرن الهجري الأول قرن التحرير والفتح حيث جمع العرب المسلمون بين الشعوب المختلفة ، وبعثوا حضارتها الراكدة ، وثقافاتها المنسية . وفي القرنين التاليين أقبل العرب على الترجمة والنقل ، فتمثلوا تراث الأمم القديمة واستوعبوه . وفي هذين القرنين والقرون التالية ابدعوا في جميع ميادين المعرفة والعلوم والآداب والفنون .

انسانية الحركة الفكرية العربية :

وقد امتازت الحركة العلمية العربية بانسانيتها وشمولها فاهتمت بمختلف الجوانب التي تهم الانسان . وقد كانت الحركة العلمية متميزة بدارستها الانسانية ، حيث توحد فيها الدين والقيم والعلم والفلسفة واللغة والتعبير الفني ، وقد تداخلت فيها هذه العناصر كلها حتى أصبحت كلاً متماسكاً متكاملاً ، هو الذي نسميه الثقافة العربية الاسلامية أو الحضارة العربية الاسلامية . وبهذا اكتسبت الثقافة العربية هذا المقام الرفيع في التاريخ الانساني .

حرية الفكر

وقد امتازت الحركة العلمية العربية بحرية البحث والتفكير والتعبير . لقد كان العرب المحررون متفتحي العقول ، متسامحين . فقد سمحوا للأمم الداخلة تحت حكمهم بممارسة أديانها السماوية ، والحفاظ على عقائدها وآدابها وعلومها . وأقبل المسلمون أنفسهم على دراسة التراث الحضاري والدين والعلمي للأمم . وشجعوا على نقله الى اللغة العربية بالترجمة والتأليف . وهدم الاسلام العصبية القبلية الضيقة ، وأحل محلها الأخوة الاسلامية الشاملة . وبين أن التفاضل بين الناس لا يكون بالنسب والحسب وانما بطاعة الله وخدمة المجتمع . قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]

(١) سورة الحجرات /١٣ .

وحرية الضمير ، واحترام حرية الناس في التفكير والتعبير عن آرائهم وعقائدهم ، وإلغاء التعصب هي التي أتاحت ازدهار الحركة العلمية فتعددت جوانبها ، واغتنت كنوزها . وهي التي اتاحت لأبناء مختلف الأقوام والملل أن يساهموا في هذه الحضارة فيغنوها ، ويخصبوها . لقد أتاحت الثقافة العربية الاسلامية ارحب الفرص لتيارات الفكر المختلفة في العالم ان تلتقي وتتفاعل ويخصب بعضها بعضاً فكان نتاج هذه الحركة العلمية الرائعة في تاريخ العالم .

الوضوح والعمق والجدية

وامتازت الثقافة العربية الاسلامية بعمقها ووضوحها . وامتاز الكثيرون من أكابر علماء العرب والمسلمين بمحبتهم للعلم ، وشغفهم بالمعرفة لذاتها ، وليس لما تدره عليهم من مال أو منصب أو جاه . وقد امتاز العلماء بمحبتهم للحقيقة ، وطلبهم للحق ، وعدم التردد بالاعتراف بالخطأ اذا ظهر لهم وجه الصواب . وكان لهم في المناظرة والجدل آداب يسيرون عليها . يقول الامام الشافعي : " ناظرت أحداً إلا وددت أن يظهر الله الحق على يديه " . وهذا هو المثل الأعلى في المناظرة والجدل . فالمهم في كال جدل ومناظرة التوصل الى الحقيقة وليس المهم أن يكون رأينا هو الغالب وحجتنا هي الراجحة .

وقد امتاز العلماء العرب المسلمون بالجدية في البحث عن الحقيقة ، في الدرس ، والتأليف . وكان الاساتذة يربون تلاميذهم على الجد في الدرس والتعمق في البحث والصبر على فهم ما لا يسهل فهمه بالتصفح السريع ، والقراءة المستعجلة . يقول الامام الغزالي " وأنا انبهك ، أيها المسترشد على شاكلة الصواب .. وأقدم لك نصيحة مشوبة بخشونة .. فنصيحة في تخشين خير من خديعة في لين . وهي أن هذا الكتاب لن يسمح بمضمون أسراره على مطالع .. إلا بعد استجماع شرائط أربع ، الشريطة الأولى : كمال آلة الدرك من وفور العقل ، وصفاء الذهن .. وجودة الذكاء والفطنة . فأما الجاهل البليد فهو عن مقصد الكتاب هذا بعيد الشريطة الثانية ؛ استكداد الفهم ، واستعمال الفكر واستثمار العقل

بتحديق بصيرته الى صواب الغوامض ، بطول التأمل ، وامعان النظر ، والمواظبة على المراجعة، والمثابرة على المطالعة والاستعانة بالخلوة وفراغ البال . الشريطة الثالثة : الانفكاك عن داعية العناد ، وضراوة الاعتياد ، وحلاوة المألوف من الاعتقاد . وأما الشريطة الرابعة فخلاصتها أن يكون الطالب ملماً لكل ما يلزم لفهم الكتاب من علوم ومناهج في البحث ، وأن يكون متعطشاً لإدراك ما لم يذكر في الكتب المؤلفة في الموضوع من أسرار ، متشوقاً الى الاطلاع على حقائق جديدة لم يذكرها المؤلفون والاساتذة السابقون " .

المنهج العلمي :

وتمتاز الحركة العلمية العربية باعتمادها على مناهج علمية دقيقة في البحث كانت أساساً وطليعة لمناهج البحث العلمية المعاصرة . ولم ينصرف العلماء الى العلوم النظرية فحسب ، ولم يعكفوا على المعرفة المجردة بمعزل عن الحياة الاجتماعية ، وانما واجهوا الحياة بكل مشاكلها ، واجتهدوا في ايجاد الحلول لها . يتمثل ذلك بوضوح في الفقه الذي يساير تطور المجتمع ويضع لكل مشكلة حلاً . ويتمثل ذلك أيضاً في المستشفيات والمراصد والمختبرات العلمية ، العامة والخاصة ، التي كانوا يمارسون فيها العلم ممارسة عملية ، ويتمثل ذلك أيضاً في جهودهم الزراعية حيث نقلوا أصنافاً من النبات من بلد الى بلد ، وأقلموها في جميع انحاء البلاد الاسلامية . ويتمثل في تطويرهم لأصناف الصناعات والحرف .

لقد واجه العرب ظروفاً جديدة ، وتحديات كبيرة ، لم يعرفوها من قبل ، وقد واجهوا هذه الظروف والتحديات بشجاعة فكرية ، وأمانة علمية ، وصراحة مخلصة وقدموا عنها أجوبة واجتهادات جدية ، لأنها جهود عقول واجهت مشاكل الحياة بصراحة ، واجتهدت في ايجاد الأجوبة والحلول بأمانة علمية ، وصراحة وشجاعة ، وصدق أمام الحقيقة . وستجد تفاصيل ذلك في الباب الثاني عشر (مكانة الحضارة العربية الاسلامية في العالم وأثرها في التقدم الحديث) .

نعني بمراكز الحركة العلمية والفكرية : البلد الذي تظهرُ فيه الحركة العلمية وتزدهر ، وموضع العلم والدراسة في ذلك البلد المعين . وقد كانت معظم المدن في العالم العربي والاسلامي مراكز للحركة العلمية ، لم تخل واحدة منها من مدرسة ومكتبة وعلماء اشتهروا بفن أو أكثر من فنون الأدب والعلم . على أن بعض المدن كانت تحتل مركز الصدارة في الحركة العلمية في فترة من الزمن فيقصدها العلماء والطلاب ، فتصبح بذلك مركز اشعاع علمي . وقد تبقى الحركة العلمية مزدهرة في مدينة فترة طويلة ، وقد تركد فيها الحركة العلمية بعد حين ، تبعاً لتقلبات الظروف والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، على أن شعلة العلم لم تنطفئ في الأقطار العربية والاسلامية ككل منذ بدأها الرسول (ﷺ) الى يومنا هذا .

مكة المكرمة والمدينة المنورة

وأقدم مراكز الحركة العلمية مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد اشتهرت هاتان المدينتان بالتفسير والحديث والفقه والتاريخ ، ولم تقتصرا على هذه العلوم الدينية فقط وانما انتجتا فناً بديعاً من غناء وشعر وأدب .

البصرة والكوفة وبغداد

وبعد التحرير اصبح العراق أهم مراكز الحركة العلمية ، وكانت الكوفة والبصرة مركزين عظيمين للعلم والمعرفة طوال قرون عديدة ، واشتهرتا بعلوم اللغة والدين والفلسفة . وفي الكوفة ظهرت بدايات الفلسفة وعلم الكلام . وازدهرت دراسة الفقه واللغة ، وكانت الحيرة، وهي المدينة القديمة الملاصقة للكوفة ، مركزاً لدراسة وترجمة كتب الفلسفة والطب . وفي البصرة نبغت جماعة إخوان الصفا الفلسفية وقد ازدهر فيها الزهد وعلم الكلام فضلاً عن دراسة اللغة والأدب .

وفي منتصف القرن الثاني الهجري أنشئت مدينة بغداد فكانت عاصمة الخلافة ، ومركز الدنيا جميعاً في الحركة العلمية خلال قرون طويلة ، وازدهرت فيها كل فنون المعرفة ، وبنيت فيها عشرات المدارس والمكتبات وشيدت فيها المدارس الكبرى واشهرها المستنصرية .
ومن المدن التي اشتهرت بالحركة العلمية في العراق : واسط والموصل والحلة والنجف .

الشام ومصر والاندلس

ومن مراكزالحركة العلمية الكبرى : الشام ومصر والأندلس . وقد ازدهرت الحركة العملية في الشام ومصر خاصة في عهد الأيوبيين والمماليك . فقد شجع المماليك العلماء تقرباً لقلوب عامة الشعب وأكرموهم ، وبذلوا الأموال على تأليف الكتب وجمعها ، فامتلأت القاهرة ودمشق وحلب بخزائن الكتب . وفي عهد المماليك نبغ كثير من العلماء ، وظهرت الموسوعات المطولة في العلوم والأدب والفنون المختلفة . وبلغ عدد ما بنوه من المدارس خمساً وأربعين مدرسة .

نشأ العلم في الاسلام نشأة بسيطة . وكان مركزه المسجد . وكان الرسول (ﷺ) أول معلم في الاسلام . فكان يتلو القرآن الكريم على الناس ، ويفسره لهم ، ويبين أهم أمور دينهم ودنياهم ، ويرشدهم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم .

كان الرسول (ﷺ) يفعل ذلك في المسجد وخارج المسجد ، وكان الناس يسألونه فيجيب عن اسئلتهم . وسار الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون على هذه السنة الحميدة، فكانوا الى جانب اعبائهم الادارية يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم . وقد حمل العلماء والفقهاء مهمة تعليم الناس وارشادهم حيث امتدت حركة التحرير والفتوحات الاسلامية من البلاد . ولم يكن اولئك المعلمون معينين من قبل الدولة ، وانما كانوا يقومون بالتعليم والارشاد طلباً للثواب ، واستجابة لحاجات الناس .

كان المعلم يجلس في جانب المسجد ويلتف حوله الناس في حلقة فيسألونه ، ويأخذون من علمه . ولم يكن على العالم أن يعلم موضوعاً معيناً بل كان يعظ الناس ، ويجيب عن

أسئلتهم ، وقد تكون الأسئلة في موضوع معين ، وقد تتعدد فتشمل مواضيع مختلفة من شعر ونحو ولغة وتفسير وحديث وفقه ، أو في أي علم من العلوم الأخرى . وبهذا كان التعليم متصلاً مباشراً بالمجتمع ، يعبر عن حاجاته ، ويخدمه ، ويستجيب لمتطلباته . وهذا من أهم عوامل نشاط الحركة العلمية وازدهارها وتنوعها في القرون الأولى بعد ظهور الاسلام .

مدارس

وقد ازداد اقبال الناس على العلم حتى أصبح يعقد في المسجد الواحد أكثر من حلقة دراسية . وكانت أصوات المدرسين وهم يلقون الدروس ، وأصوات الطلاب وهم يسألون ويناقشون ، تحدث ضجيجاً يشوش على الدارسين درسهم ، وعلى المصيلن صلاتهم وعبادتهم . ولما لم يعد المسجد يحتمل الصلاة والتدريس معاً أنشئت أماكن مستقلة للتعليم سيمت بالمدارس ، كان بعضها ملحقاً بالمساجد ، وبعضها مستقلاً بذاته . وخصص بعضها لتعليم الأطفال وسميت بالكتاتيب .

وقد تطورت المدارس واتخذ التعليم فيها شكلاً منظماً معيناً حين اصبحت حكومية . وقد انشأ الجامع الأزهر في القاهرة سنة ٣٦٠ هـ ، وقد خصص منذ سنة ٣٧٨ هـ للدراسات والأبحاث العلمية .

وقد قام الوزير نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ هـ بانشاء المدارس ، ولهذا نسبت المدارس التي انشأت في عهده اليه فصارت تعرف بالمدارس النظامية . وكانت هذه المدارس واسعة ، حسنة البناء ، متعددة المرافق ، وكانت الدولة تقوم بالنفقة على الاساتذة والطلاب . وانتشرت المدارس النظامية في العراق وبلاد فارس حتى كادت لا تخلو مدينة كبيرة من واحدة منها . وأهم هذه المدارس هي المدرسة النظامية في بغداد .

المدرسة النظامية

وقد تأسست هذه المدرسة في سنة ٤٥٧ هـ - ١٠٦٥ م، وفتحت أبوابها للتلاميذ بعد ذلك بسنتين . وكان يدرس فيها العلوم الاسلامية وعلوم اللغة والآداب . ومن اساتذتها

المعروفين الامام الغزالي . وقد بقيت هذه المدرسة قائمة الى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي . وكانت واردات أوقاف المدرسة تسد نفقات المدرسة والتلاميذ المقيمين فيها .
وقد زارها الرحالة ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٧ م وقال عنها إنها أعظم مدارس بغداد واشهرها . وسار على هذا النهج الزنكيون في بلاد الشام ، والأيوبيون في مصر والشام حيث أنشأوا خمساً وعشرين مدرسة .

المدرسة المستنصرية :

وأشهر مدارس بغداد المدرسة المستنصرية التي أنشأها الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٣١ هـ. وكانت أقرب المدارس العربية الاسلامية الى الجامعة بمفهومها الحديث . فقد كان يدرس فيها الفقه والعقيدة الاسلامية ، ولها مكتبة كبيرة تحوي آلاف المجلدات في مختلف العلوم والمعارف . وانشئ الى جانبها دار لقراءة القرآن يتعلم فيها الصبيان القرآن الكريم . وانشئ مقابل المستنصرية ايوان عال فسيح في صدره ساعات تعمل الليل والنهار ترشد الناس الى أوقات الصلاة . وخصص هذا الايوان للطب ، فكان به جماعة من المشتغلين بالطب ولهم شيخ يعلمهم ، ويداوي الفقراء وغيرهم من المرضى . وكانت للمستنصرية أوقاف ينفق منها على الاساتذة والطلاب ما يسد حوائجهم من الطعام والصابون والنور وأودات الكتابة ومستلزماتها .

ولم تهمل الآداب والعلوم والرياضية والطبية . فكان في المستنصرية طبيب يدرس الطب ويعالج المرضى أمام الطلاب . وكذلك كانت تدرس في هذه المدرسة آداب اللغة العربية وكان نظامها أقرب الى النظام الجامعي .

على أن التعليم ، بصورة عامة ، كان موجهاً نحو العلوم الدينية . وقد كثرت في أواخر العصر العباسي مدارس القرآن الكريم والحديث . وكانت الدروس الدينية تقدم أيضاً في الزوايا والربط والصوفية .

ولم يقتصر التعليم على المساجد والمدارس بل كان بعض العلماء والفلاسفة يعلمون في بيوتهم حيث كان يقصدهم الطلاب ليدرسوا علوماً معينة . وكانت المجالس العلمية

والدينية والأدبية تعقد في بيوت الأمراء والعلماء والأغنياء فيتناظر العلماء ، ويتجادلون في المعارف والأفكار وقد وضع العلماء قواعد للجدل والمناظرة وألفوا في ذلك الكتب .

المكتبات ودور الكتب

ظهرت في البلاد العربية والاسلامية دكاكين الوراقين أو مايسمى في وقتنا الحاضر المكتبات . وكان لهم أسواق خاصة تسمى أسواق الوراقين ، وصناعة تسمى الوراقة .

كانت الوراقة تشمل نسخ الكتب ، وتجليدها ، وبيعها وبيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر وغير ذلك . وكان الوراقون يعنون بتزويق بعض الكتب الخاصة ، وتصويرها، وتذهيبها استجابة لأذواق محبي الكتب من الأمراء والأغنياء . وقد نتج عن اقبال الناس على الكتب ازدهار صناعة الورق التي نقلها العرب عن الصين ، ومنهم انتقلت الى اوربا ، فكانت من العناصر الممهدة للنهضة العلمية الحديثة .

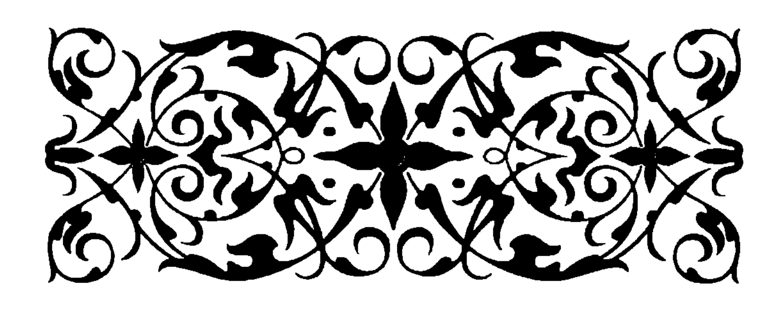
كان في بغداد ودمشق والقاهرة والاندلس وغيرها من حواضر البلاد الاسلامية المئات من دكاكين الوراقين . ولم يكن الوراقون مجرد باعة للكتب أو نساخين لها ، وانما كان منهم العلماء وادباء ذوو ثقافة عالية كابن النديم مؤلف كتاب الفهرست ، وياقوت الحموي مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان . وكان يجتمع في دكاكين الوراقين العلماء والفلاسفة والأدباء فيقرأون الكتب ، ويناقشونها ويتناظرون في مختلف فنون العلم والمعرفة .

واهتم العرب بانشاء خزائن الكتب أي المكتبات . وكانت على ثلاثة أصناف : مكتبات عامة وهي المكتبات الملحقة بالمدارس والمساجد ، وكانت تعير الكتب للطلاب أو لعامة الفقراء ، ومكتبات خاصة ، وهي المكتبات الشخصية التي كانت في بيوت الخلفاء والأغنياء، ومكتبات بين العامة والخاصة وهي المكتبات التي كان استعمالها مقتصراً على طبقة معينة من العلماء والطلاب . ومن أشهر هذه المكتبات مكتبة بيت الحكمة أو دار الحكمة التي أنشأها الخليفة هارون الرشيد وازدهرت في خلافة ابنه المأمون . وقد حوت هذه المكتبة عدداً كبيراً من الكتب النفيسة العربية والأجنبية . فكان فيها الى جانب الكتب العربية المخطوطات اليونانية والآرامية والهندية والقبطية وغيرها . وكان يعمل في بيت

الحكمة عدد من العلماء والمؤلفين والمترجمين ، كانوا يقومون بنسخ الكتب أو تاليفها ، أو نقلها من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية ، وقد تمت في بيت الحكمة ترجمة عدد كبير من الكتب المهمة في الرياضيات والفلك والطب والفلسفة .

الكنائس والأديرة

ولم تقتصر المراكز العلمية التي عددناها على المسلمين . فقد كان لأبناء الملل الأخرى وخاصة النصارى ، مراكز علمية يتعلم فيها أبناؤهم لغتهم ، ودينهم ، وتراثم العلمي ، وكانت الكنائس والأديرة والمكتبات الملحقة بها ، والمدارس التابعة لها من مراكز الحركة العلمية المهمة .



مصادر ومراجع الفصل الثاني

فجر الاسلام وضحى الاسلام — احمد امين

تاريخ التربية الاسلامية — احمد شلبي

خزائن الكتب القديمة في العراق ، كوركيس عواد

مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٨م

اسئلة

١ – ما دور الاسلام في ازدهار الحركة الفكرية ؟

٢ – ما العوامل التي جعلت اللغة العربية لغة عالمية ؟

٣ – ما أثر تعريب الدواوين على انتشار اللغة العربية ؟

٤ – ما أهم مميزات الحركة الفكرية العربية ؟

٥ – ما أسباب ازدهار الحركة الفكرية في العراق ؟

٦ – تكلم عن أثر المساجد في الحركة الفكرية ؟

٧ – ما أهم المدارس في العراق ؟

٨ – ما معنى الأمانة العلمية ؟

٩ – ما المنهج العلمي في البحث ؟

نشاط

– بعد زيارتك لأحدى المكتبات العامة .. اكتب قائمة بأسماء المصادر والمراجع الخاصة بتاريخ الحضارة العربية الاسلامية المتوفرة فيها ..

– باشراف مدرس المادة .. يقوم طلبة المدارس القريبة بزيارة المدرسة المستنصرية وكتابة تقرير عن مشاهدتهم لها .

الفصل الأول علوم القرآن الكريم

ذكرنا ان الدين الاسلامي كان الباعث الأول على ازدهار الحركة العلمية . فمن الطبيعي أن تكون علوم القرآن الكريم هي أول العلوم التي اعتنى بها العرب والمسلمون وأهم علوم القرآن الكريم هي : علم أسباب النزول ، وعلم المحكم والمتشابه وعلم التناسخ والمنسوخ وعلم اعجاز القرآن الكريم ، واعراب القرآن ، والقراءات ، وفضائل القرآن ، ومجاز القرآن ، وتفسير القرآن وهو أهمها جميعاً . وكل علم من هذه العلوم يتناول ناحية من نواحي القرآن الكريم . وقد اختصر العلماء هذه العلوم في علم موحد سموه " علوم القرآن " وألفوا في ذلك الكتب الكثيرة ، ومن أهمها " الاتقان في علوم القرآن الكريم " للسيوطي .

علم أسباب النزول :

كانت آيات الأحكام ، أي الآيات المتعلقة بالتشريع ، تنزل في الغالب جواباً لحوادث تقع في المجتمع ، أو جواباً عن أسئلة يسألها المؤمنون . ومعرفة هذه الحوادث والأسئلة والأشخاص الذين سألوها ، والظروف التي أحاطت بنزول الآية فيها ، هي العلم الذي يسمى بأسباب النزول . ومعرفة أسباب النزول ضرورية في تفسير أيات أحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام والغزو والجهاد والأحوال الشخصية والحقوق المدنية . فلا تفهم هذه الآيات على وجهها الصحيح إلا إذا عرفت الظروف التي نزلت فيها فالعلم بالسبب يساعد على معرفة المسبَّب ، ويفيد هذا العلم في معرفة وجه الحكمة عن تشريع الحكم . فقد يكون اللفظ عاماً فيفيدنا علم النزول بمعرفة الدليل على أن المراد به التخصيص ، أي أن المراد به شخص معين ، أو حادثة معينة ، لا أنه عام مطلق . ومن أهم الكتب في هذا العلم " لباب النقول في أسباب النزول " لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م وهو مؤلف كتاب الاتقان المتقدم ذكره .

علم الناسخ والمنسوخ :

لقد نزلت آيات القرآن الكريم تدريجياً خلال أكثر من عشرين قرناً . وقد تدرجت فيه الأحكام وتوجد آيات قليلة في القرآن الكريم تعرضت للنسخ . فكانت تنزل آية في حكم من الأحكام ، وبعد فترة تنزل آية أخرى فتزيل حكم الآية الأولى ، أو تعدله ، أو تلغيه . وهذا ما يسمى بالناسخ والمنسوخ ، وهذا العلم ضروري لفهم التدرج في أحكام القرآن والسنة ، ومعرفة المراحل التي مّر بها التشريع القرآني ومن أهم الكتب في هذا الموضوع : " كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم " تأليف ابي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ .

علم التفسير

المقصور بالتفسير هو بيان معاني آيات القرآن الكريم ، وتوضيحها ، وكشف المراد منها. نزل القرآن الكريم بلغة عربية مبينة . وكان الرسول (ﷺ) يتلوه على العرب فيفهمون معانيه ويدركون مراميه . ولكنهم لم يكونوا ليفهموا القرآن الكريم بدرجة واحد من الوضوح ، بل كانوا يفهمونه فهماً متفاوتاً بحسب مستواهم العقلي ، واستعدادهم اللغوي ، وثقافتهم العامة . فقد كان بعضهم شديدي الاتصال بالرسول (ﷺ) ، طويلي الملازمة له ، فأفادهم قربهم منه فهماً القرآن الكريم ، وتعمقاً في ادراك معانيه . وكان بعض الصحابة ملمين بآداب قبل الاسلام ، عالمين بلغتها وأخبارها وعاداتها أكثر من غيرهم . والقرآن الكريم يحتوي على أحكام فقيهة وعقائدية . لا يكفي فهم اللغة العربية وحدها لادراك هذه الأمور . ولهذا كان الناس في عصر الرسول (ﷺ) بحاجة الى من يفسر لهم بعض ألفاظ القرآن الكريم واشاراته.

التفسير بالمأثور

وكان الرسول (ﷺ) هو الذي يفسره لهم ، ويبين معنى ما غمض منه عليهم . فلما توفي الرسول (ﷺ) ، وتمت حروب التحرير والفتوحات ، ودخل الاسلام الكثير من الناس ، ومنهم لم يكونوا عرباً ، ازدادت الحاجة الى تفسير القرآن الكريم . وقد قام علماء الصحابة بهذا التفسير استناداً إلى ما تعلموه من النبي (ﷺ) وما فهموه منه بحسب علمهم واجتهادهم . وأشهر المفسرين من الصحابة الخلفاء الراشدون الأربعة ، (رضي الله عنهم)

وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، ومن هؤلاء الصحابة (رضي الله عنهم) وغيرهم أخذ التفسير جماعة من التابعين . وجاء العلماء فجمعوا تفسير الرسول (ﷺ) والصحابة والتابعين . وآلفوا في ذلك الكتب . وقد سمي هذا النوع من التفسير (التفسير بالمأثور) ، أي ما أثر عن الرسول (ﷺ) وأصحابه (رضي الله عنهم) ، أو (التفسير بالمنقول) أي ما نقل عنهم .

ومن أهم الكتب في هذا الموضوع تفسير الطبري (ت ٣١٠هـ) المسمى " جامع البيان في تفسير القرآن " وهو يقع في ثلاثين جزءاً بعدد أجزاء القرآن الكريم .

وقد سار على نهج الطبري في التفسير عدد من المفسرين أشهرهم ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . وعنوان كتابه هو " تفسير القرآن العظيم " . ويمتاز بالدقة في الاسناد، وبساطة العبارة ، ووضوح الفكرة ، والايجاز .

التفسير بالرأي :

وقد تعددت تفاسير القرآن الكريم وتنوعت . وكان يظهر في كل عصر من العصور تفاسير جديدة ، تعتمد في التفسير على الرأي والاجتهاد . وسبب ذلك ان القرآن الكريم هو دستور المسلمين في دينهم ودنياهم ، وكلما تطورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية رجعوا إليه ليروا فيه حلاً لما يستجد من الأمور المشاكل . وكلما تطورت الحياة العقلية نظر العلماء الى القرآن الكريم من وجهة نظر جديدة ، وقرأوا فيه معاني لم تكن لتخطر على بال من تقدمهم . وقد أصبح تفسير القرآن الكريم في أي عصر من العصور يحمل طابع الحياة العقلية والاجتماعية والدينية لذلك العصر ، لأن المفسر عادة يساير أفكار الناس ، ويقصد الى حل المشاكل التي تواجههم ، ويشرح لهم ألفاظ القرآن الكريم بالطرق المألوفة لديهم وبالأساليب المعروفة عندهم . ومن هنا فإن دراسة تفاسير القرآن الكريم ذات قيمة كبيرة في فهم الحركة العلمية في الاسلام ومعرفة المستوى العقلي للمسلمين في أي عصر من العصور.

وقد اشترط العلماء في المفسر المؤهل لتفسير القرآن الكريم شروطاً عديدة شديدة لا

تتوافر إلا في أكابر العلماء . فقد اشترطوا أن يكون المفسر حسن المعرفة بقواعد اللغة العربية وأصولها في الحقيقة والمجاز ومعاني الفاظها وأسباب النزول ، وأن يكون عليماً بالشريعة الاسلامية ، جيد الاطلاع على أحكامها ، ملماً بما نقل في التفسير مروياً عن الرسول (ﷺ) والصحابة والتابعين (رضي الله عنهم) .

ومن أشهر التفاسير بالرأي عند جمهور المسلمين تفسير البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ المسمى " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " .

وقد حاول بعض علماء الفرق الاسلامية تفسير القرآن الكريم بما يؤيد مذاهبهم وآرائهم ومن ذلك تفاسير المعتزلة والصوفية . وتمتاز تفاسير المعتزلة باتباعها الأسلوب العقلي في الاستدلال وقلة اعتمادها على المأثور من التفسير ، ومن أشهرها : " الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " لجار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهو موجز العبارة شديد العناية بتوضيح وجوه البلاغة والاعجاز في القرآن الكريم . أما تفاسير الصوفية فيغلب عليها الغموض ، والمصطلحات الخاصة ، والمعاني التي لا يفهمها إلا المطلع على آداب المتصوفة الخبير بطرقهم في التفكير وأساليبهم في الكلام ومن أشهر هذه التفاسير التفسير المنوسب الى محي الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .

التفسير بالمأثور والرأي :

وكثير من التفاسير تجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي وهذه التفاسير تبدأ بذكر اسم السورة وفضلها وذكر الآية وما فيها من الأعراب والقراءات وتبيان معانيها اللغوية ، ثم ذكر ما ورد فيها من التفاسير المأثورة وبيان رأي المفسر واجتهاده أحياناً .

تفاسير العصر الحديث :

وقد ظهر في العصر الحديث عدد كبير من التفاسير حاولت أن تفسر القرآن الكريم بلغة العصر وبالأسلوب الذي يفهمه الناس اليوم وحاولت أن تبين معاني القرآن في ضوء الحركات

الاجتماعية والاقتصادية والاكتشافات العلمية ومن أشهر هذه التفاسير تفسير محمد عبده الذي أكمله تلميذه محمد رشيد رضا والذي يعرف بتفسير المنار ويحاول هذا التفسير أن يوفق بين ما ورد في القرآن الكريم من اشارّات الى الظواهر الكونية والنظريات العلمية الحديثة.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

الاتقان في علوم القرآن للسيوطي

كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس

مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح

فجر الاسلام وضحى الاسلام لاحمد امين

اسئلة

١ - عرف علم أسباب النزول وبين أهميته .

٢ - عرف الناسخ والمنسوخ وبين أهميته .

٣ - اشرح أسباب اهتمام المسلمين بتفسير القرآن الكريم .

٤ - ما فائدة دراسة تفاسير القرآن الكريم لمعرفة تطور الحركة الفكرية في الاسلام ؟

٥ - ما أهم مميزات التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي ؟

أهمية الحديث :

يقصد بالحديث أو السنة كل ما قاله الرسول (ﷺ) أو فعله أو رآه فأقره ولم ينكره والحديث يلي القرآن الكريم في أهميته الكبرى . وذلك أنه يفصل ما أجمله القرآن الكريم ويفسر ما يصعب على الناس فهمهم منه . وكثير من آيات القرآن الكريم مجملة ، أو مطلقة ، أو عامة . والحديث يفصلها ، أو يقيدها ، أو يخصصها . فالقرآن الكريم مثلاً ، أمر بالصلاة على وجه الاجمال . أما الحديث فقد بين عددها وحدد أوقاتها ووصف كيفية أدائها . وكان الرسول (ﷺ) يحل مشاكل المسلمين ، ويجيب عن اسئلتهم ، ويفتي لهم في قضاياهم المختلفة . وعلى هذا فقد أصبح الحديث أساساً مهماً من أسس التشريع في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية وكان للحديث أعظم الأثر في نشر الثقافة في العالم الاسلامي ، فقد أقبل الناس على دراسته ، ورحلوا في سبيل جمعه وتعلمه ، فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية ، واطلاع علماء بلد على ما في البلد الآخر من علوم ومعرفة ، وبهذا كان الحديث من العوامل المهمة في توحيد الثقافة في العالم العربي والاسلامي .

تدوين الحديث

لم يدون الحديث تدويناً شاملاً منظماً في عهد الرسول (ﷺ) وفي صدر الاسلام ، وانما كان الناس يتناقلون الأحاديث المتفرقة عن طريق الرواية الشفهية . وقد نشأ عن عدم تدوين الحديث في حياة الرسول (ﷺ) ، واكتفاء الصحابة والتابعين الاعتماد على الذاكرة ، وصعوبة حصر ما قاله الرسول (ﷺ) أو فعله في مدة ثلاث وعشرين سنة من بدء الوحي الى وفاته (ﷺ) ، ان بعض الناس أخذوا يضعون الأحاديث وينسبونها للنبي (ﷺ) وهذا ما يسمى الحديث الموضوع ، ومن أسباب وضع الحديث : الخصومات السياسية ، والخلافات الفقهية والعنصرية . ومما زاد في ذلك تساهل قبول العلماء للأحاديث الموضوعة في

الترغيب والترهيب مما لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحريم حلال . كما قام الزنادقة والملحدون والشعوبيون بوضع احاديث عن الرسول (ﷺ) لغرض تشويه الحديث النبوي وتوجيه الطعن الى العرب والمسلمين .

نقد الحديث وتدوينه

ولم يغفل العلماء عن تمييز الحديث الصحيح من الموضوع ، بل أعاروا ذلك عظيم اهتمامهم ، وكرسوا جهودهم لتنقيته مما دخل عليه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ، وقد اشترطوا اسناد الحديث ، أي بيان سلسلة الراوة الذين نقلوا الحديث عن النبي (ﷺ) وهدا ما يعرف بالسند ، أما نص الحديث فيسمى المتن . ومن نقد رواة الحديث وتقصي أحوالهم تعرف مكانتهم من حيث الصدق ، ويعرف أيضاً ما إذا كانوا منحازين الى اتجاه سياسي أو فلسفي ليؤخذ ذلك بنظر الاعتبار . ويسمى نقد الرواة بعلم الجرح والتعديل . والجرح هو اكتشاف معايب الراوي ، أما التعديل فهو التوصل الى أن الراوي عادل أو عدل فيما يروي . وقدوضع العلماء للجرح والتعديل قواعد .

صنف العلماء الحديث بحسب قوة السند وصحته إلى أصناف . منها المتواتر والاحاد . والمتواتر ما رواه جماعة موثوقون لا يتواطئون على الكذب عن جماعة مثلهم الى الرسول (ﷺ) وهذا النوع من الحديث يفيد العلم . أم الأحاديث غير المتواترة فتسمى آحاداً ، وهي لا تفيد العلم عند الفقهاء ، وانما يجوز العمل بها عند ترجح صدقها . وقد قسموا الحديث كذلك الى درجات بحسب تسلسل الرواة في السند . ومن ذلك الحديث المسند وهو ما اتصل اسناده من روايته الى منتهاه ويسمى هذا النوع من الحديث أيضاً المتصل أو الموصول . والحديث المرسل وهو الذي سقط من سنده الصحابي فرواه التابعي عن الرسول (ﷺ) مباشرة . والحديث المنقطع وهو الذي سقط من سنده اسم الراوي فيه من التابعين . والحديث المعضل وهو الذي سقط من سنده اسماً أو اثنين أو أكثر من الرواة .

وقد بدأ العلماء يدونون الحديث في مطلع القرن الثاني الهجري . ومن أوائل الكتب التي ألفت فيه (الموطأ) للامام مالك بن أنس المولود في المدينة سنة ٩٥ هـ والمتوفى فيها سنة

١٧٩ هـ . والموطأ مزيج من الحديث والفقه ، فقد جمع أحاديث الرسول (ﷺ) والآثار المروية عن الصحابة والتابعين وبعض معاملات الناس في المدينة وهو يقسم الأحاديث بحسب المواضيع ، ويجمع الأحاديث التي تخص كل موضوع في باب مستقل .

وبعد عصر الامام مالك نشط التأليف المنظم في الحديث ، حيث جمعت الأحاديث في كتب خاصة وأفردت عن الشروح الفقهية ، وأشهر هذه الكتب : صحيح البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وصحيح مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ وسنن ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وسنن أبي داؤد السجستاني المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٣ هـ . وجامع الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وسنن النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ، وتسمى هذه الكتب بالصحاح الستة ، وأعظمها شهرة وتوثيقاً (صحيحا البخاري ومسلم) ، فقد ميزها العلماء وسموها بالصحيحة ، وسموا صاحبيها بالشيخين ، وسموا الكتب الأربعة الأخرى بالسنن ، والأحاديث في الصحاح الستة مقسمة على أبواب الفقه حيث جمعت الأحاديث المتعلقة في موضوع معين في باب خاص .

ومن الكتب المعتمدة في الحديث مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى سنة ٢٤١ هـ وهو يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف . وأحاديث المسند مرتبة بحسب الرواة من الصحابة ، أي أن كل الأحاديث التي رواها صحابي معين تجمع تحت اسمه في فصل خاص مهما اختلفت موضوعاتها من صلاة أو زكاة أو ميراث أو غيرها ، والخلاصة أن أساس ترتيب الأحاديث في الموطأ أو الصحاح الستة هو وحده الموضوع ، أما أساس التقسم في المسند فهو الصحابي الراوي .

لقد اكتمل جمع الحديث وتدوينه والتصنيف في القرن الرابع الهجري . واعتمد المسلمون جملة من هذه الكتب واحلوها المنزلة العالية . وانصرف العلماء الى هذه الكتب المعتمدة ، واخذوا يشرحونها ، أو يهذبونها ، أو يختصرونها أو يعيدوا ترتيب الأحاديث فيها وفق انماط جديدة وقد ألفت في ذلك المئات من الكتب في مختلف العصور .

مصادر ومراجع الفصل الثاني

كتاب الكفاية في علم الرواية ، الخطيب البغدادي
حيدر آباد الدكن ١٣٥٨ هـ

الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير — احمد محمد شاكر

فجر الاسلام — احمد امين

علوم الحديث ومصطلحه ، صبحي الصالح
مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩

اسئلة

١ – اشرح اهمية الحديث .

٢ – عرف علم الجرح والتعديل واشرح منهج علماء المسلمين في نقد الحديث .

٣ – ما أقسام الحديث ؟

٤ – اشرح أثر الحديث في انتشار الثقافة في العالم الاسلامي .

" ولو كان لأحكام الدين الاسلامي تفسير واحد واجتهاد واحد من شعبنا لاختلف دورنا من خلال استخدام السلطة في الأرض عما هو عليه الآن "[1].

ويتناول الفقه الاسلامي جميع المسائل التي تواجه الانسان في حياته الشخصية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، ويضع القواعد التي تنظيم حياته . فهو يبحث في الفرائض الدينية ، والأحوال الشخصية ، والمعاملات الاقتصادية ، وفي الجرائم وعقوبتها . وقد مر الفقه بتطورات هامة ، وانتج حركة رائعة من حيث ضخامة الإنتاج وعدد العلماء والفقهاء وابتكار الأساليب في الاجتهاد ، والتعبير اللغوي والمصطلحات ، ووضع القواعد التي تساير تغير الظروف ، وتطور المجتمع . والحق ان تأليف المسلمين في الفقه من أقوى الأدلة على خصب الثقافة العربية الاسلامية ، ورقي مستواها واصالتها .

مصادر الفقه :

وتستند قواعد الفقه على أصول أربعة وهي : القرآن الكريم ، والسنة ، والإجماع والرأي والاجتهاد .

أولاً : القرآن الكريم

القرآن الكريم يفيد القطع من ناحية ثبوته ووجوب العمل به . وهو المصدر النقلي الأساسي الأول الذي لا يعدل عنه الى سواه . ولكن لفظ القرآن قد يكون نصاً واضحاً محدداً لا يحتمل إلا معنى واحداً ، وقد يحتمل عدة معان ، فيكون محل اجتهاد المجتهدين . وقد بين الفقهاء قواعد التفسير والاجتهاد ، وأضحوا شروطها ، والعلوم الموصلة اليهما ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في بحثنا عن التفسير .

---

(١) صدام حسين كراس المفهوم البعثي للقانون والعدالة ص ٢٧٢

ثانيا : السنة .

والسنة هي المصدر الأساسي الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم وقد اجمع الفقهاء على وجوب العمل بالحديث الصحيح .

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (١)

قال الرئيس القائد صدام حسين (حفظه والله ورعاه) (ان السنة النبوية التي هي سنة رسول الله (ﷺ) لم تظهر بعد ان انتهت آخر آية بالقرآن وانما وجدت مترادفة مع ظهور الآيات الأولى في القرآن) (٢)

ثالثا : الاجتهاد أو الرأي

قام التشريع في حياة الرسول (ﷺ) على القرآن الكريم وعلى السنة النبوية الشريفة . ولما توفي الرسول (ﷺ) سار المسلمون على هذين الأساسين في حل ما ينشأ لهم من مشاكل قانونية . فاذا واجهتهم مسائل لا يجدون فيها نصاً في القرآن أو السنة لجأوا الى الاجتهاد برأيهم . وهذا ما عرف فيما بعد بالاجتهاد أو الرأي أو القياس . قد كان الخليفة ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) اذا عرضت عليه قضيه ولم يجد فيها نصاً في القرآن الكريم والسنة يجمع الناس ويستشيرهم ، فيبحثون القضية ويبدون فيها آراءهم ، فاذا اجتمع رأيهم على حل قضى به . وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) وفقهاء عصورهم قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لشريح لما ولأه قضاء الكوفة " انظر ما يتبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنة رسول الله (ﷺ) وما لم يتبين لك في السنة فاجتهد فيه برأيك " .

رابعا : الاجماع

وكان الحكم الذي يتوصل اليه المجتهدون من الصحابة ، بعد مشاورة وتقليب للآراء المختلفة، يسمى اجماعاً ، ويتوجب على الناس أن يتبعوه ولا يخالفوه ، لأن في مخالفته نقضاً لوحدة

---

(١) الحشر / ٧ .

(٢) صدام حسين ،كراس المفهوم البعثي للقانون والعدالة ص ٣٢ .

الرأي . وكان الاجماع في ذلك العصر ميسوراً لأن عدد المجتهدين من الصحابة كان قليلاً . فكان من السهل جمعه واستشارتهم والاطلاع على آرائهم في أي موضوع . وكان الاجتهاد والاجماع يستندان إلى القرآن الكريم والسنة ، والى العرف والعادات السائدة في المجتمع مما لم يتعرض له القرآن الكريم والسنة بالتغيير .

كان الاجتهاد والاجماع في هذه المرحلة بسيطين ، مثل بساطة المجتمع العربي الاسلامي الأول ، وقد تعقدا فيما بعد وكثرت فيهما المصطلحات ، واختلف حولها الآراء .

وفي عصر التابعين ، أي من نهاية العصر الراشدي الى حوالي نهاية القرن الأول : نشط التشريع ، وتعدد فيه الاتجاهات الفهية .

وفي هذا العصر بدأ الحوار بين أصحاب الاجتهاد والرأي وأصحاب الحديث ، وكان أصحاب الحديث يقفون عند ظاهر النصوص من القرآن الكريم والسنة الصحيحة لا يبحثون في عللها ، وقلما كانوا يفتون برأيهم اجتهاداً . أما أصحاب الرأي فكانوا يبدون آراءهم ويجتهدون في القضايا التي لا يجدون لها نصوصاً في الآثار النقلية . وقد اشتهر أهل الحجاز بالتمسك بالحديث . أما فقهاء العراق فقد أخذوا بالرأي وشتهروا فيه . ومن الأسباب التي جعلت أهل الحجاز يتمسكون بالحديث ، وأهل الأمصار ، وخاصة العراقيين ، يميلون الى الاجتهاد ، أن الحجاز هو موطن السنة وفيه كثير من العادات والأعراف التي أقرها الاسلام ولم يتعرض لها بتغيير وتحوير إلا قليلاً ، وقد بقي الناس يذكرون سيرة الرسول (ﷺ) وأصحابه ويتبعون ما توارثوه عنهم ، ويسيرون حسب تقاليدهم وأعرافهم ، أما في الأمصار الجديدة فقد واجه الفقهاء حضارات قديمة ووجدوا أموراً لم تكن في الحجاز ، ووجدوا نظماً وحياة اجتماعية جديدة عليهم ، واطلعوا على تشريعات وأحكام سائدة وطرق في التقاضي غير معروفة لديهم . وقد حملتهم كل هذه الأسباب على إعمال الفكر والاجتهاد فيما يعرض عليهم من قضايا تحتاج الى حلول تشريعية .

وقد بلغ الفقه مستوى عالياً خلال القرنين التاليين ، أي من أوائل القرن الثاني ومنتصف القرن الرابع الهجري. فقد تم في هذا العصر تدوين الحديث ، واستقل عنه الفقه وظهرت

الكتب المعتمدة فيه . وفي هذا العصر ظهرت الاصطلاحات الفقهية ، واشتدت المناقشات حول أصولها العقلية ، كالقياس والاستحسان وما تفرع عنهما ، وفي هذا العصر ظهر كبار الفقهاء الذين أصبح كل واحد منهم إماماً لمذهب فقهي ما زال قائماً حتى عصرنا هذا . وقد امتاز هذا العصر بالخصب ، والحيوية وحرية التفكير ، فقد كان باب الاجتهاد مفتوحاً ، فكان الفقهاء ، أحراراً في إبداء آرائهم ، ونقد آراء مخالفيهم . وكان الناس أحراراً في الأخذ برأي هذا الفقيه أو ذاك ولم يجمدوا على تقليد اتجاه معين .



مصادر ومراجع الفصل الثالث

مدخل الفقه الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٤ — محمد سلام مدكور

تاريخ التشريع الاسلامي ، ط ٧ القاهرة ١٩٦٠ — محمد الخضري

النظم الاسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ — صبحي الصالح

أسئلة

١- اذكر معنى الفقه .

٢- ما هي مصادر الفقه ؟

٣- ما المقصود بالاجتهاد والاجماع ؟

٤- ما تعليل اعتماد أهل الحجاز على الحديث النبوي الشريف ؟ ولماذا اشتهر أهل العراق بالرأي ؟

نشاط

يُطلع المدرس طلابه على أحد كتب علوم القرآن الكريم وعلوم الحديث النبوي الشريف .

الباب التاسع العلوم اللسانية والانسانية

الفصل الأول الترجمة

١

عوامل ازدهار الترجمة :

بدأت حركة الترجمة في العصر الأموي بصورة محدودة ، وخاصة في المجالات العلمية كالطب والكيمياء ، وأول من فعل ذلك خالد بن يزيد المتوفى سنة ٨٥ هـ . وكان مولعاً بالعلوم ، وخاصة الكيمياء ، فدرسها وشجع على ترجمة كتبها الى العربية ، وكان تعريب عبد الملك بن مروان دواوين الخراج من أعظم الدوافع لحركة الترجمة ، ومن أولى الخطوات الممهدة لها . فقد كان تعريب هذه الدواوين الخطوة الأساسية الأولى لتعريب الثقافة عموماً.

وقد ازدهرت الترجمة في العصر العباسي ازدهاراً عظيماً ، فنقلت الى اللغة العربية علوم الأمم المتمدنة في العصور القديمة ، وقد شجع الخلفاء العباسيون الأولون حركة الترجمة ، وتابعهم في ذلك الوزراء والأمراء من محبي المعرفة .

وكان أكثر الترجمة عن اليونانية ، فقد ترجم عنها كتب الطب والعقاقير والمنطق والفلسفة والفلك والرياضيات والهندسة والموسيقى . وترجم العرب عن الهندية عدداً من الكتب في الطب والحساب والنجوم . وترجموا عن الفارسية عدداً قليلاً من كتب الأدب والتاريخ والادارة ومراسيم البلاط والقصص التي اعتمدت في أصولها على علوم وادي الرافدين ووادي النيل .

وكان للمترجمين أسلوبان في الترجمة احداهما الأسلوب الحرفي بترجمة كل كلمة

والاسلوب الثاني هو أن يفهموا معنى الجملة فيكتبوها بالعربية وبذلك تكون الترجمة واضحة مفهومة والثانية هي المفضلة . وقد اتبعها كبار المترجمين .

بدأت حركة الترجمة المنظمة حوالي منتصف القرن الثاني الهجري واستمرت حتى نهاية القرن الرابع الهجري . وفي خلال المدة تم نقل معظم الكتب العلمية الى اللغة العربية . فكان ذلك من الأسس الراسخة التي قامت عليها حركة الفلسفة والعلوم عند العرب . وكان ذلك من الأدلة البينة على محبة العرب للمعرفة ، واحترامهم للفكر حيثما كان مصدره .
لقد ساعدت الترجمة على ازدهار الفكر في العصر العباسي وعلى نمو الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية عند العرب . على أن اولئك المترجمين لم يقتصر على نقل النصوص الفسلفية والعلمية من لغة إلى لغة فقط ، وانما أوجدوا مصطلحات فلسفية وعلمية عديدة عن طريق التعريب ، والاشتقاق وتخصيص الألفاظ العربية العامة للمعاني الفلسفية والعلمية المحددة . وقد نقل كثير من هذه الكتب العربية الى اللغة اللاتينية فكانت من أهم الحوافز على حركة احياء التراث اليوناني والروماني في اوربا مما سنفصله في الفصل الأخير . وتجري الآن حركة واسعة لجمع ما بقي من هذه الترجمات العربية ، وتحقيقها ونشرها . وقد تم نشر عدد منها في الفلسفة والطب والعلوم الأخرى .

مصادر ومراجع الفصل الأول

عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، منشورات مكتبة الحياة بيروت ابن ابي اصيبعة

تاريخ الحكماء . ليبزغ ١٩٠٣ م . ابن القفطي

انتقال علوم الاغريق الى العرب – ترجمة متي بيثون ويحيى الثعالبي . اوليري
مطبعة الرابطة – بغداد ١٩٥٨ م .

اسئلة

١ – ما سبب اهتمام العرب بالترجمة ؟

٢ – ما عوامل ازدهار حركة الترجمة ؟

٣ – اذكر اساليب المترجمين في الترجمة ؟

٤ – ما أهمية الترجمة في تاريخ الثقافة العربية ؟

الفصل الثاني الفلسفة

معنى الفلسفة :

الفلسفة كلمة تعني في أصلها اليوناني حب الحكمة . وموضوعها البحث في الكون وفي طبيعة الانسان ومركزه في العالم وسلوكه الاخلاقي . واداة الفلسفة للوصول الى المعرفة هي العقل وما اكتشفه من قوانين المنطق واساليب الجدل والبرهان والاستقراء والاستنتاج .

حاول الانسان فهم نفسه ، وادراك حقيقة الكون المحيط به ، منذ أن نشأ الوعي عنده . ولكن وسائل الانسان لفهم القوانين التي تتحكم بالناس والطبيعة كانت محدودة ، ولم تتطور إلا بدرجات بطيئة ، ولهذا السبب كانت معارف الناس القدامى مزيجاً من الحقائق المستمدة من الواقع الملموس ، ومن الخيالات والخرافات والرموز والسحر . وقد نشأت بدايات التفكير الفلسفي والعلمي في العراق ومصر والهند والصين . ومن العراق ومصر انتقل التراث الفكري الى اليونان ، حيث بدأت الفلسفة تزدهر منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وحاولت أن تقدم تفسيراً متناسقاً للكون والانسان ، واستعملت مختلف الطرق الموصلة الى المعرفة . وأهم خصائص الفلسفة اليونانية الايمان بقوة العقل الانساني .

اهتم العرب والمسلمون بالفلسفة اليونانية فترجموا كتبها وآراءها الى اللغة العربية ، وعكفوا على دراستها ، وشرحها وتفسيرها ، وتوضيح غوامضها ، واختصار مطولها . لكنهم لم يكونوا مجرد مترجمين وناقلين يرددون ما قاله فلاسفة اليونان ، وانما انتجوا فكراً فسلفياً خاصاً بهم ،واضافوا الى الفكر الانساني اضافات اصلية . وقد تعددت جوانب الفكر الفلسفي العربي الاسلامي وأهمها : الفلسفة بمعناها الخاص ، وعلم الكلام ، والتصوف والأخلاق . وهذه الفروع تعني جميعاً بالوجود ، والمعرفة والدين ، والأخلاق ، والتربية .

بحث الفلاسفة العرب والمسلمون في موضوعات الفلسفة المختلفة . فكتبوا في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) ، والمعرفة ، والاخلاق ، والنفس ، وغير ذلك من الموضوعات الفلسفية . وكان معظمهم من المشتغلين بالعلوم الطبيعية والرياضية والقضايا الدينية نظراً لما كان للدين من مكانة في حياة العرب والمسلمون وتفكيرهم . وقد انصبّت معظم جهود العرب والمحلمين على محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين .

ولا يظهر ابداع الفلاسفة العرب والمسلمين بالنتائج التي توصلوا اليها فسحب ، وانما في اسلوب عرضها والمجادلة فيها . ولا يستطيع الطالب أن يستشف أسلوب أولئك الفلاسفة في البحث والتحليل الا اذا قرأ شيئاً من كتبهم حيث يشرح كل واحد منهم فلسفته ويوضح رأيه .

أشهر الفلاسفة العرب المسلمين :

١ – الكندي

أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (سنة ٢٥٧ هـ – ٨٧٠ م) فيلسوف العرب ، ومؤسس الفلسفة العربية الاسلامية . ولد في الكوفة من أسرة عربية شريفة تنتمي الى قبيلة كندة ، ودرس في البصرة وبغداد ، وكان على صلة وثيقة بالمأمون والمعتصم والمتوكل . وقد ألف في مختلف أبواب المعرفة ، فكتب في الفلسفة ، والحساب ، والهندسة ، والفلك والتنجيم و الموسيقى ، والطب ، والعلوم الطبيعية وتزيد الكتب والرسائل التي ألفها عن ٣٦٠ كتاباً ورسالة . وقد طبع عدد من رسائله الفلسفية في جزئين بعنوان (رسائل الكندي الفلسفية) كما طبعت عدة كتب ورسائل أخرى له بأجزاء مستقلة .

٢ – [illegible]

ولد الفارابي في فاراب في اواسط آسيا . ودرس الفلسفة في بغداد ، ورحل الى حلب وعاش متزهداً في كنف سيف الدولة الحمداني ، ومات في دمشق سنة ٣٣٩ هـ – ٩٥٠ م . لقد سمي ارسطو المعلم الأول لأنه جمع ما تفرق من بمباحث المنطق ومسائله وهذبها . وسمي الفارابي بالمعلم الثاني لأنه جمع الفلسفة اليونانية ورتبها وشرحها . ولكن اسلوبه

كان غامضاً وعباراته غير واضحة . ومن أشهر كتبه " آراء أهل المدينة الفاضلة " الذي شرح فيه نظام المجتمع الانساني الأمثل .

٣-

ولد الشيخ الرئيس ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا سنة ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م وتوفى سنة ٤٢٨ هـ - ١٠٣٦ م . وقد كان نابغة عصره في الطب والفلسفة وألف كتباً عديدة أشهرها " القانون في الطب" و " كتاب الشفاء" وملخصة " النجاة " في الفلسفة وقد أثر ابن سينا في الشرق والغرب تأثيراً عظيماً ، فقد تأثر به فلاسفة المسلمين الذين جاءوا بعده ، وترجمت كتبه الطبية والفلسفية الى اللاتينية فكانت أحد ينابيع المعرفة في اوربا .

٤-

انتقلت كتب فلاسفة المشرق الى المغرب العربي والأندلس فأحدثت فيهما حركة فلسفية كان من أبرز اعلامها أبو الوليد بن رشد المتوفي سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م ، وهو أعظم فلاسفة المسلمين التأخرين وقد ألف كتباً عديدة معظمها تلخيص لمؤلفات ارسطو ، وشروح لها ، وقد نقلت جميعاً إلى اللغة العربية وترجمت منها إلى اللغة اللاتينية ، وأشهر مؤلفات ابن رشد "تهافت التهافت "و " فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال " وهو يوضح العلاقة بين الفلسفة والدين ، ويبين أن الحقيقة واحدة ، وانما تصل اليها الفلسفة والشريعة ، كل بطريقتها الخاصة ، وتعبر عنها باسلوب خاص .

بيّن القرآن الكريم أصول العقيدة الاسلامية ، ودعا الناس إلى الايمان بها ، وجوهر هذه العقيدة الايمان بالله ونبوة محمد (ﷺ) وقد آمن المسلمون الأولون بهذه العقيدة ، وسلموا بها ، ولم يتعرضوا لشرحها وتفصيلها . ولكنهم ما لبثوا ، بعد حروب التحرير والفتوحات، ان تعرضوا لمؤثرات داخلية وخارجية جعلتهم يفكرون في أصول عقيدتهم ، ويدققون في فروعها وجزيئاتها . ونشأت في الاسلام فرق عديدة كانت في بادئ أمرها سياسية ثم أخذت تتناول أصول العقيدة الدينية .

واختلط العرب بالأمم الأخرى فاطلعوا على عقائدها وأديانها . وترجمت الى العربية كتب الفلسفة والمنطق والجدل ، وكل هذه العوامل دعت الى البحث في العقيدة الاسلامية، وتوضيح أسسها وأصولها ، والدفاع عنها بأساليب لم يعرفها العرب من قبل . فقد استخدموا الحجج المنطقية ، والتعابير الفلسفية . ومن الجدل في العقائد ومناقشتها وتوضيحها ، تولد علم الكلام ، وسمي المشتغلون به : المتكلمين : ويرى بعض الباحثين المحدثين أن علم الكلام هو الفلسفة العربية الاسلامية الحقة ، فيه تجلت اصالة العرب المسلمين وفيه ظهر ابداعهم في البحث والتأليف .

أول من وضع أسس علم المعتزلة إمامهم ورئيسهم واصل بن عطاء المتوفى سنة ٣١ هـ ٧٤٧ م . ثم ظهر بعده عدد كبير من نوابغ المتكلمين ، من أشهرهم بشر بن المعتمر المتوفى ببغداد سنة ٢١٠ هـ وابراهيم بن سيار النظام البصري المتوفى سنة ٢٢١ هـ وابو الهذيل العلاف المتوفى حوالي سنة ٢٢٦ هـ والجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ . ويسمى المعتزلة أهل العدل والتوحيد كما يسمون أيضاً بأصحاب حرية الأدارة ويتفق المعتزلة حول أصول منها : التوحيد والعدل ، الوعد والوعيد ويختلفون حول فروع كثيرة .

من جملة ما يتناول علم الأخلاق ، قواعد الأخلاق والسلوك ، ومن الأسس الشرعية أو الفعلية التي تقيم عليها هذه القواعد الخلقية ، ومصدر الاخلاق عند الفلاسفة والمتصوفة المسلمين عموماً هو القران والسنة . والمعرفة والأخلاق ، عند معظم فلاسفة الاسلام متلازمان . فالانسان يحصل على المعرفة بتنقية ما فيه من نفس وعقل حتى يعود إلى أصله العقلي ، وعالمه الروحي . وسبيل حصول الانسان على الفضيلة والأخلاق الحميدة هي سبيل حصوله على المعرفة الحقة ، فالشر ناجم عن انغماس الانسان في الشهوات المتولدة عن المادة . فاذا فطم الانسان نفسه عن الشهوات وصدها عن التعلق بالعالم المادي اعتدلت اخلاقه ، وكملت فضائله ونال سعادته وأصبح انساناً سوياً .

ومن أعظم الذين عنوا ببحث الأخلاق ابو علي احمد بن محمد مسكويه المتوفى سنة ٢٤١ هـ - ١٠٣٠ م . وكان فيلسوفاً ، وطبيباً ، ومؤرخاً ، ومن أشهر كتبه في الأخلاق : " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق " الذي استهدف فيه توضيح معنى السعادة التي هي غاية الانسان ، وبيان وسائل الحصول عليها .

ولقد لخص مسكويه نظرياته الأخلاقية في وصيته التي يوصي بها طالب الحكمة بأن يتحلى بالفضائل الأربع الكبرى وهي : الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة . ثم بالفضائل الصغرى التي تتصل بأخلاق الانسان الشخصية مثل " ايثار الحق على الباطل في الاعتقادات، والصدق على الكذب في الأقوال ، والخير على الشر في الأفعال ، والجهاد الدائم للنفس . ثم يوصيه بالفضائل العملية كحفظ المواعيد ، والتفكير في المسألة قبل ابداء الرأي فيها . والاقدام على فعل كل ما كان صواباً وانفاق العمر في فعل الشئ المفيد لأن العمر قصير وترك الخوف من الموت والفقر بعمل ما ينبغي ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد . وذكر المرض وقت الصحة ، والهم عند السرور ، والرضى عند الغضب ، ليقلّ الطغي والبغي . وقوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله .

العلوم الاجتماعية

يعني علم الاجتماع بدراسة أحوال الجماعات والشعوب في أساليب معاشها وعاداتها وتقاليدها . وهناك معلومات كثيرة في هذا المجال في كتب الرحلات لابن حوقل وابن بطوطة - غير أن ما ذكره هؤلاء من دراسات اجتماعية لم يتعرض لبحث تطور الجماعات ونشوء الدول وعوامل قوتها ونضجها وبالتالي عوامل ضعفها واضمحلالها حتى كان العلامة ابن خلدون الذي وضع مقدمته الشهيرة وتعرض فيها لأحوال المجتمعات البشرية وبذلك يعد المؤسس الأول لعلم الاجتماع اذ سبقت آراؤه في هذا المجال معظم ما جاء به علماء اوربا حديثاً .

عرض القرآن الكريم أخبار الأمم القديمة وأحوالها ولكن بشكل مقتضب وقد دفع ذلك العرب الى التساؤل والبحث عن المزيد من هذه الأخبار . . وعندما بدأت حروب التحرير اطلع العرب على أحوال الأمم الأخرى وسمعوا الكثير عن أخبارها السابقة فأخذوا يتناقلون تلك الأخبار ويكتبونها وقد سمي بـ (علم اخبار الماضين) وقد اتبع مؤرخو العرب طريقتين في تدوين التاريخ . . الأولى طريقة تدوين الحوادث بحسب تتابع السنين والثانية طريقة تقوم على اعتبار المكان فيضعون الحوادث التاريخية تبعاً للأماكن والدول . ومن أشهر الكتب التاريخية سيرة ابن هشام في السيرة النبوية وطبقات الصحابة للواقدي (من كتب الطبقات) وفتوح البلدان للبلاذري (من كتب المغازي والفتوح) وتاريخ دمشق لابن عساكر (من تواريخ البلدان) ووفيات الأعيان لابن خلكان (من كتب التراجم) وتاريخ الأمم والملوك للطبري (من التواريخ العامة) والعرب أول من فلسف التاريخ وبحث في أسباب الحوادث ونتائجها قبل الأوربيين بقرون عديدة وتعتبر مقدمة ابن خلدون أول محاولة علمية لتفسير التاريخ تفسيراً فلسفياً فيه الكثير من الدروس والعبر والمواعظ وربط الأسباب بمسبباتها .

بعد حروب التحرير الاسلامية اطلع العرب على أحوال البلاد الأخرى الجغرافية ولم يكتفوا بترجمة الكتب الجغرافية اليونانية بل درسوها وزادوا عليها وقاموا بتجارب عديدة منها قياس محيط الأرض .. ومما ساعد على تقدم علم الجغرافية عند العرب اضافة لحروب التحرير تدوين الأدب والتاريخ والرحلات والترجمة ومن أشهر الجغرافيين ابن حوقل والشريف الأدريسي الذي صنع كرة مجسمة من الفضة للأرض .. والمقدسي الذي زين كتابه (أحسن التقاسيم) بخريطة مثل فيها الاقاليم وحددها .

اللغة أول ما عني به العرب لأنها لغة القرآن الكريم والدواوين والكلام إلا أن حروب التحرير العربية الاسلامية أدت الى الامتزاج والتعامل مع أقوام أجنبية فكان أن تطرق الخلل الى لسان العرب وسليقتهم اللغوية وحرصاً على بقاء اللغة العربية سليمة ظهر عدد من علماء اللغة ولضبط قواعدها ومنهم الخليل بن احمد الفراهيدي الذي حصر أوزان الشعر والذي اهتم أيضاً بترتيب الكلمات جميعاً على أساس الحروف الهجائية وعبد القاد الجرجاني الذي بحث في البلاغة .

مصادر ومراجع الفصل الثاني

دورس في تاريخ الفلسفة – القاهرة ١٩٤٤ م   ابراهيم مدكور ويوسف كرم

تاريخ الفلسفة في الاسلام ، القاهرة ١٩٣٨ م   دي بور – ترجمة عبد الهادي ابو ريدة

اعلام الفلسفة العربية ، بيروت ١٩٥٧ م   كمال اليازجي وانطوان كرم

تاريخ الفلسفة العربية ، بيروت ١٩٥٧ م   حنا الفخوري وخليل الجر

الفلسفة الاسلامية ومركزها في التفكير الانساني ، بيروت ١٩٥٨ م   ريتشارد فالتزر – ترجمة محمد توفيق حسين

الموسوعة الفلسفية المختصرة ، القاهرة ١٩٦٣ م   فؤاد فامل وزملاؤه من المترجمين

أسئلة

١ – عرف معنى الفلسفة .

٢ – كيف انتقلت الفلسفة اليونانية إلى العرب ؟

٣ – ما هي أقسام الفلسفة الاسلامية ؟

٤ – ما هي أهم خصائص الفلسفة الاسلامية ؟

٥ – اشرح فلسفة مسكويه في الأخلاق .

٦ – اشرح أهمية الكندي ومكانته في الفلسفة الاسلامية .

نشاط

يشترك الطلبة في اصدار نشرة جدارية خاصة بانجازات العرب المسلمين في الميادين العلمية التالية :

اللغة – الترجمة – الفلسفة – التاريخ – الجغرافية – الاجتماع – الأخلاق .

الباب العاشر العلوم العقلية

الفصل الأول الطب

الطب العربي قبل الاسلام :

عرف العرب التطبيق قبل الاسلام . وكان طبهم مستمداً من تجاربهم ومن أخبار قدمائهم . وكانوا يعالجون بالرقى والسحر وتلاوة العزائم لأصنامهم وتقديم القرابين لها . وكانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة ومعظمها من أعشاب البادية وبالأشربة وخصوصاً العسل الذي كان العلاج المعتمد عندهم في أمراض البطن ، وكانوا يعالجون بالجراحة والحجامة والفصد والقطع والكي بالنار ، وكانوا يمنعون المريض عن الطعام لاعتقادهم أن معظم الأمراض يسببها فساد الطعام في المعدة ، من ذلك قولهم : المعدة بيت الداء وعلاجها بالحمية . واشتهر بصناعة الطب كثيرون من العرب ومن أشهرهم الحارث بن كلدة المتوفى سنة ١٣ هـ.

وكان للعرب معرفة حسنة بشؤون الخيل والابل وأحوالها وأمراضها ، ويسمون هذه المهنة " البيطرة " . وكان في عصر قبل الاسلام بياطرة جوالون يعالجون الخيل والجمال وسائر الحيوانات الأهلة . وقد اشتملت اللغة العربية قبل الاسلام على عدد كبير من أسماء العلل والأمراض والعقاقير ، وهذا دليل على تقدم معارف العرب في الطب والتشريح .

ضمت الدولة العربية أقاليم متعددة كانت في بعضها عدة مراكز طبية وأطباء مشهورين أهمها مدرسة الأحواز التي اشتهرت بالطب واستمرت في ازدهارها لرعاية الدولة العربية للطب والأطباء .

استوعب العرب التراث الطبي القديم ، وتمثلوه وبدأوا يؤلفون الكتب معتمدين على



صور لمخطوطات تبحث في الطب عند العرب .

المصارد القديمة وعلى تجاربهم ومشاهداتهم الخاصة ، واشهر الكتب المؤلفة في الطب العربي " فردوس الحكمة " لعلي بن ربن الطبري المتوفى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م . وهذا الكتاب موسوعة ثقافية عامة تبحث في الفلسفة ، وعلم الحيوان ، وعلم الاجنة ، وعلم النفس ، وعلم الفلك ، وعلم المعادن . ولكن التركيز في الكتاب هو على العلوم الطبية . والكتاب حسن التنظيم فهو مقسم الى سبعة أنواع ، في ثلاثين مقالة ، في ٣٦٠ باباً . ويذكر المؤلف المصادر التي أخذ عنها وهي : كتب ابقراط وارسطو ، وجالينوس ، ويوحنا بن ماسوية ، وحنين بن اسحاق .

وهو ابو بكر محمد بن زكريا الرازي نشأ في بغداد فاشتغل فيها بالطب والتأليف ، وكان رئس المستشفى العضدي . وكان فيلسوفاً ، وطبيباً ، وعالماً متعدد جوانب المعرفة ، فقد درس الكيمياء دراسة تجريبية ، وألف ما يزيد على مئتي كتاب ورسالة في الطب والفلسفة والرياضيات والكيمياء والعلوم الطبيعية . ولا يستغرب هذا منه فقد كان عظيم المحبة للمعرفة مشغوفاً بالاطلاع .

والرازي هو أول من كتب عن الجدري والحصبة كتابة علمية دقيقة . وله في ذلك رسالة مشهورة ترجمت الى اللاتينية وطبعت في البندقية سنة ١٥٦٥ م . ويقول عنها نيوبوكر : " ان هذا الكتاب يعتبر لدى الجميع مفخرة من مفاخر التراث العربي وزينته .. ان هذا الكتاب ذو أهمية بالغة في تاريخ علم الأوبئة وأنه أول ما كتب عن الجدري .. ومنه يظهر أن الرازي كان من الممارسين ذوي الضمائر النقية على خطى ابقراط .. "

وللرازي طريقة سليمة في تعليم الطب وفحص المرضى . فكان يأخذ تلاميذه ويمر على المرضى واحداً واحداً في المستشفى . فكان يتقدم أحد التلاميذ لفحص المريض فيسأله عن مرضه فيشخصه . فاذا عجز التلميذ عن ذلك تقدم تلميذ آخر . فاذا عجز جميع التلاميذ عن التشخيص الصحيح تقدم الرازي ففحص المريض ، وشخص المرض ، ووصف العلاج ، وشرح ذلك شرحاً مفصلاً للتلاميذ .

وقد فاق الرازي جميع من تقدموه في ملاحظاته السريرية ، والحقيقة أن أهمية الطب العربي انما تقوم بالدرجة الأولى على المعلومات السريرية التي جاؤا بها . فإن ذلك كان اضافة مهمة الى المعارف البشرية في الطب .

وأهم مؤلفات الرازي في الطب : " الحاوي " أو " الشامل في الطب " ويقع في ثلاثين مجلداً . و " كتاب المنصوري " . ويعتبر كثير من العلماء الرازي ابرع من ابن سينا في الطب . وقد مدحه البيروني وأثنى عليه طبيباً وفيلسوفاً ، وأثنى عليه فيزاليوس مؤسس علم التشريح في القرن السادس عشر واعتبره أعظم ممثلي التقاليد اليونانية في القرون الوسطى في

الشرق أو المغرب . واطلقوا عليه اسم : جالينوس العرب . ويقول عنه براون : " لولا الشهرة التي نالها ابن سينا لكان الرازي بأبحاثه في الطب السريري يستحق المقام الأول في التقدير من بين جميع الأطباء الذين ظهروا في الاسلام خلال عصوره الثلاث عشر " .

ولعل أعظم الأطباء العرب المسلمين هو ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م . ويلقب بالشيخ الرئيس . وأهم مؤلفاته الطبية " القانون " . وله ترجمتان باللغة اللاتينية ، طبعت احداهما في البندقية سنة ١٥٤٤م . وقد أصبح " القانون " أشهر كتاب طبي عند العرب وعند الغربيين في العصور الوسطى . وظل يدرس في الجامعات الأوربية الى القرن السادس عشر . " والقانون " موسوعة طبية كبيرة ، حسنة الترتيب والتنظيم . وهو مقسم الى خمسة كتب . يبحث الكتاب الأول في المبادئ العامة . والثاني في العقاير البسيطة مرتبة بحسب الحروف الهجائية . ويبحث الثالث في أمراض أعضاء الجسم من الرأس إلى القدم . والرابع في الأمراض التي تظهر موضعياً إلا أنها تنتشر الى الانحاء الأخرى مثل الحميات . ويبحث هذا الجزء أيضاً في تقدمه المعرفة ، أي الانذار، والأورام ، والقروح ، والعقاقير ، وكان ابن سينا طبيباً ماهراً في العلاج . وقد اكتشف عدداً من الأمراض ، وابتكر كثيراً من الأدوية الناجحة . وهو أول من وصف التهاب السحايا وصفاً صحيحاً . ووصف الأمراض التي تسبب اليرقان . وفرق بين مرض ذات الجنب وألم الأعصاب بين الأضلاع . ووصف السكتة الدماغية .

من أطباء العرب المشهورين في المغرب العربي هو ابو القاسم خلف الزهراوي ، وكان جراحاً عظيماً . وله في الطب مولف كبير هو " التصريف لمن عجز عن التأليف " ويقع في ثلاثين جزءاً . وهو مقسم الى ثلاثة أقسام : يبحث الأول في الطب ، والثاني في الأدوية ، والثالث في الجراحة ، وقد ظل الجزء الخاص بالجراحة مرجعاً لجراحي الغرب زمناً طويلاً . وقد بحث فيه عن الجراحة من الناحيتين النظرية والعملية . وهو يبحث في العلاج بالكي ، وفي

الجراحة العامة ، مع وصف العمليات الجراحية . ويبحث في علاج كسر العظام وخلعها . ويشرح عمليات الشق والبط وتفتيت الحصاة وعلاج المثانة . ويشرح ما يفسد الجراحات وما يتوقف عليها علاجها . وفي الكتاب ما يزيد على مئتي شكل للآلات الجراحية التي كان يستعملها ، ومعظمها من تقسيمه . وهو لا يكتفي بتصوير هذه الآلات الجراحية انما يشرحها ، ويحدد طريقة استعمالها .

نبغ في عصور ازدهار الحضارة العربية عشرات من الاطباء والمؤلفين في الطب غير من ذكرنا ، ولا نستطيع أن نذكرهم جميعاً في هذه الخلاصة ، ولكن لا بد من الاشارة الى بعضهم ، وأهمهم : ابن النفيس : الدمشقي (١٢١٠م –١٢٨٨م) وهو أول من اكتشف الدورة الدموية ، وفهم تركيب الرئة وأكد وجود الأوعية الشعرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية .

موفق الدين احمد بن ابي اصيبعة (١٢٠٣م –١٢٧٠ م) وهو ابن كحال شامي ، وكان طبيباً مشهوراً ، ومن انبغ مؤرخي الطب المشهورين . وكتابه "عيون الانباء في طبقات الأطباء " موسوعة تضم نحو من اربعمائة سيرة لأطباء وحكماء يونان وعرب .
وقد اكتشف أطباء العرب كثيراً من الأمراض الداخلية ووصفوا أعراضها . ووضعوا العلاج لها . ومن ذلك مرض الانكلستوما الذي سماه ابن سينا الرهقان . واستخدموا المخدر في العمليات الجراحية والكاويات في الجراحة ، واكتشفوا طرقاً جديدة في معالجة كسر العظام وخلعها وفي اصلاح أقواس الأسنان وغير ذلك . وتنبه أطباء العرب الى أن الوهم ، والاضطرابات النفسية ، والجنون ، هي أمراض عصبية ، فعالجوها على هذا الأساس ، واستعملوا الطرق الانسانية في ذلك وخصصوا اجنحة للأمراض العقلية في المستشفيات .
وتوصل أطباء العرب بالتجربة والقياس المنطقي إلى اثبات العدوى ، وذلك قبل أن تكتشف الجراثيم المسببة للأمراض المعدية بزمن طويل . واستعملوا التبخير لتطهير الأماكن والثياب

الموبوءة .

وقد اهتم أطباء العرب بأمراض العيون . وشرحوا عيون الحيوانات ، وعيرن الانسان أيضاً، واكتسبوا من ذلك خبرة في تكوين العين ، وطبقاتها ، وعضلاتها ، واعصابها ، وحركتها ، ووظائفها ، وألفوا في ذلك الكتب العديدة ، يذكر منها ابن ابي اصيبعة في كتابه عيون " الأنباء في طبقات الأطباء " ما لا يقل عن اثنين وثلاثين كتاباً .

اهتم العرب بالمستشفيات وقد ازدهرت المستشفيات في العصر العباسي ، وانتشرت في معظم البلاد العربية الاسلامية .وكان في كل مدينة كبيرة أكثر من مستشفى . وكانت المستشفيات على أنواع ، منها الخاص بمرض من الأمراض كالأمراض العقلية والجذام ، ومنها العام لجميع الأمراض . وكانت لهم مستشفيات محمولة . أي متنقلة ، وهو مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى من أدوات وأطعمة وأشربة وملابس واطباء وصيادلة . وكان في المستشفيات الكبيرة أقسام خاصة بالنساء . وكان يشرف على المستشفيات أطباء ماهرون يتدرب فيها طلاب الطب ، ويمارسون المهنة تحت اشرافهم . وكان المستشفى مجهزاً، عادة بمكتبة ورواق للتدريس ، فكان مستشفى ومدرسة للطب في آن واحد . وفي رحلة ابن جبير وصف لعدد من هذه المستشفيات في مصر والشام والعراق ، والخلاصة ان المستشفيات العربية كانت أول المؤسسات الطبية في العالم التي يحق لها أن تحمل اسم مستشفى بالمعنى الحديث . وكان العلاج بها مجاناً .

وقد وضعت لتعليم مهنة الطب وممارسته قواعد مهنية واخلاقية ، وكان اصحاب المهنة أنفسهم يراعونها ، وينتقدون ومن يخالفها ويعيبونه ، وكانت السلطة تنفذها عن طريق المحتسب . فكان المحتسب وأعوانه يراقبون الأطباء الكحالين ، أي أطباء العيون ، والجراحين ، والفصادين ، والحجامين ، والمجبرين ، والبياطرة ، والصيادلة ، والعطارين ويحاسبونهم على

مخالفة الأنظمة المقررة والقواعد الخلقية والدينية ، ويعاقبون من يغش منهم . وكان بين حين وآخر يجري امتحان للأطباء يسمح للناجحين فيه ممارسة الطب .

اهتم العرب بالصيدلة ، وتحضير الأدوية ، وأقاموا الرقابة على الصيدليات والصيادلة . فلم يكن الصيدلي يمارس صناعته إلا بعد الترخيص له ، وقد استنبط الصيادلة العرب كثيراً من الأدوية والعقاقير ، وصنعوها من النباتات والأعشاب والمعادن ووصفوا طريقة تحضيرها ، وبينوا خصائصها وكيفية المعالجة بها وتعاطيها . وقد توصل ابن سينا الى تغليف الحبوب التي كان يصنعها للمرضى . وقد خصص معظم المؤلفين في الطب أقساماً من كتبهم الطبية للأدوية المفردة والمركبة وألفوا في ذلك الكتب الكاملة . فقد أفرد ابن سينا جزءاً خاصاً من كتابه " القانون " للمادة الطبية والصيدلة . وذكر ابن البيطار في كتابه " الجامع لمفردات الأدوية والأغذية " مجموعة من الأدوية المستخلصة من النباتات والحيوانات والمعادن . وهو يذكر طبيعة الأدوية وخواصها ومنافعها ومضارها والمقدار الذي يستعمل منها . وقد استوعب في كتابه هذا ما ذكره المؤلفون أو الأطباء العرب ، وما اكتشفه هو بنفسه ، وكذلك فعل داود الانطاكي في كتابه " تذكرة اولى اللالباب والجامع للعجب العجاب " .

اهتم العرب بعلم النبات ، والحقوه بدراسة الطب والصيدلة . فقد كانت معظم العقاقير المستعملة في العلاج مستخلصة من النبات . ولذلك اهتموا بدراسة نباتات كل أرض ، فوصفوا البيئة التي ينمو فيها النبات ، وذكروا تفاصيل دقيقة عنه ، من حيث اصله وساقه وورقه وزهره وثمره . وقد بحث ابن سينا في فصل الأدوية المفردة في القانون من النبات . وكذلك خصص لدراسته قسماً كبيراً من كتابه " الشفاء " .

ومن أشهر المولفين في النبات ضياء الدين بن البيطار الأندلسي المتوفى سنة ١٢٤٨م . وقد درس نباتات شمال افريقيا ومصر والشام ، وذكرها مفصلة في كتابه " الجامع في

مفردات الأدوية والأغذية " و " المغني في الأدوية " والجامع في الأدوية معجم طبي علاجي مرتب على الحروف الهجائية . ويحتوي على وصف أكثر من ١٤٠٠ دواء لا يقل عدد ما اكتشفه منها ابن البيطار بنفسه عن ٣٠٠ دواء .

وم اشتهر بالتأليف في النبات ابو حنيفة الدينوري من القرن الثالث الهجري مؤلف " كتاب النبات " وقد جمع فيه المفردات اللغوية والمتعلقة بالنباتات ، والشواهد الشعرية الواردة فيها ، ووصف النباتات نقلاً عن معارف العرب السالفة ، وما اضافه من مشاهداتها الخاصة .

موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢م -١٢٣٢م) العالم العراقي الذي درس في الأزهر في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وعلم في الجامع الأموي في دمشق، وألف كتابه المشهور " الافادة والاعتبار في الأحوال المشاهدة والأمور والحوادث المعاينة في أرض مصر " وقد عدد في هذا الكتاب نباتات مصر ووصفها وصفاً دقيقاً . وبين المنافع المستفادة منها في التغذية والعلاج .

وقد جمع ابو جعفر احمد بن محمد الطبيب الغافقي القرطبي المتوفى سنة ١١٦٥ م نباتات اسبانية وافريقية وسمى كلاً منها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية . ووصف هذه النباتات بطريقة يصح أن يقال فيها أنها أوفى وأدق ما في اللغة العربية في هذا الموضوع ، واشتهر مؤلفاته " الأدوية المفردة " .

وفي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي الف ابو زكريا يحيى بن العوام الاشبيلي رسالة في الزراعة " كتاب الفلاحة " وهي أهم ما صنفه المسلمون في الزراعة بل هي أهم مؤلفات العصور الوسطى في الموضوع . وقد اعتمد في هذه الرسالة على الكتب المؤلفة في الموضوع

وعلى اختبارات المزارعين المسلمين في اسبانية . وتناول فيه نحو خمسمائة وثمانين نوعاً من النباتات وشرح الطرق الزراعية لما يزيد عن خمسين نوعاً من الأشجار المثمرة . وفيه ملاحظات مبتكرة في موضوع خصائص النباتات وطرق معالجتها .

وكتب النباتات العربية ، وان وضعت في الأصل لخدمة الأغراض اللغوية والطبية فهي لم تخل من اهتمام النبات لذاته ، من وصف للبيئة والتربة وطرق الزراعة ووسائل الري ، وغير ذلك من والمواضيع المفيدة نظرياً وعملياً .

واهتم العرب بدراسة الحيوان ، فألف الجاحظ فيه كتابه المشهور " الحيوان " ويقع في سبعة مجلدات . وقد قسم الحيوانات الى أنواع وأصناف . ووصف شكل كل حيوان ، وأعضائه وصوته ، وغذائه ، ومنافعه . وذكر ما ورد فيه من شعر وأخبار . وقد سجل الجاحظ ملاحظات دقيقة في سلوك الحيوان استمدها من قراءته ومشاهداته الخاصة ، وتجاربه. وكان يشرح بعض الحيوانات ليعرض خصائص اعضائها الداخلية .

ومن المؤلفين في الحيوان الدميري مؤلف كتاب " حياة الحيوان " وقد رتب اسماء الحيوانات حسب الحروف الهجائية . وهو يصف هيئة الحيوان ، وطباعه ويورد ما جاء فيه من أخبار واشعار . وذكر ابن سِيدَه في " المخصص" حيوانات شبه الجزيرة العربية ، ووصف أعضائها وسلوكها وعاداتها وصفاً دقيقاً .

ولم تخل كتب النباتيين والعشابين من وصف لأنواع الحيوان . وقد درس ابن سينا في كتابه " الشفاء " أنواعاً من الحيوان والطيور . وهو يصف العظام والغضاريف والشرايين والاوردة والأغشية والرباطات والحركة الارادية والطبيعية والأجهزة العضلية والهضمية والتناسلية والتنفسية . ولا شك أن ابن سينا قد مارس التشريح فهو يذكر تفاصيل لا تكاد تعرف في الوقت الحاضر إلا باستعمال العدسات والمجاهر .

والخلاصة أن العرب أقاموا معارفهم الطبية على أساس تجاربهم الخاصة وما أفادوه من الأمم الأخرى . وقد اضافوا معلومات كثيرة وصحيحة عن عدد كبير من الأمراض ، واكتشفوا

كثيراً من الأدوية والعقاقير . ودرسوا أثر المناخ والنظافة والغذاء .

والواقع أن لدراسة الطب العربي القديم فوائد كثيرة في مجال مفردات العقاقير ، وقواعد الغذاء وعلم الصحة ، والعلاج ، وتقدم دراسة هذا الطب لطالب الطب الحديث درساً بليغاً في آداب هذه المهنة ، وشروط ممارستها ، والقيم الانسانية العليا التي يجب أن يتحلى بها . ودراسة الطب العربي القديم مهمة لتفهم الأسس التي قام عليها الطب الحديث والعوامل التي ساعدت على تطوره .

وقد أجاد الأطباء العرب في كل ما يتعلق بخبرتهم وممارستهم الطبية وخاصة في تدوين المشاهدات الدقيقة ، والتعرف على علامات المرض ، وكان لكبار أطباء العرب حب لتقدمة المعرفة حيث كانوا يرتبون العلامات الرديئة والجيدة لسير المرض والعلاج ، ويجعل الرازي لضعف القوة شأناً كبيراً في ذلك . ومن أقواله الصائبة أن قدر العلامة يختلف حسب موقعها من تاريخ بدء المرض . وكان للعرب انجازات رائعة في الطب السريري (تشخيص الأمراض) ، وفي المستشفيات التي كانت مستشفيات لمعالجة المرضى وجامعات لتعليم الأطباء وتدريبهم . وقد ألف أطباء العرب في الطب والصيدلة والنبات والحيوان المؤلفات العديدة التي نقل معظمها الى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى . وقد أخذ الاوربيون هذا التراث الطبي العربي فكفوا على دراسته في جامعاتهم ومدارسهم ، وتعلموا منه ، فكان أحد دوافع نهضتهم الحديثة ، وأحد ينابيعها الأساسية .

مصادر ومراجع الفصل الأول

١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن ابي اصيبعة

٢- الطب العربي تأليف ادورد براون وترجمة الدكتور داود سلمان علي . بغداد ١٩٦٤ م .

اسئلة

١ - ما هي مصادر الطب العربي ؟

٢ - اشرح ما ساهم به أطباء العرب في تقدم الطب العالمي .

٣ - ما هي المثل العليا التي وضعها المسلمون لمهنة الطب ؟

٤ - ما هي أهم مميزات المستشفيات العربية ؟

٥ - ما هي المؤلفات في علم النبات ؟

٦ - ما هي الفوائد من دراسة التراث الطبي العربي ؟

الحساب

اهتم العرب بالرياضيات ، وبحثوا في جميع فروعها المعروفة في عهدهم ، واضافوا اليها اضافات هامة مهدت لتقدم الرياضيات في العصر الحديث . واهتم العرب بالحساب أول ما اهتموا به الرياضيات . ولم تقم جهودهم الأساسية فيه على الاختراع والابتكار وانماعلى الاكتشاف والتطبيق . فقد أخذوا من الهنود الأرقام والصفر والمراتب العددية والكسور العشرية . ولكن اشكال الأرقام الهندية لم تكن موحدة فوحدها العرب ، وبدأوا في استعمال الصفر قبل أن يتقدم الهنود في استعماله شوطاً كبيراً .

الأرقام

كان اليونانيون والعرب القدماء يستعملون حساب الجمل فقد كانوا يستخدمون تسعة حروف أبجدية للدلالة على الأرقام من ١–٩ ، ثم تسعة حروف اخرى للدلالة على الأرقام من ١٠–٩٠ ثم تسعة حروف اخرى للدلالة على المئات ١٠٠–٩٠٠ ، وهذا اسلوب عقيم في الحساب ، يصعب فيه حل عمليات الضرب والقسمة ، وكان الهنود يستعملون الأرقام ويعرفون الصفر والمراتب العددية والكسور العشرية . ولكن اشكال الحروف الهندية لم تكن موحدة فوحدها العرب ، واستعملوها ، ومنهم انتقلت الى الأمم الأخرى . وقد اختار العرب من اشكال الأرقام الهندية سلسلتين عرفت احداهما بالأرقام الهندية : (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .. الخ) وهي الأرقام المستعملة في اغلب البلاد العربية . وعرفت السلسلة الثانية بالأرقام الغبارية (1 . 2 . 3 .4) وهي الأرقام المستعملة في تونس والجزائر والمغرب . وكانت مستعملة في الأندلس ومنها انتقلت الى اوربا . وسبب تسميتها بالحروف الغبارية ان الهنود كانوا ينثرون غباراً على لوح من الخشب ويرسمون عليه الأرقام . ولا تزال هذه الأرقام تسمى في اللغات الاوربية باسم " الارقام العربية " .

وقد طورت هذه الاكتشافات علم الحساب العددي ، وبسطت استعماله ، وذلك أنها أدت الى استعمال النظام العشري ، أي نظام المراتب العددية ، أي استعمال عشرة اعداد فقط في مراتب عددية لا تحصى : كالآحاد والعشرات والمئات والألوف الخ .. وباستعمال الأرقام والصفر هي من الأعمال الحسابية المركبة ، وامكن حل المعادلات الطويلة ، واصبح من الممكن تحديد مراتب الأعداد بعضها من بعض . والمرتبعة ، أو المنزلة أو الخانة ، هي مقام الأرقام في العدد نحو ٥٩٠ ، ٩٠٥ ، ٥٠٩ .

والصفر لس عدماً كما يفهم بعض الناس خطأ ، وانما هو كمية ما يطرأ من وجودها داخل العدد فيحدث تبدلاً أساسياً في قيم الأرقام . والكسور العشرية ذات علاقة بمراتب الاعداد هي أساس الكسر العشري فلنأخذ العدد (٥٥٥٥٥) مثلاً . فالمفروض أنه كلما انتقل الرقم ٥ من مرتبة الى المرتبة التي تليها يساراً زادت كميته بمقدار عشرة أضعاف ، أي ضرب بعشرة . واذا انتقل الرقم من مرتبته الى المرتبة التي تليها يميناً نقصت كميته بمقدار عشرة أضعافه ، أي قسم على عشرة .

واذا بلغت آخر المراتب العشرية يميناً ، وهي مرتبة الآحاد ، وحركنا الرقم الى اليمين مرتبة اخرى قسمناه على عشرة ، أي جزأناه ، فيقال للجزء كسر . وقد عرف العرب نظام الكسور العشرية ، واستعملوها ومن المحتمل انهم استعملوا الفاصلة للتمييز بينها وبين الأرقام الصحيحة . ويعود الفضل في تحسين الأرقام الهندية ، وتوحيد اشكالها ، ووضعها موضع التطبيق إلى عدد من العلماء العرب منهم الرياضي العظيم محمد بن موسى الخوارزمي وسنتكلم عنه بعد قليل . يقول العالم البريطاني جي . دي. برنال في كتابه : " العلم في التاريخ " .

" كان لاستخدام الأرقام العربية أثر يكاد يعادل أثر اكتشاف الحروف الهجائية على الكتابة .

فقد كان الحساب قبل ذلك لغزاً لا يفهمه إلا الراسخون في العلم اذا استثنينا العمليات التي كانت تجري بالعد على اصابع اليد أو بالعداد ، (وهي الآلة الحاسبة البسيطة المعدة لتعليم الأطفال العدد) . وبعد انتشار الأرقام العربية أصبحت العمليات الحسابية في متناول أي محاسب في أي مخزن بسيط . وبهذا جعل العرب الحساب ديمقراطياً ، أي أنهم جعلوه في متناول أبناء الشعب عامة " .

أول المؤلفين العرب في هذا العلم ، واعظمهم شهرة ، محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة ٨٤٦ أو ٨٤٧ م . عاش في زمن الخليفة المأمون فأقامه على القسم العلمي في بيت الحكمة ، حيث انقطع الى المطالعة والتأليف ، زاهداً في الدنيا إلى آخر حياته . والمشهور من كتبه اثنان " الحساب الهندي " وقد وضعه سنة ٨٢٥ م و " كتاب الجبر والمقابلة " وقد وضعه حوالي سنة ٨٣٠ م . وقد نال كتاب الجبر والمقابلة شهرة عظيمة في الشرق والغرب ، وبقي الى القرن السادس عشر الكتاب المعتمد في هذا العلم ، له منزلة أصول اقليدس عند المهندسين وكتب بطليموس عند علماء الفلك . ويدل على قيمته عند العرب كثرة شروحه ومكانة شارحه العلمية . وقد ترجم هذا الكتاب وكتاب الخوارزمي الآخر الى اللاتينية واصبح الكتابان أساساً للتأليف الاوربية الأولى في الحساب والجبر . وقد اشتق اسم علم الجبر من عنوان كتاب الخوارزمي . وانتقل الاسم العربي الى سائر اللغات الاوربية .
يظهر الجبر في كتاب الخوارزمي فصلاً من علم الحساب ، أو طريقة في حل بعض المسائل الحسابية . ومع ذلك يظهر علماً مستقلاً ذا شخصية متميزة . وكان الجبر في بدء نشوئه علماً لحل المعادلات من الدرجة الأولى والثانية واستعماله في حل القضايا الحسابية على الخصوص . وقد بقي ضمن هذه الحدود حتى القرن السادس عشر .

معنى الجبر والمقابلة هو ازالة الطرح من المعادلة ، والمقابلة بين الكميات المتشابهة في طرفي المعادلة بأن تلقى الكمية من شبيهتها فلا يبقى منها إلا واحدة في أحد الطرفين . وهاتان العمليتان مع عملية الرد أساسيتان في حل المعادلات . لقد وضع الخوارزمي قواعد علم الحساب ، وبسطها ، وسهل فهمها على عامة أبناء الشعب . وقد فعل مثل ذلك في علم الجبر حتى بلغ هذا العلم نضجه وحاز على طرفه الخاصة فأصبح علماً مستقلاً عن الحساب . وكان هدف الخوارزمي هدفاً اجتماعياً ، فقد كان يريد تسهيل فهم العلميات الحسابية لحل مشاكل الناس اليومية في معاملاتهم في السوق ، وفي المواريث ، وفي الأعمال الهندسية والصناعية . وفي الكتاب باب يدور على الأحجام والمساحات . فقد كان الصناع كالحداد والنجار والزارع والدهان وغيرهم في حاجة إلى المعلومات الهندسية الأولية كمساحة المربع والمثلث والدائرة ، ومعرفة القياسات وما الى ذلك . ومما يلفت النظر في الكتاب وجود عمليتين هندسيتين محلولتين بواسطة الجبر ، مما يدل على أن الخوارزمي كان عالماً في الهندسة والجبر . ولعل الخوارزمي هو أول عالم في التاريخ فطن إلى هذا التطبيق .

قسم العرب المعادلات إلى ستة أقسام : ووضعوا حلولاً لكل منها . وحلوا المعادلات الحرفية . واستخدمو الجذور الموجبة . وعرفوا أن المعادلات ذات الدرجة الثانية لها جذران . واستخرجوا جذري المعادلة اذا كانا موجبين . وحلوا كثيراً من معادلات الدرجة الثانية بطرق هندسية . وحلوا معادلات الدرجة الثالثة . حل ثابت بن قرة معادلات من الدرجة الثالثة بطرق هندسية مشابهة لطرق علماء اوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فسبقوا بذلك ديكارت وبيكر وغيرهما في هذه البحوث . وحلو أوضاعاً للمعادلات ذات الدرجة الرابعة . واكتشفوا النظرية القائلة بأن " مجموع مكعبين لا يكون مكعباً " . يقول كاجوري: " ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب " .

جمع العرب بين هندسة الجبر ، فقد استخدموا الجبر في بعض الأعمال الهندسية ، كما استخدموا الهندسة في حل بعض الأعمال الجبرية . فهم بذلك واضعوا أساس الهندسة التحليلية .

وقد مهد العرب في أبحاثهم لظهور علم التكامل والتفاضل وهو ما يسمى بالانكليزية (كالكولاس) واشتغلوا في براهين النظريات المختصة بايجاد مجموعة مربعات ومكعبات الأعداد الطبيعية التي عددها (ن) كما أوجدوا قانوناً لايجاد مجموعة الأعداد الطبيعية المرفع كل منها الى القوة الرابعة ، وعنوا بالجذور الصماء . ووجدوا طرقاً للحصول على القيم التقريبية للأعداد والكميات التي لا يمكن استخراج جذورها ، واستعملوا في ذلك طرقاً جبرية تدل على قوة الفكر واطلاع تام على علم الجبر . وقد مهّد بعض العلماء العرب ، كأبي حمزة المغربي ، لاكتشاف اللوغارتمات قبل العالم الرياضي نابيير . وكانت أبحاث هذا العالم العربي هي الأساس والخطوة الأولى في وضع أصول اللوغارتمات .

وألف العرب كتباً كثيرة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية واستخراج المسائل الحسابية بالتحليل الهندسي والتغيير العددي . وألفوا الكتب في تقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ورسم المضلعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية ، وفي محيط الدائرة وغير ذلك مما يتعلق بالموضوعات التي تحتاج فيها الى استعمال الهندسة .

يعتبره كثير من العلماء علماً عربياً ، فإلى العرب يرجع الفضل الأكبر في وضع المثلثات بشكل علمي منظم مستقل عن علم الفلك . وقد أضاف العرب الى هذا العلم اضافات هامة . فقد استعملوا (الجيب) بدلاً من وتر ضعف القوس الذي كان يستعمله اليونان . ولهذا أهمية كبيرة في تسهيل حل الأعمال الرياضية . والعرب أول من أدخل المماس في

عداد النسب المثلثية . وبرهنوا على أن نسب جيوب الأضلاع بعضها الى بعض كنسبة جيوب الزوايا الموترة بتلك الأضلاع بعضها الى بعض في أي مثل كروي . واستعملوا المماسات والقواطع ونظائرها في قياس الزوايا والمثلثات . وعملوا الجداول الرياضية للجيب . واكتشفوا العلاقة الرياضية بين الجيب والمماس والقاطع ونظائرها . وقد اطلع بعض علماء الغرب في القرن الخامس عشر على كتب العرب في المثلثات ونقلوها الى لغاتهم .



معارف العرب الفلكية قبل الاسلام :

كان أهل البادية من أحوج الناس الى معرفة الكواكب الثابتة الكبرى ومواقع طلوعها وغروبها ليهتدوا بها في متهات الصحراء .كما تدل على ذلك الآية الكريمة ، قال تعالى :

(١)

وكانت معرفة العرب بالنجوم مستمدة من ملاحظاتهم المستمرة لها ، وقد ميز العرب الكواكب الخمسة المتغيرة من النجوم الثابتة وسموها بأسماء مخصوصة : الزهرة ، عطارد ، زحل ، المشتري والمريخ . وقد عرفوا أكثر من مئتين وخمسين من الكواكب الثابتة وسمّوها بأسماء مخصوصة مثل : الفرقدين والدبران والعيوق والثريا .

وقد ازدهر علم الفلك بعد ظهور الاسلام ازدهاراً عظيماً ، وخاصة في عهد الدولة العباسية . ومن ذلك أن بعض مسائل الفلك مما يطالب بمعرفتها المسلم كأوقات الصلاة ، وتعيين القبلة للصلاة وتعيين هلال شهر رمضان وغيره من الأشهر . وكان الناس يعتقدون بأن للنجوم تأثيراً في حياة الانسان وفي ظواهر الطبيعة . ولهذا اهتموا بمعرفة طلوع النجوم وغروبها ، وحركاتها وأحكامها واقترانها . ومعرفة هذه الأمور تسمى بعلم التنجيم .

وقد ترجم أول كتاب في الفلك والنجوم في أواخر الدولة الأموية . ولكن أول من اعتنى بالفلك من الخلفاء هو ابو جعفر المنصور . فقد قرب المنجمين . وشجع المترجمين والفلكيين، وأغدق عليهم الهبات . وقد كلف المنصور سنة ١٥٦ هـ محمد بن ابراهيم

(١) سورة الأنعام / ٩٧

الفزاري بنقل كتاب في حساب السندهنتا الى العربية . وقد ترجمه الفزاري من الهندسية وأصبح يعرف بكتاب سند هند . وظل معمولاً به ألى أيام المأمون . وقد اختصره الخوازمي. وسار الخلفاء العباسيون على نهج المنصور في تشجيع العلماء والفلكيين والمترجمين ، فترجموا ما عثروا عليه من كتب الأمم السابقة وصحّحوا كثيراً من أغلاطها ، واضافوا اليها معلومات جديدة .

وقد اشتهر بالفلك عدد كبير من العلماء ، ألفوا فيه كتاب ، وعملوا أرصاداً مهمة أدت الى تقدم علم الفلك ، ومن أشهرهم ثابت بن قرة والبتاني والكندي والبيروني وابن الهيثم.

نقل العرب المؤلفات الفلكية للأمم السابقة ، وصححوا بعضها ونقحوا بعضها وزادوا عليها معلومات جديدة . ولكن أهم ما قدموه لعلم الفلك هو الأرصاد التي قاموا بها . فلم يقفوا عند حد النظريات بل أجروا العمليات والرصد . وهم أول من أوجد بطريقة علمية درجة من خط نصف النهار. وأول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة . وقالوا بكروية الأرض وبدورانها على محورها ، وكانت حساباتهم دقيقة تقرب من الحسابات الحديثة على الرغم من قلة آلاتهم وبساطتها بالقياس الى الآلات المستعملة في الرصد الآن ، ورصد علماء العرب الاعتدالين الربيعي والخريفي ووضعوا جداول دقيقة لبعض النجوم الثوابت وهي مستعملة بلفظها العربي في اللغات الاوربية الآن .

ولم يصل العرب إلى ما وصلوا اليه من التقدم في علم الفلك الا بفضل المراصد . وقد ازدهرت المراصد في العصر العباسي ازدهاراً عظيماً ، واستعملت فيها مختلف آلات الرصد المعروفة يومئذ . والثابت أن الخليفة المأمون أول من أشار إلى استعمال الآلات ، وقد قام ببناء مرصدين الأول على جبل قاسيون في دمشق والثاني في الشماسية في بغداد ، وأنشأ الفاطميون مرصداً على جبل المقطم عرف باسم المرصد الحاكمي .

وكان في البلاد الاسلامية مراصد أخرى كمرصد البتاني في الشام ومرصد البيروني في

خوارزم .

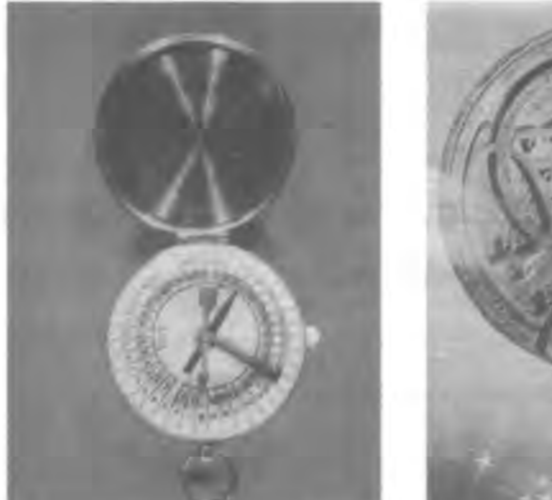
واستعمل العلماء العرب أنواعاً من آلات الرصد تختلف بحسب الغرض أهمها الاسطرلاب بانواعه المتعددة .

يقول العالم برنال : " اذا لم يكن العرب قد أضافوا شيئاً جديداً إلى نظريات علم الفلك فهم تابعوا أرصاد الأقدمين وأبقوا حركة الرصد مستمرة دون انقطاع . ولو أنه قد حدثت فترة انقطاع في حركة الرصد لما وجد علماء الفلك في عهد النهضة الأوربية تسعمائة سنة من الأرصاد الفلكية تحت تصرفهم ، ولتأخر ظهور الاكتشافات الأساسية الحاسمة التي قام عليها العلم الحديث ، أو لما تمت على الاطلاق " .

البوصلة



الاسطرلاب



نماذج من الاسطرلاب والبوصلة .

مصادر ومراجع الفصلين الثاني والثالث

١- علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى : كراونلينو

٢- احياء الجبر ، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٥٥م : عادل انبوبا

٣- العلوم عند العرب : قدري حافظ طوقان

٤- عبقرية العرب في العلم والفلسفة : محمد فروخ

٥- مفاتيح العلوم : محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي

٦- " العلم في التاريخ " بالانكليزية : جي. دي. برنال

أسئلة

١ _ اشرح معنى حساب الجمّل وبين الصعوبة في استعماله .

٢ _ بيّن أثر توحيد العرب للأرقام الهندية على تقدم الرياضيات .

٣ _ هل استخدم العرب العلوم الرياضية في الحياة الاجتماعية ؟

٤ _ ما هو أثر الأرصاد الفلكية العربية في تقدم هذا العلم ؟

العرب مؤسسو علم الكيمياء الحديث

الكيمياء علم تحليل المواد وتركيبها : وتشتمل الكيمياء على قواعد نظرية وعلى صناعات عملية . وقد وجدت صناعة الكيمياء العملية عند معظم الأمم القديمة حيث تعاطى صناعها اذابة المعادن وتخليطها ، وصنع الزجاج وصبغ الأقمشة ، وتحضير العطور والزيوت ، وبقيت الكيمياء صناعة تكتسب بالخبرة والدربة ، حتى جاء علماء العرب فوضعوا الأسس العلمية والعملية لعلم الكيمياء الحديث . يقول العالم برنال : " وفي الكيمياء قدم العلماء والمشتغلون بالمعادن وصناع العطور العرب أعظم اضافتهم الى التقدم العام للعلم الانساني . ويرجع بعض السبب في نجاحهم هذا الى تخلصهم من النعرة الطبقية التي أبقت علماء اليونان بعيدين عن العمل اليدوي . وتدل المولفات العربية على أن العلماء العرب كانوا على اطلاع مباشر باستخدام المختبرات ، وتحضير العقاقير ، والأملاح والمعادن الثمينة . ان علم الكيمياء ، وبطرق تحضيرها عملياً ولا تصبح الكيمياء علماً إلا اذا جمعت هذه المواد ، وأخضعت للفهم والتجربة ، وزودت ببعض المبادئ العامة . وهذا ما فعله العرب، وهذا ما يبرر القول بأنهم مؤسسوا علم الكيمياء " .

كان الموضوع الرئيسي في الكيمياء هو تحويل المعادن والمواد الأخرى من نوعها إلى نوع آخر. وكان هدف الكيميائيين القدماء تحويل المعادن الرخيصة كالرصاص والقصدير والنحاس والحديد الى المعدنين النادرين وهما الفضة والذهب ، وقد اعتبر العرب الزئبق والكبريت أساس كل العناصر . وقد بقيت نظريات العرب في الكيمياء أساساً لتطور هذا العلم إلى القرن الثامن عشر .

لقد مّهد العرب الطريق لظهور علم الكيمياء الحديث بما قاموا به من تجارب واختبارات ،

وما اكتشفوه من طرق علمية في التحليل والتركيب . وما اخترعوه من أدوات وأجهزة ، وما اكتشفوه من مواد ضرورية في العمليات الكيميائية المختبرية ، وفي الصناعة عموماً يقول درابر : " ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا . وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس . ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من الآلات ، وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال ، ودعاهم الى استعمال الربع والسطرلاب في علم الهيئة ، واستخدام الموازنة في الكيمياء ، مما خصوا به دون سواهم .. وهم الذي انشأوا في العلوم العملية علم الكيمياء وكشفوا بعض أجزائها المهمة ، كحامض الكبريتيك وحامض الفضة (النتريك) والكحول ، وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعالجات الطبية ، فكانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية " .

جابر بن حيان

لعل أول المشتغلين بالكيمياء من العرب الأمير خالد بن يزيد ، ولكن المؤسس الحقيقي لهذا العلم هو جابر بن حيان ، فهو واضع قواعده ، ومؤلف الكتب العديدة فيه ، وقد سمْى علم الكيمياء أو علم الصناعة باسمه فقيل : علم جابر . وقد عاش جابر بن حيان الكوفي خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي وكان فيلسوفاً وكيميائياً . وقد ترجمت كثير من كتبه الى اللغة اللاتينية ، فأقبل على دراستها علماء أوربا في العصور الوسطى وأهم هذه الكتب " كتاب الخواص الكبير " .

مكتشفات جابر

وقد عرف جابر كثيراً من العمليات الكيميائية ، وحضر كثيراً من المواد الكيميائية وعرف خواصها مثل نترات الفضة. وهو أول من استحضر حامض الكبريتيك بتقطيره من الشب وسماه زيت الزاج . واستحضر حامض النتريك وكشف الصودا الكاوية ، واستحضر

ماء الذهب . وهو أول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض . وينسب إليه استحضار مركبات أخرى مثل كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم ، واستعمل ثاني اوكسيد المنغنيز في صنع الزجاج . ودرس خصائص الزئبق ومركباته . وقد وفق جابر في كثير من العمليات الكيميائية كالتبخير والتقطير ، والتكليس ، والتصعيد ، والتجميد ، والاذابة ، والحل ، والتبلور ، وغيرها من العمليات المهمة في الكيمياء .

منهج جابر العلمي :

كانت طريقة جابر في أبحاثة وتجاربه تقوم علي منهج علمي دقيق ، يشبه المنهج العلمي المتبع اليوم في المعامل والمختبرات . وكان يهتم بالتجربة اهتماماً كبيراً ، ويحث على اجرائها بدقة ، ويدعو الى التأني وترك العجلة . وكان يقول : ان واجب المشتغل بالكيمياء هو العمل واجراء التجربة ، وان المعرفة لا تحصل الا بها . وكان يطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية الا يحاولوا عمل شئ مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب في اجراء كل عملية ، وأن يفهمو التعليمات جيداً .

ويتشدد جابر في منهجه العلمي التجريبي . فهو يقصر نفسه على مشاهداتها التي تويدها التجربة ، اذ قد تكون ظاهرة المشاهدة حدثاً عابراً لا يدل عل اطراد في الطبيعة . وهو يوضح منهجه هذا بقوله : " يجب أن تعلم انا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه – بعد أن امتحناه وجربناه ، فما صح أوردناه وما بطل رفضناه – وما استخرجناه نحن أيضاً وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم " .

ويطلق جابر اسم " التدريب " على ما يسميه العلماء اليوم " التجربة " وهو يجعل اجراء التدريبات شرطاً أساسياً للعالم الحق .

" من كان درباً كان عالماً حقاً ، ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً ، وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق ، وغير الدرب يعطل " . والتجربة الثانية التي أجراها تدل على دقة ملاحظته ، وعلى نهجه العلمي ، وخلاصة قوله : " كان لدي حجر ممغطس (أي

مكتسب قوة المغناطيس) يرفع قطعة من الحديد وزنها مائة درهم ، وحفظته زمناً طويلاً . ثم جربته على قطعة أخرى من الحديد فلم يرفعها . فظننت أن هذه القطعة الثانية من الحديد قد تكون أكبر وزناً من القطعة الأولى . فوزنتها ووجدتها أقل من ثمانين درهماً . فاستنتجت أن قوة الحجر الممغطس قد نقصت على الرغم من ثبات وزنه " . فجابر في هذه القضية لا يكتفي بمجرد الملاحظة والفرض ، وإنما يجري اختباراً ليتأكد من الفرض الذي توصل اليه أول الأمر .

أثر جابر في أوربا

اشتهر جابر بن حيان في اوربا أكثر من اشتهاره في العالم الاسلامي . وترجمت كتبه الى اللاتينية ، ودرسها الكثيرون من علماء الافرنج في العصور الوسطى وعصر النهضة . وقال عنه غاردان أحد علماء الافرنج في القرن السادس عشر : " إنه واحد من العقول الاثنى عشر التي ظهرت في الدنيا " .

فليس من المغالاة أن نقول ان جهود جابر ومن سار على نهجه من علماء المسلمين قد مهدت الطريق لعلماء النهضة في الغرب ، ولوضع المنهج العلمي في البحث وتطبيقه .

ابو بكر الرازي

واشتغل بالكيمياء ، بعد جابر ، علماء كثيرون اشهرهم الرازي الطبيب والفيلسوف العظيم . وله في الكيمياء خاصة اثنا عشر كتاباً ، ترجم الكثير منها الى اللغة اللاتينية . ويعده بعض العلماء من مؤسسي الكيمياء الحديثة . وقد ابتكر أجهزة عديدة ، ووصف أكثر من عشرين ، منها المعدني ومنها الزجاجي . وكان يعني بوصف تفاصيل العمليات الكيمياوية . وقدحضر عدداً من الحوامض مثل حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج ، اذ أنه حضره بتسخين الزاج الأخضر ، وحضر الكحول بتقطير مواد نشوية وسكرية متخمرة . وقدر الكثافة النوعية لعدد من السوائل مستعملاً ميزاناً خاصاً .

مراجع الفصل الرابع

١- مختارات رسائل جابر بن حيان : نشرها ب . كراوس . القاهرة .

٢- روحي الخالدي : الكيمياء عند العرب .

٣- زكي نجيب محمود : جابر بن حيان

٤- حافظ قدري طوقان : العلوم عند العرب .

اسئلة

١ - على أي أساس نقول : العرب هم مؤسسو علم الكيمياء ؟

٢ - اشرح منهج جابر بن حيان في علم الكيمياء .

٣ - ما أهم المواد الكيميائية التي حضرها العرب ؟

٤ - هل تقوم شهرة الكيميائين العرب على النظرية أم على التطبيق ؟ وكيف ؟ اشرح ذلك .

٥ - هل كان للكيمياء العربية أثر في الحياة الاقتصادية في العصر العباسي ؟

تقدم علم الفيزياء ، أو علم الطبيعة بجهود علماء اليونان ، وفي مدرسة الاسكندرية خاصة ، حيث اكتشفوا اعداداً كبيرة من مبادئه الأولية . وقد ترجمت مؤلفات اليونان الى اللغة العربية ككتاب "الفيزيكس" لأرسطو وكتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لابرن ، وكتاب هيرون الصغير في الآلات الحربية وكتب هيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وغيرها . وقد استوعب علماء العرب هذه الكتب . فأخذوا يبحثون هم أنفسهم في هذه العلوم . واكتشفوا قوانين طبيعية وألفوا الكتب القيمة في مختلف فروع علم الفيزياء وصنعوا آلات كثيرة . وقد وضعوا بجهودهم العلمية أساس منهج البحث العلمي الحديث وأساس عدد من مباحث علم الطبيعة . ومن أهم العلوم الطبيعية التي اعتنى بها العرب : علم الميكانيكا وعلم الضوء .

يسمى العرب الميكانيكا علم الحيل . ويقسمه الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم الى قسمين يبحث القسم الأول في جر الأثقال بالقوة اليسيرة ، وفي الآلات التي تقوم بذلك . ويبحث القسم الثاني في الآت الحركات وصنعة الأواني العجيبة . وقد اشتهر في هذا العلم من العرب والمسلمين كثيرون وألفوا فيه الكتب العديدة ومنهم الأخوة محمد وأحمد وحسن أبناء موسى بن شاكر . ولهم في الميكانيكا كتاب يحتوي على مئة تركيب ميكانيكي ، عشرون منها ذات قيمة عملية .

وألف أبناء موسى بن شاكر في علم الأثقال وهو " علم يتعرف منه كيفية استخراج ثقل الجسم المحمول . والمراد بمركز الثقل حد في الجسم عنده يتعادل بالنسبة الى الحامل " . ولابن الهيثم مؤلفات في هذا الموضوع .

واهتم البيروني من علماء العرب بعلم السوائل ، وألفوا في ذلك الكتب القيمة ، ذكروا فيها شروحاً وتطبيقات لبعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها . وقد شرحوا صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وتجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مأخذها من المياه القريبة اليها وتكون سطوح ما يجتمع منها موازية لتلك المياه . وبينوا كيف تفور العيون ، وكيف يمكن أن تصعد مياهها الى الأماكن المرتفعة .

الوزن النوعي

وكان للعرب عناية خاصة بقوانين الوزن النوعي ، ولعل سبب تلك العناية الشديدة رغبتهم في معرفة الوزن النوعي للأحجار الكريمة والمعادن الثمينة . وقد أوجدوا طرقاً ، واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الوزن النوعي لكثير من الأحجار الكريمة والمعادن . وقام البيروني بتجربة لحساب الوزن النوعي واستعمل لذلك وعاء مصبه متجه الى أسفل . ومن وزن الجسم بالهواء وبالماء تمكن من معرفة الماء المزاح . ومن هذا الأخير ووزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعي ، وقد وجد الوزن النوعي لثمانية عشر عنصراً ومركباً من الأحجار الكريمة والمعادن . وقام العلماء بعمل الجداول الدقيقة فقد حسبوا كثافة الرصاص مثلاً فوجدوها ١١,٣٢ بينما هي في الحساب الحديث ١١,٣٥ ، واخترع الخازن آلات خاصة لمعرفة الوزن النوعي لأي سائل ، ولقياس حرارة السوائل .

الضغط الجوي :

الخازن من أشهر علماء الطبيعة وكتابه "ميزان الحكمة" من الكتب المعتبرة في علوم الطبيعة ، ومن أعظمها استيفاءاً لبحوث الميكانيكا . ولعله الكتاب الوحيد من نوعه في الموضوع في العصور الوسطى . وفي الكتاب بحث عن الضغط الجوي شرح فيه المبدأ القائل بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل الى أعلى على أي جسم مغمور فيه ، ومن هذا استتنتج بأن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي .

الجاذبية :

ويتحدث الخازن عن الجاذبية ، وهو يرى أن اختلاف قوة الجذب يبتع المسافة بين الجسم وهذا المركز . ويبين العلاقة الصحيحة بين السرعة التي يسقط بها الجسم نحو سطح الأرض والبعد الذي يقطعه الزمن الذي يستغرقه . وهي العلاقة التي تنص عليها القوانين والمعادلات التي ينسب الكشف عنها الى علماء القرن السابع عشر مثل غاليلو ونيوتن . وقد اهتم كثير من علماء العرب بالجاذبية وعرفوا شيئاً من قوانينها . فقد بحث محمد بن موسى بن شاكر في حركة الاجرام السماوية وخواص الجذب . واكتشف البوزجاني بعض أنواع الخلل في حركة القمر . ويقول محمد بن عمر الرازي من أواخر القرن السادس الهجري : " اننا إذا رمينا المدرة (الحجرة) إلى فوق فإنها ترجع إلى أسفل فعلمنا أن منها قوة تقتضي الحصول في أسفل حتى أنا لما رميناها الى فوق اعادتها تلك القوة إلى أسفل " . يتبين لنا مما تقدم أن علماء العرب سبقوا نيوتن في البحث عن الجاذبية . وتورشيلي في أبحاث الضغط الجوي ، ومهدوا الطريق للنظريات التي وضعوها ، وللاختراعات التي بنيت عليها ، كالبارومتر ومفرغات الهواء ، والآلات الأخرى العديدة .

المغناطيسية :

كان اليونان أول من عرف خاصية الجذب في المغناطيس وكان الصينيون أول من عرف خاصية الاتجاه فيه . وقد أخذ المسلمون هاتين الخاصيتين واستفادوا منهما في صنع بيت الإبرة أو ما يسمى بالبوصلة ، واستخدموها في أسفارهم البرية والبحرية ، وفي تعيين اتجاه القبلة عند بناء المحاريب في المساجد . ومن العرب أخذ الأوربيون البوصلة واستعملوها في الملاحة .

الصوت

بحث العرب في الصوت . وعرفوا المعلومات الأساسية عنه . وبينوا أن منشأ الأصوات حركة الأجسام المصوتة . وأن هذه الحركة تؤثر في الهواء الذي لشدة لطافته وسرعة حركة اجزائه يتخلل الأجسام كلها . فإذا صدم جسم جسماً آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات على شكل دائري . وكلما اتسعت دائرة الصوت ضعفت

حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل . وقسموا الأصوات إلى أنواع منها : الجهير والخفيف والحاد والغليظ . وعززوا ذلك إلى طبيعة الأجسام المصوتة والى قوة تموج الهواء بسببها . وعللوا الصدى تعليلاً علمياً . يقول الجلدكي في الميزان : " والصدى يحدث عن انعكاس الهواء المتموج من مصادقة عال كجبل أو حائط . ويجوز أن لا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة فلا يحسن بتقارب زماني الصوت وعسكه ." .

وبحث العرب في سرعة الضوء والصوت . وقال البيروني أن سرعة النور اذا قيست بسرعة الصوت كانت عظيمة جداً ، وعللوا سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد بقولهم : " أن الرعد والبرق يحدثان معاً لكن يراى البرق قبل أن يسمع الرعد لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر . وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ وذلك يتوقف على تموج الهواء وذهاب النظر (أي سرعة النور) أسرع من وصول الصوت " .

آلات الرفع

كان للعرب عدد قليل من آلات الرفع ، بعضها من اختراعهم ، وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية تمكنهم من جر الأثقال بقوى يسيرة . وقد بحث العلماء في هذه الآلات ، وبينوا القواعد التي تقوم عليها . وقد ذكر الخوارزمي في مفاتيح العلوم عدداً منها ، ووصفها ، ومن ذلك : البرطيس وهو فلكة كبيرة يكون في داخلها محور تجر بها الأثقال ، والمخل ، والاسفين ، واللولب ، ومعصرة الزياتين ، والاسقاطولي وهي خشبة مربعة تستعمل في هذه آلالات ، والآت الحروب كالمنجنيق والعرادة . والآلات المتحركة بذاتها . والمتحركة بواسطة الماء أو الرمل . والأواني العجيبة ومنها السحارة . " وهي الأنبوبة المعطوفة المعمولة من زجاج أو غيره فيوضع أحد رأسيها في الماء وغيره من الرطوبات المائية ويمص الرأس الآخر إلى أن يصل الماء إليه وينصب منه فلا يزال يسيل إلى أن ينكشف رأسه الذي في الماء ولا يمكن ذلك إلا أن يكون الرأس الذي يسيل إلى أن ينكشف رأسه الذي في الماء. ولا يمكن ذلك إلا ان يكون الرأس الذي مص أسفل من سطح الماء ، فأما إذا كان أعلى منه فانه لا ينصب ومنها القطارات وهي آلات تعمل يقطر منها الماء أو غيره على قدر الحاجات في

أشكال مختلفة . والحنانات وهي آلات تعمل فتحن بصوت مثل صوت المعازف والمزامير والصفارات وغيره على قدر الحاجة . والفوارات وهي التي تعمل في الحياض والحمامات ونحوها يفور منها الماء في أشكال مختلفة . . الخ

الموسيقى

طبق العرب مبادئ الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى . وكانوا عمليين لا يقبلون نظرية إلا بعد أن يجربوها . ففي اهتزاز الأوتار عرفوا العلاقة بين طول الوتر وغلظة وقوة توتره. وشدة النقر من جهة ، ونوع الصوت الذي يحدث من جهة أخرى . وقد ألف في الموسيقى علماء وفلاسفة كثيرون منهم الكندي والفارابي وابن سينا . وقد زادوا على الموسيقى اليونانية وأدخلوا عليها تحسينات كثيرة . ولم تقتصر عناية العرب على نظريات الموسيقى فحسنوا ما كان موجوداً منها . واخترعوا آلات جديدة . فقد كان للعود أربعة أوتار فزاد عليها زرياب في الأندلس وتراً خامساً ويقال أن الفارابي اخترع القانون الذي ما يزال يستعمل إلى اليوم . كما اخترع الزلام وهي آلة موسيقية من الخشب تعرف بالناي أو المزمار الزلامي .

علم الضوء

تقدم علم الضوء ، أو علم البصريات ، تقدماً عظيماً ، بفضل علماء العرب ، وكان أعظمهم أثراً الحسن بن الهيثم الذي ولد في البصرة عام ٣٥٤هـ – ٩٦٥م وتوفى في القاهرة حوالي سنة ٤٣١هـ–١٠٣٩ م . وقد اشتغل بالبحث والتدريس في العراق والشام ومصر . وكان منصرفاً إلى العلم ، زاهداً في الدنيا ، يعيش من احتراف الوراقة . فكان ينسخ كل سنة عدة نسخ من كتب أقليدس وبطليموس ويبيعها بمئة وخمسين ديناراً ويكتفي بها طوال تلك السنة . وقد ألف ابن الهيثم في علوم الطبيعة كتباً عديدة أهمها كتاب " المناظر" وهو من أهم الكتب التي ظهرت في القرون الوسطى واكثرها استيفاء لبحوث الضوء.

وقد اكتشف ابن الهيثم القسم الثاني من قانون الانعكاس . فقد وضع اليونان القسم الأول من القانون وهو أن زاويتي السقوط والانعكاس متساويتان فأضاف ابن الهيثم بأن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد .

ولابن الهيثم في كتاب المناظر مسائل مهمة عرف بعضها باسم مسائل ابن الهيثم : مستعيناً بالرياضيات مجرباً التجارب على أنواع مختلفة الأشكال من المرايا مستعيناً بأجهزة معقدة من صنعه . وقد وضع جداول دقيقة في معاملات الانكسار لبعض المواد . وعلل كثيراً من الظواهر الطبيعية وبيّن أسبابها الحقيقية . ومن ذلك الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار. ومن ذلك الانكسار الفلكي ، أي أن الضوء الذي يصل إلينا من الأجرام السماوية يعاني انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض ومن ذلك ينتج انحراف الأشعة وعلل الهالة التي ترى حول الشمس أو القمر . وعلل الشفق وكثيراً من الظواهر الطبيعية الأخرى .

وكتب ابن الهيثم عن اقسام العين ورسمها بوضوح تام . وبين كيف ننظر بالعينين في آن واحد وأن الاشعة من النور تسير من الجسم المرئي إلى العينين ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في محلين متماثلين . وهو أول من بين أن الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكية العين تتكون بنفس الطريقة التي تتكون بها صورة جسم مرئي تمر أشعته الضوئية من ثقب في محل مظلم ، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منه النور ، والسطح يقابله في العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء . فإذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل إلى المخ . ومن ذلك تتكون صورة الجسم المرئي في الدماغ .

العدسات :

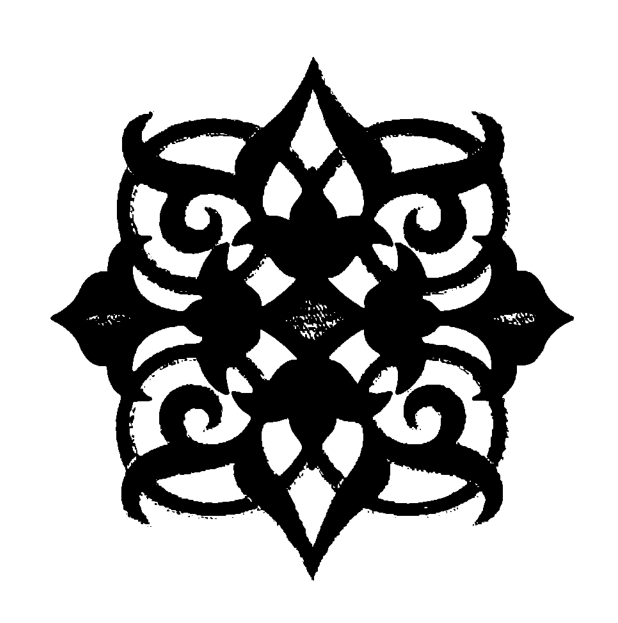
ولابن الهيثم معرفة بخاصيات العدسات اللامة والمرايا العادية ، والمرايا المحرقة . وكانت بحوثه في هذا الموضوع دقيقة تدل على احاطة بمبدأ تجمع الاشعة التي تسقط على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنه ، وكذلك بمبدأ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والألوان .

كان كتاب " المناظر " لابن الهيثم أروع ما كتب في موضوع الضوء في العصور الوسطى. وقد استقى منه علماء اوربا معلوماتهم عن الضوء . وثبت أن كيلر أخذ بعض معلوماته في الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بانكسار أشعة الضوء في الجو ، من كتب ابن الهيثم . وكانت مؤلفات ابن الهيثم في الضوء ، وما زالت مثار تقدير العلماء القدماء والمحدثين . يقول ماكس مايرهوف : " ان عظمة الابتكار الاسلامي تتجلى لنا في البصريات " وقد ألف العالم المصري الاستاذ مصطفى نظيف كتاباً قيماً عن ابن الهيثم عنوانه "بحوثه وكشوفه " . وقد جاء فيه : " قلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة وانشأ علماً جديداً ، ابطل فيه علم المناظر ، وانشأ علم الضوء الحديث . وأن أثره في الضوء لا يقل عن أثر نيوتن في الميكانيكا " . ويقول العالم البريطاني برنال " وأحد فروع علم الطب الذي تطور تطوراً كبيراً عند المسلمين هو طب العيون وربما كان سبب ذلك انتشار أمراض العيون انتشاراً واسعاً في الصحاري والمناطق الحارة . وقد قاد علاج أمراض العيون بواسطة اجراء العمليات الجراحية الى تجديد الاهتمام بتشريح العين ومعرفة بنيتها الداخلية . وهذا مما جعل الأطباء العرب أول من يدرك ادراكاً حقيقياً قوانين انكسار الضوء بمعناها الجديد ، أي انتقال أشعة النور خلال الأجسام الشفافة وقد كان هذا الاكتشاف الخطوة التي تم بواسطتها الانتقال الى تأسيس علم البصريات الحديث .

وعدسات العين هي التي دلت على الطريق الى استعمال البلورات أو العدسات الزجاجية لتكبير الصور وتيسير القراءة على الناس وعلى الشيوخ بصورة خاصة . وقد حدث وضع هذه العدسات في اطارات واختراع النظارات فيما بعد . وكان " كتاب المناظر " لابن الهيثم أول بحث علمي جاء في موضوع البصريات ، الأساس الذي قام عليه علم البصريات بأسره في العصور الوسطى . ومع أنه قد ادخلت بعض التحسينات والاضافات الى هذا العلم فقد بقي كتاب ابن الهيثم هو المعتمد حتى القرن السابع عشر . ونحن نجد في العدسات أول اضافة وامتداد وتوسيع لأجهزة الانسان الحسية بعد أن تحققت الزيادة في مقدرته الحركية بفضل اختراع واستعمال الأدوات الآلية . وكانت العدسات هي النموذج الأول الذي تطور

عنه التلسكوب والميكروسكوب وآلات التصوير وغيرها من الآلات البصرية التي اخترعت في الأزمان الحديثة . ولو لم يفعل العلماء المسلمون شئياً سوىٰ أنهم أوجدوا علم البصريات، لكانوا قد قدموا خدمة لا تضاهى ، ومساهمة حاسمة للعلم .

وكان ابن الهيثم ، اضافة الى بحوثة الرائعة في الطبيعة ، فليسوفاً ورياضياً وفلكياً . وله في هذه العلوم مولفات قيمة . وكان يعتمد المنهج العلمي في أبحاثه . فكان يأخذ بالاستقراء ، والمشاهدة ، والقياس ، والتجربة . ويؤكد على ضرورة الاعتماد على الواقع المتعين ، وعلى ضرورة طلب الحقيقة . والتجرد عن الهوى . والاخلاص للحق .



مصادر ومراجع الفصل الخامس

١– الحسن بن الهيثم — مصطفى النظيف

٢– العلوم عند العرب — قدري حافظ طوقان

٣– الحسن بن الهيثم — أحمد سعيد الدمرداش،سلسلة اعلام العرب

٤– مفاتيح العلوم — الخوارزمي

٥– العلم في التاريخ (باللغة الانكليزية) برنال

اسئلة

١– ما هي مصادر علم الفيزياء عند العرب ؟

٢– كيف يعلل العرب الفرق بين رؤية البرق وسماع صوت الرعد ؟

٣– ما أهم الآلات الرافعة التي اخترعها العرب ؟

٤– اشرح منهج ابن الهيثم العلمي .

٥– بيّن أثر كتب ابن الهيثم على تقدم علم الضوء في اوربا .

٦– بيّن أثر اختراع العرب للعدسات على تقدم علم الفلك الحديث ، وعلم الطب .

نشاط

يختار الطالب علماً من العلوم العقلية أو شخصية علمية اعجبته .. ويكتب عنها صفحة واحدة.. وتُجمع في ملصق جداري ..

الفنون العربية قبل الاسلام

كان في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام مراكز حضارية منبثقة في مختلف أرجائها ، وخاصة في الأودية والواحات التي تتوافر فيها المياه ، وقد اظهرت المكتشفات القليلة التي تمت في البحرين تماثيل غير قليلة وقبور فخمة تدل على مدى عنايتهم بالعمارة ، وعلى التقدم الذي احرزوه في هذا الميدان ، علماً بأن الأبنية ترجع الى عصور ما قبل الميلاد .

وكانت اليمن مركزاً لحضارة راقية يرجع تاريخ بعضها إلى أكثر من ألف سنة قبل الميلاد . وقد عني أهل اليمن بالبناء عناية خاصة وكانوا يبنون بيوتهم بالحجارة والمرمر واشتهر عنهم اهتمامهم بالأبنية ذات الطوابق المتعددة وأشادت الكتب بالقصور الفخمة التي شيدها ملوك اليمن وأشهرها قصر غمدان الذي كان مكوناً من عدة طوابق وهو مبني بالمرمر الشفاف ، وقد ظل بناؤه قائماً حتى ظهور الاسلام وما يزال في اليمن بقايا عدد غير قليل من المعابد الفخمة .

وفي الأطراف الشمالية من شبه الجزيرة العربية نمت حول بعض محطات القوافل التجارية مدن تميزت بثرائها واهتمام أهلها بالفنون عامة والأبنية خاصة ، وأبرز هذه المدن التي ما تزال كثير من آثارها ماثلة حتى اليوم هي بطرا (البتراء) وتدمر .

وقد اشتهرت بطرا (البتراء) بطراز البناء وكانت معظم قصورها ومعابدها منحوتة في الجبال ، ولا تزال آثار أبنيتها شاخصة في وادي موسى جنوب الأردن ، وأشهر هذه الآثار خزانة موسى وقد كشفت كثير من مقابرهم وهي مزينة بتماثيل جميلة منحوتة في الصخر. أما في تدمر فيعد المعبد الكبير للاله بعل من أبرزها . وهو قائم على مرتفع من الأرض أمامه قوس هائل وطريق عريض طوله (٣٤٠ ياردة) وعلى جوانبه (٣٧٥ عموداً)



من منحوتات الحضر على هيئة نسر (القرن الثالث الميلادي) .



تمثال من مدينة الحضر للملك عبد سميا ملك الحضر (قرنُ الثالث الميلادي) .

طول كل منهما (٥٥ قدماً) وما يزال ١٥٠ عموداً قائماً ومعظمها من المرمر الأبيض وبعضها من الجرانيت السماقي . وكانت هذه الأعمدة مرتبطة ببعضها .

وكان في شبه الجزيرة العربية أيضاً عدد من البيوت المقدسة ، أشهرها الكعبة الشريفة . وهي بناء مستطيل الشكل اضلاعه (٣٢ X ٢٢ ذراع) وارتفاعها تسعة أذرع ، وقد أعاد أهل مكة المكرمة بناءها بالحجر والخشب وزينوها من الداخل بالصور والتماثيل . فكانت حياة العرب المادية بسيطة ، وكان اهتمامهم بالشعر والأدب واللغة أشد من اهتمامهم بفنون العمارة والنحت والتصوير ، ولما جاء الاسلام تركزت دعوته حول العقيدة والخلق ، واهتمت باصلاح الأفكار والسلوك والنفس دون الترف المادي ، فلم تنصرف عناية المسلمين للفنون ، وان لم يهملوا الجوانب الفنية من الحياة ؛ فقد حث القرآن الكريم على العناية بالنظافة ودعا المسلمين إلى أخذ زينتهم عند كل مسجد ، وقد عرف عن الرسول (ﷺ) عنايته الشديدة بملابسه ونظافتها ، وكانت النساء تهتم بالزينة .

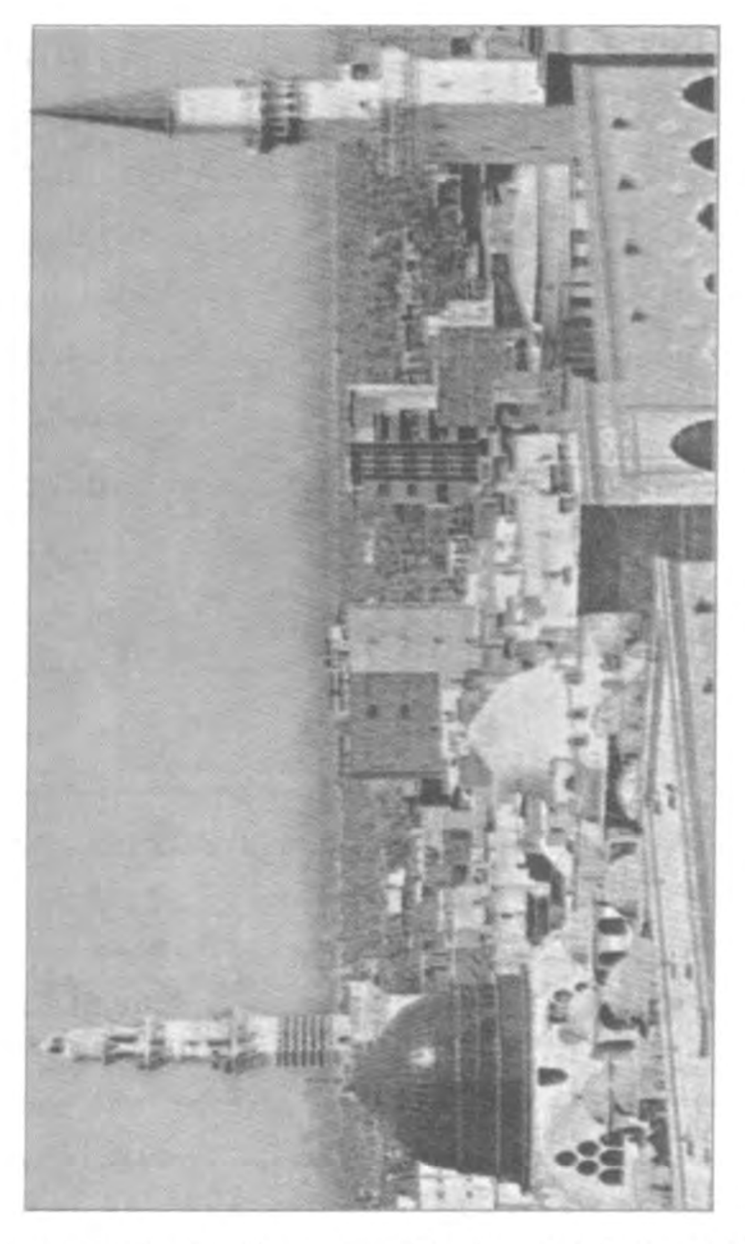
وقد أشارت المصادر العربية إلى ألوان ملابس العرب ونقوشها ، فكانوا يفضلوان اللون الأصفر والأحمر ، وكانت منسوجات البستهم مزينة بصور الهلال ، والمربعات والمدورات وهي مظاهر تدل على اهتمامهم بالفنون وتقديرهم لها . وبعد أن ساد الاسلام في الجزيرة العربية واعتنقته العرب ، انصرفوا الى الاهتمام بأمر العقيدة والدين واندفعوا في الفتوح ، وانشغلو في الحرب والادارة ، وفي البحث في أمور السياسة والاجتماع والآداب . ومع أنهم قاموا بتشيد المدن والأمصار وبناء الجوامع والبيوت فيها ، إلا أن اهتمامهم الأول كان منصرفاً الى ادارة الدولة وإلى الشعر والآداب . فكانت أبنيتهم الأولى بسيطة واهتمامهم بالفنون الزخرفية قليلاً .

إن الدولة العربية الاسلامية التي كونها العرب وقاموا بادارتها وتوجيه سياسيتها كانت تشمل أقاليم كثيرة ذات حضارات قديمة اهتمت بمختلف فروع الفنون ، وساهمت في تقدمها ورقيها ، وانجزت أعمالاً رائعة للفنون ، فلم يقوموا بهدم الآثار أو تخريبها ، فأبقوها وتسامحوا مع الفنانين فلم يضعوا أمامهم القيود والعراقيل ، بل أباحوا لهم حرية العمل والتنقل ، فظل هؤلاء الفنانون يمارسون أعمالهم بحرية ، وقد عمل كثير منهم في بلاط الخلفاء والأمراء المسلمين .

وقد ساعد تكوين الدولة العربية الاسلامية على اطلاع العرب على مظاهر الحياة التي كانت قائمة في مختلف الأقاليم التي كونت دولتهم ، وقد قادهم الاستقرار وتقدمهم في الحضارة الى الاهتمام بالفنون وعنايتهم واستخدامهم الفنانين في بلادهم واقتباسهم مختلف مظاهر الفنون . ولما كان العرب ذوي مثل عليا معينة في الحياة ، ولهم اتجاهات وأذواق خاصة فإنهم كيفوا ما اقتبسوه من الفنون لكي ينسجم مع أذواقهم ومثلهم في الدين والحياة، ولم يقتصروا على مجرد التقليد الأعمى أو النقل الحرفي ، كما أنهم لم يقعوا تحت تأثير فن معين واحد ، بل أخذوا من فنون مختلف الأمم التي كانت تعيش في دولتهم ، ونسقوا ما أخذوه لينسجم مع اتجاهاتهم ومثلهم ، وبذلك أوجدوا فناً عربياً اسلامياً إتسم بطابع خاص متميز عن الفنون التي سبقته بالرغم من تأثره بتلك الفنون ، وقد ساهم في هذا الفن العربي الاسلامي الجديد فنانون من مختلف الأقطار والشعوب ، وانتشر في مختلف أرجاء العالم العربي والاسلامي محتفظاً فيها بطابعه العام وخصائصه التي كانت تميزه عن غيره ، وتسود على مختلف الاتجاهات والمدارس التي ظهرت في العالم الاسلامي آنذاك .

يحتل المسجد مكانة خاصة في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية عند المسلمين ، وهو أقدم الأبنية التي اهتم بها المسلمون . فعندما هاجر الرسول (ﷺ) إلى المدينة المنورة واستقر بها اتخذ له مسجداً كان المركز العام للمسلمين ، واتخذت معظم القبائل التي أسلم أفرادها في المدينة مساجد خاصة لهم ، غير أن مسجد الرسول ﷺ) كان هو المسجد الرئيسي وقد أصبح الأساس الذي سار عليه تخطيط المساجد الاسلامية .

وكان انشاء الرسول (ﷺ) للمسجد أول عمل قام به (ﷺ) بعد استقراره في المدينة المنورة وكان ملاصقاً لمنازله وكان مكوناً من رحبة (صحن) واسعة تحيط بها جدران من جهاتها الأربع . وطول كل جدار حوالي سبعين ذراعاً ، وكان في البداية مكشوفاً ثم أنشئت في جهته الشمالية المقابلة لجهة بيت المقدس ظلة ، وهو من جذوع النخل يقوم عليها سقف من سعف النخيل . ولما تحولت القبلة الى الكعبة الشريفة انشئت ظلة أخرى في جهته الجنوبية تقي المصلين حر الشمس ، وبقيت الظلة الأولى مكاناً لأهل الصفة ، وكان ما بين الظلتين رحبة واسعة مكشوفة ، أما اجدرانه فقد بنيت باللبن ، وجعل له ثلاثة أبواب اثنان منهما من جهة الشرق والثالث من الغرب . وكانت تحيط به بيوت الصحابة من المهاجرين . وفي السنة السابعة للهجرة ضاق المسجد بالمصلين بعد ان ازداد عدد المسلمين ، فوسعه الرسول (ﷺ) وجعله مربعاً يبلغ كل ضلع من أضلاعه حوالي (١٠٠) ذراع وهي تساوي (٥٠ متراً تقريباً) وكانت تمتد في ظلته ثلاثة صفوف من جذوع النخل . وقد زاد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في المسجد فجعل أضلاعه (١٢٠ X ١٣٠) ذراعاً وجعل أساطينه من لبن وسقفه من سعف النخيل ، فزاد في أبوابه فجعلها ستة أبواب . ثم زاد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في المسجد فجعله (١٦٠ X ١٣٠) ذراعاً بني جدرانه بالحجارة المنقوشة والجص وجعل أعمدته من حجارة منقوشة وسقفه من الساج وأبقى له ستة أبواب .



المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة .

وظل المسجد النبوي بعد ذلك على حاله مدة ستين سنة ، فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة أمر باعادة بناء المسجد من جديد ، وقد وسعه وجعله (٢٠٠ X ١٦٠ ذراعاً) ، وقد جعل بيت الصلاة خمس بلاطات (البلاطة هي المساحة المحصورة بين صفين من الأعمدة)

لكل منها صف من سبعة عشر عموداً مبنية بالحجارة ، ومثل ذلك في الجهة الشمالية . أما في الجهتين الشرقية والغربية فقد احاطها بمسقفتين ، وفي الجهة ثلاثة أروقة وفي الجهة الغربية أربعة أروقة ، وجعل له مآذن في كل زاوية مئذنة ، وجعل في بيت الصلاة مقصورة من ساج . ثم زاد الخليفة العباسي المهدي في مسجد الرسول (ﷺ) من جهته الشمالية حوالي (١٠٠ ذراع) وزخرف بالفسيفساء ، وقد ظلت مساحة المسجد النبوي على زيادة المهدي الى آخر العصر العباسي ، ثم زيدت عليه بعض الزيادات بعد ذلك .

مساجد الأمصار :

وكان المسلمون عند تأسيسهم الأمصار يهتمون أول شئ بتشييد المسجد الجامع ، وهم يجعلونه في وسط المدينة ، ويجعلون حوله ساحة واسعة تتفرع منها الطرق الى باقي أنحاء المدينة . وقد اتخذوا مسجد الرسول (ﷺ) نموذجاً فشيدوا مساجدهم على غراره ، وكانت هذه المساجد في الغالب مربعة الشكل فيها رحبة واسعة تحتوي على الميضأة ، وفي جهة القبلة بيت للصلاة في ظلة تقام على أعمدة ويلاصق المسجد عادة دار الامارة .

وقد بينت هذه المساجد من اللبن والطين . ثم اعيد بناوها في العصر الأموي ، فوسعت مساحتها وجعلت اعمدتها من الحجارة وبني سقف معظمها بالساج .

المسجد الأموي في دمشق :

ومن أشهر الجوامع التي بنيت في العصر الأموي المسجد الجامع بدمشق ، وقد بني في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بين عامي ٨٨ و ٩٦ هـ وكان شكله مستطيلاً طوله (١٦٠ متراً) وعرضه (١٠٠ متر) ، وفي جهة القبلة بيت للصلاة يبلغ عرضه (٣٦ متراً) وارتفاعه حوالي (١١ متراً) ، وهو يقوم على أعمدة فيها عقود متعددة ، أما الجوانب الشرقية والغربية والشمالية من الجامع فيحيطها رواق كسيت جدرانه بالمرمر الملون وعقدت عمده وسواريه بالقناطر والطاقات .

الجامع الأزهر

أما الجامع الأزهر فقد انشئ في القاهرة بناه جوهر الصقلي باسم الخليفة المعز لدين الله وتمت



جامع الأموي بدمشق .

عمارته سنة ٣٦١ هـ ويتكون من مدخل واسع وصحن به أروقة وقد اضيفت له عدة زيادات في عصور مختلفة لغرض توسيعه . ولذا يشكل هذا المسجد معرضاً للعمارة الاسلامية في مصر ، وأهم أجزائه العقود المحيطة بالصحن وكذلك عقود المجاز ذي السقف العالي .

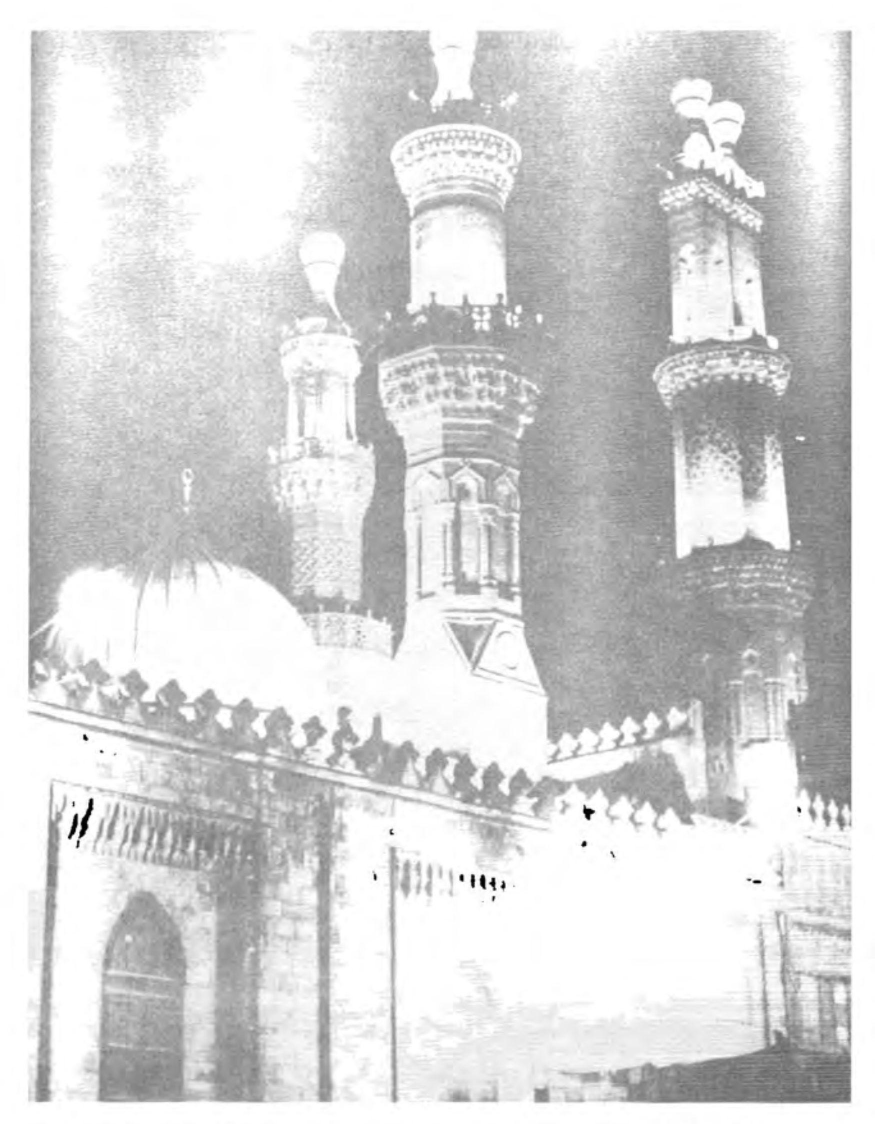
تخطيط عام للمسجد

ولا ريب أن الجوامع والمساجد تختلف في حجمها وزخرفتها والمواد التي تبنى منها ، ولكنها تتشابه من حيث أنها تكون مربعة أو مستطيلة ، وفي جهة القبلة منها بيت للصلاة يكون مسقوفاً (الظلة) وفي وسط جدار القبلة محراب أو أكثر وهو تقويس في الجدار يهتدي به المصلون الى جهة القبلة ، ويصلي الامام عادة عنده وإلى يمينه المنبر ، ويكون في

بيت الصلاة صفوف من الأعمدة يرتكز عليها السقف يختلف عددها تبعاً لمساحة البناء ، والغالب أن هذه الأعمدة تكون بصفوف عدة تحصر بينها مساحات تسمى (البلاطات) . وبكل صحن مكشوف مربع أو مستطيل الشكل ميضأة ، ويحيط به أروقة مسقفة ، الجانبية منها تسمى المجنبات ، وفي كل مسجد باب أو عدة أبواب غير أن جدار القبلة لا يفتح فيه باب .

وفي كل جامع مئذنة أو أكثر مرتفعة البناء ويختلف موضعها باختلاف الجوامع ، والعادة أن تكون في أحد الأركان المقابلة للقبلة ، وقد عرفت في العالم الاسلامي ثلاثة أشكال من المآذن .





مآذن الجامع الأزهر في القاهرة تمت عمارته سنه ٣٦١ هـ .

١- المئذنة الحلزونية وأشهر نماذجها ملوية سامراء وجامع ابي دلف ومئذنة مسجد احمد بن طولون في القاهرة .

٢- المئذنة المربعة ومنها الجامع الأموي بدمشق ومآذن الجوامع في المغرب العربي والأندلس .

٣- المئذنة المستديرة (الاسطوانية) ومن أمثلتها جامع السلطان أحمد في استانبول ومئذنة مسجد الجمعة في دلهي ومآذن الجامع الأزهر في القاهرة . وكثير من المآذن في العراق وفي الموصل خاصة .

الأضرحة :

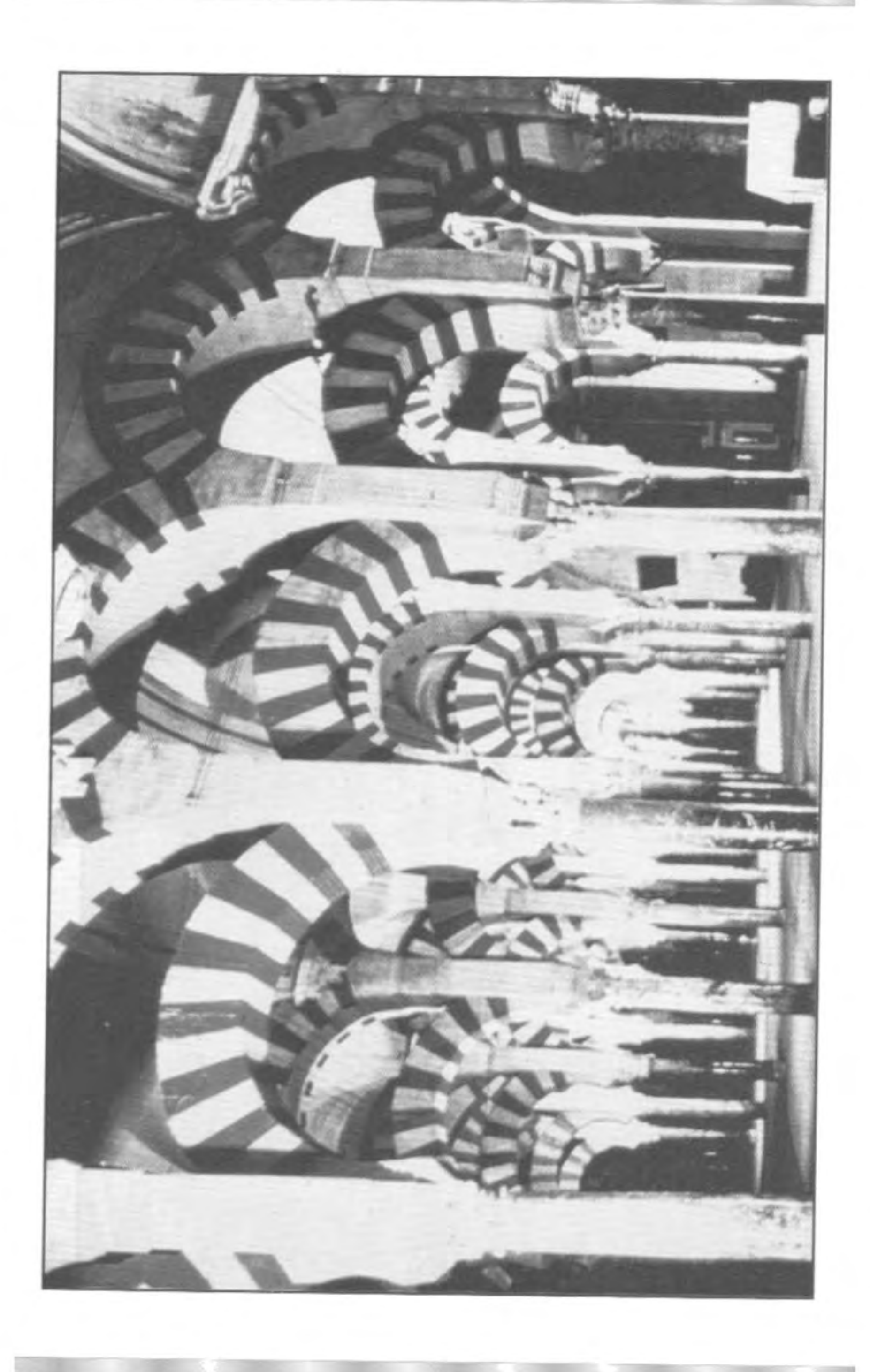
ان اهتمام المسلمين في العمارة لم يقتصر عل بناء المساجد بل تعداد إلى بناء المدارس والأضرحة والقلاع والربط والتكايا والسبل والمستشفيات والخانات والأسواق والقصور .

المدارس :

ولما كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فقد اهتم المسلمون في عمارة المدارس. وكانت المساجد في العصر الاسلامي الأول مراكز للتدريس .

ومن أبرز الأمثلة للمدارس العربية الاسلامية المدرسة المستنصرية ، بناها المستنصر بالله ابو جعفر المنصور العباسي سنة ٦٢٥ هـ وكمل بناؤها سنة ٦٣١ هـ على ضفة نهر دجلة الشرقية في بغداد ، ولا تزال هذه المدرسة شاخصة حتى الآن وقد رممت وجددت ، وتعتبر هذه المدرسة النموذج الجامعي في المدارس العربية الاسلامية ببنائها ونظام التدريس فيها . وقد عنيت بدراسة علوم القرآن والسنة النبوية وعلوم العربية والرياضيات والفرائض والزكاة ومنافع الحيوان وعلم الطب وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان في آن واحد .

والمدرسة بشكل مستطيل يمتد مع شاطئ دجلة طوله (١٠٤,٨٠م) وعرضه من الجنوب(٤٨,٤٠م) ومن الشمال (٤٤,٢٠م) ، وفي وسطها صحن مساحته (١٧١٠م٢) تحف به الأواوين والمسجد وغرف لسكنى الطلبة وفي المدرسة ايوانان في الشمال والجنوب يرتفعان بارتفاع طابقي البناء . ويبلغ عدد الغرف فيها (٨٠ غرفة) كما أنها اشتملت على





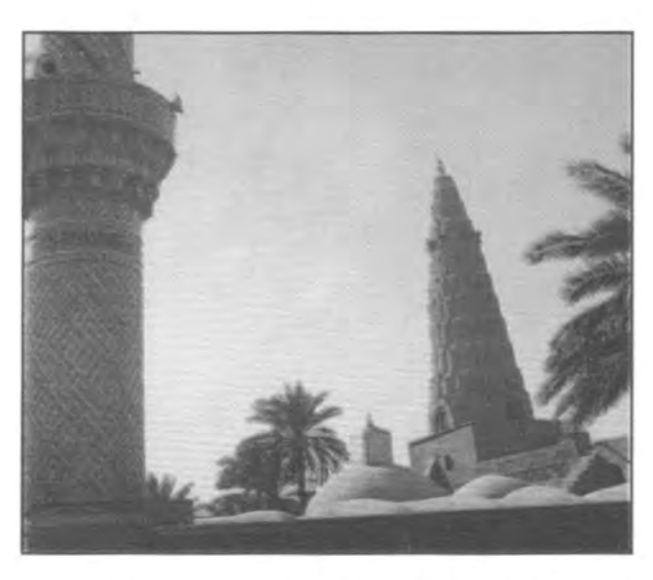
مسجد السلطان احمد في استانبول من القرن ١٧ الميلادي



واجهة المسجد الجامع بدمشق بني في العصر الأموي سنة ٨٨ هـ .

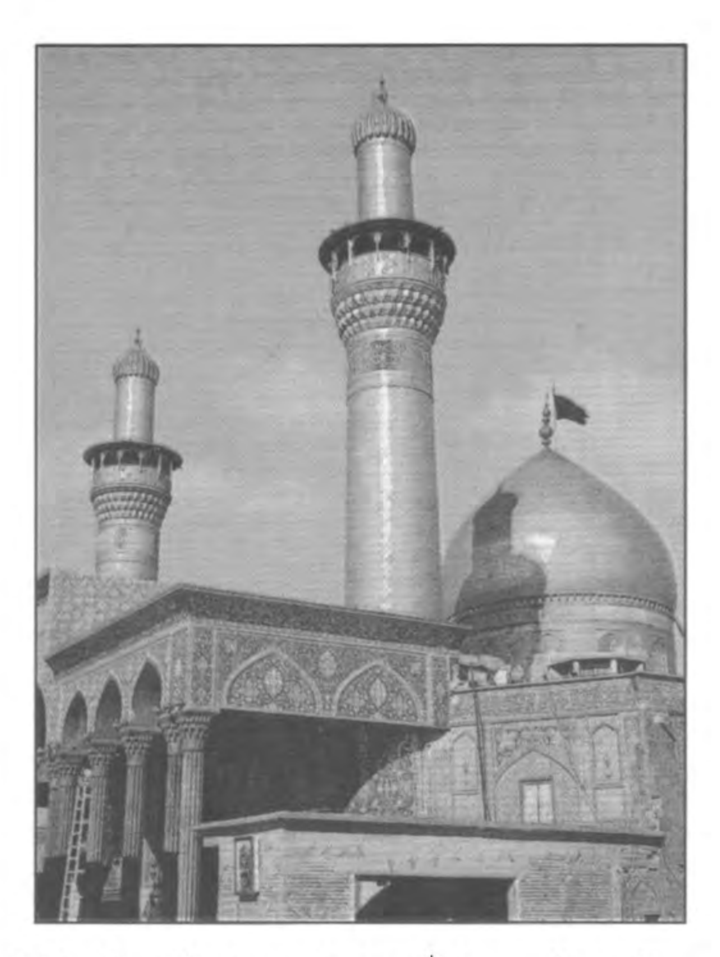


مئذنة الحدباء في الموصل من (القرن السادس الهجري من المنائر الاسطوانية)

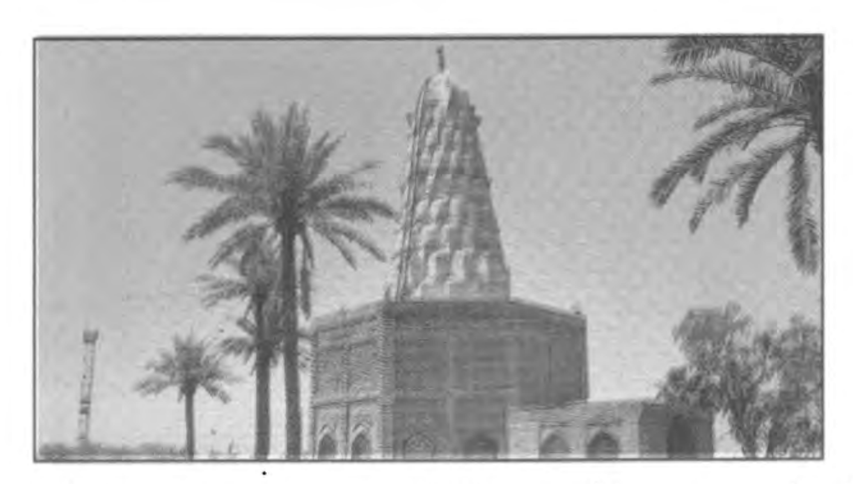


قبة ضريح الشيخ عمر السهروردي في بغداد

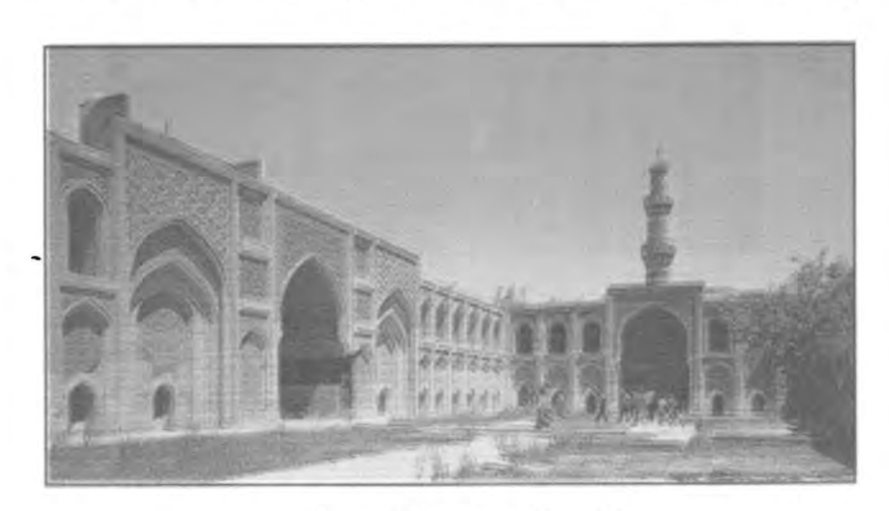
وقد شيدت على طراز القباب السلجوقية سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م



ضريح الامام الحسين (رضي الله عنه) في كربلاء ذو المنائر الاسطوانية



قبـر السيـدة زمـرد خاتون زوجـة الخليـفة العبـاسي المستـضئ بأمر الله المتـوفاة سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م المعروفة عند الناس بمقبرة الست زبيدة بجانب الكرخ في مـدينة بغـداد وقـد بـنيت القـبـة على طراز القـبـاب السلجـوقـيـة .



المدرسة المستنصرية في بغداد .

بدأ ببنائها الخليفة العباسي المستنصر بالله ، خلافته من (٦٢٥ هـ - ٦٤٠ هـ) وأتم بناءه سنة ٦٣١ هـ ولا تزال البناية شامخة على كتف جسر الشهداء ببغداد في الجهة الشرقية نهر دجلة .



احدى واجهات حصن الاخيضر (القرن الثاني الهجري) .

مسناة لوقوعها إلى جوار النهر كما يوجد فيها مزملة وحمام .

وقد الحقت بالمدرسة دار القران وايوانها في الناحية الشمالية مقابل جامع الآصفية الحالي (على رأس جسر الشهداء من جانب الرصافة) ، كما الحقت بها مدرسة الطب حيث كمل ايوانها سنة ٦٣٣ هـ وتقابل هذه المدرسة باب المستنصرية الرئيسي (موقع مدرسة الطب حالياً سوق هرج) يضاف إلى كل هذا وجود مكتبة ودار للحديث .

ان عدد الطلاب في المدرسة (٢٤٨) طالباً اضافة الى الأساتذة والمعيدين ويلائم هذا العدد عدد غرف المدرسة وقاعاتها ، وتقوم الحكومة بالصرف على المدرسة وطلابها واساتذتها ومعيديها . وكان من شروطها (النظام الداخلي في الدراسة) ، كما اوقفت لها الأوقاف الكثيرة التي تصرف على المدرسة ومتطلباتها وقد اشترط في ناظر المدرسة (عميدها) أن يكون عالماً فقيهاً وقد عين لها القاضي ابو النجيب عبد الرحمن بن يحيى بن القاسم التكريتي .

وقد زينت المدرسة بعناصر زخرفية كثيرة على شكل حشوات محفورة مزينة بالعناصر النباتية والهندسية في المدخل وبين الأواوين وفوق عقود السقوف وبواطن العقود وواجهة المسجد والمحراب ، اضافة الى وجود عناصر معمارية أخرى كالدعامات والسواري والعقود المدببة والسقوف المقببة (أي على شكل نصف اسطوانة) والشرفات والنوافذ ، وعلى جدرانها المواجه لدجلة نجد شريطاً من الكتابة يؤرخ بناء المدرسة وقد حدثت عليه تغييرات اضيفت في فترات متباعدة

نشاط

يجمع الطلبة صوراً عن الفنون المذكورة في هذا الفصل .

ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية طوال قرون عديدة وانتشرت مآثرها الرائعة في معظم انحاء العالم فامتدت من فرنسا الى الصين . وكانت من أنبل حلقات الحضارة الانسانية . وقد استوعبت هذه الحضارة تراث الأمم القديمة في الآداب والعلوم والفنون ، ونمته ، واضافت اليه اضافات مهمة ، وابتكرت علوماً وفنوناً وصنائع لم تكن موجود . وكانت اللغة العربية لغة العلم والثقافة العالمية لمدة طويلة . وان أغنى ما في تراثنا من المفاهيم الانسانية كما عبر عن ذلك رئيسنا القائد المناضل صدام حسين (حفظه الله ورعاه) هو في تطبيقات العدالة كما وردت في تاريخ الأمة في صدر الرسالة الاسلامية .

أثر الحضارة العربية الاسلامية في التقدم الحديث :

وقد أثرت الحضارة العربية الاسلامية في الشرق وفي الغرب تأثيراً عظيماً ويبدو تأثيرها في الشرق في الدين والفنون والغة على الخصوص . أما تأثيرها في الغرب فكان عظيماً في العلوم والفنون والصنائع . وسوف نركز بحثنا في هذا الباب على أثر الحضارة العربية على التقدم الحديث ، وفي اوربا والعالم الغربي بصورة خاصة .

حينما كانت الحضارة العربية الاسلامية في أوج ازدهارها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حين كانت المدارس تعد بالمئات في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة ، كانت اوربا تعيش في أواخر عصورها المظلمة حين كان يحكمها اقطاعيون يسودهم الجهل ويتولى مجالات الثقافة فيها رهبان أميون أو أشباه أميين . لقد نسيت أوربا تراث اليونان والرومان في العلوم والفلسفة وفي القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين نهضت أوربا نهضتها الكبيرة، وتفجرت طاقاتها العلمية والفنية والصناعية ونفذت حضارتها، بما فيها من خير وشر إلى

أقطار العالم أجمع ولكننا نستطيع أن نقول ، بثقة مستمدة من حقائق التاريخ ، إن الحضارة العربية الاسلامية كانت من أهم عوامل النهضة الثقافية في أوربا ومن أهم المصادر التي استمدت منها اوربا معرفتها وقوتها ومقومات صنائعها . وقد انتقلت العلوم العربية الى الغرب بطرق متعددة أهمها :الأندلس وصقلية وايطاليا وحروب الفرنجة (الحروب الصليبية)

الأندلس

ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس ثمانية قرون . وقد وصف هذه الحضارة أحد الكتاب الاسبان بهذه الجملة الموجزة : " ومن القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر نشأت وازدهرت أغنى وأجمل حضارة شهدتها اوربا خلال العصور الوسطى . وبينما كانت شعوب الشمال تتناحر في حروب دينية وتتصرف كالقبائل الهمجية ، كان شعب اسبانيا قد وصل الى ثلاثين مليوناً . وفي هذا الحشد كانت تختلط جميع الأجناس والعقائد ، على اختلاف تباينها ، وكان من نتائجه أقوى صورة عرفت لقوة النبض الاجتماعي .. في هذا الخليط الخصب من الشعوب والأجناس كانت تتعايش جميع الأفكار والعادات وجميع الاكتشافات التي تحققت حتى ذلك الحين في العالم ، وجميع الفنون والعلوم والصناعات والاختراعات والأنظمة القديمة ومن احتكاك هذه العناصر تدفقت اكتشافات جديدة وطاقات جديدة خلاقة ، فقد جاء من الشرق مع هؤلاء الغرباء (العرب) الحرير والقطن والبن والليمون والبرتقال ، والرمان ، وكذلك السجاد والمنسوجات والمعادن الدمشقية والمساحيق . وبفضلهم كذلك عرف العد العشري والجبر والكيمياءوالطب وعلم الكون والشعر المقفى .. ان فلاسفة اليونان، بعد أن كانوا على وشك الانطواء في النسيان قد استعادوا مكانتهم حين لازموا العربي في فتوحاته ، لقد سيطر أرسطو على جامعة قرطبة وكانت الأندلس أهم الطرق التي عبرت منها العلوم العربية ، والحضارة العربية الاسلامية عموماً ، الى اوربا " .

صناعة الورق :

لقد نشأت هذه الصناعة في الشرق ، ثم انتقلت الى مراكش ، ومنها انتقلت الى

الاندلس في منتصف القرن الحادي عشر . ومن الاندلس انتقلت الى فرنسا وانتقلت من صقلية الى ايطاليا . ومن فرنسا وايطاليا انتشرت صناعة الورق في سائر بلدان اوربا . لقد كانت صناعة الورق من أعظم الخدمات التي قدمها العرب للأوربيين . فلولا هذه الصناعة لما ظهرت الحاجة الى اختراع المطبعة ذات الحروف المتحركة في المانيا سنة ١٤٠٥ م . ولولا الورق والمطبعة لم تيسر للعلم أن ينهض وينتشر في اوربا ويكون أساس حضارتها الحديثة ، ومصدر قوتها .

حركة الترجمة

بدأت الحركة العلمية في اوربا بترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم والأدب في اوربا في العصور الوسطى . وكانت حركة الترجمة في بادئ امرها فردية ، ثم اصبحت حركة منظمة واسعة . وكان أول المترجمين قسطنطين الافريقي (١٠٢٠م – ١٠٨٧ م) ، وقد ولد في تونس ، ودرس في المدرسة الطبية في سالرنو في ايطاليا، وهي أول مدرسة طبية في اوربا قامت على أسس المدارس الطبية العربية . وقد ترجم قسطنطين الافريقي كتاب علي بن عباس " كامل الصناع " أو الكتاب الملكي . وقد مهدت ترجمة هذا الكتاب لتقدم دراسة الطب في اوربا . قام اسطفان الانطاكي بترجمة ثانية لهذا الكتاب في سنة ١٢٤٧م .

طليطلة

وكانت مدينة طليطلة ، المركز الرئيسي لنقل التراث العلمي العربي الاسلامي الى اللغة اللاتينية . فقد انشأ فيها المطران ريموندا الأول (١١٢٦م –١١٥١م) مدرسة للترجمة . وكان المترجمون يعملون على شكل جماعات ، على رأس كل جماعة مراجعون ومحققون . وكان النقل يجري احياناً من العربية الى اللاتينية مباشرة ، وأحياناً من العربية إلى اللغات الأخرى ومنها الى اللغة اللاتينية . مباشرة ، وأحياناً من العربية إلى اللغات الأخرى ومنها اللغة اللاتينية .

جيرارد الكريموني :

وظهرت في طليطلة نخبة من المترجمين ما بين سنة ١١٣٥ م و ١٢٨٤ . ومن أشهرهم : جيرارد الكريموني المتوفى سنة ١١٨٧ م . وهو ايطالي درس في اسبانيا ، وعني خاصة بالمؤلفات العلمية فترجم كتب الطب والكيمياء والرياضيات والفلك . ويذكر له المؤرخون ترجمة ما يزيد عن سبعة وثمانين كتاباً من اللغة العربية الى اللاتينية . ومنها قسم الجراحة من كتاب الزهراوي " التصريف لمن عجز عن التاليف " .

ميخائيل سكوت :

وكانت طليطلة تجتذب طلاب العلم من سائر انحاء العالم فقد جاءها من الجزر البريطانية ميخايئل سكوت المتوفى سنة ١٢٣٦م . فأقام فيها مدة ثم رحل إلى صقلية وقد ترجم أثناء اقامته في اسبانيا فلسفة ابن رشد الى اللاتينية . وكانت الهيئة في الفلك للبطروجي .

ومن المترجمين الذين جاؤوا الى طليطلة من الجزر البريطانية واشتغلوا بالترجمة روبرت أوف تشستر الذي نقل كتاب الخوارزمي لأول مرة سنة ١١٤٥ م وأكمل ، مع هرمن الدلماطي ، أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم سنة ١١٤٣ م ونقل روبرت أوف عدداً من الكتب الرياضية والفلكية العربية .

صقلية :

بدأ الاغالبة حكام تونس بالاستيلاء على صقلية سنة ٨٢٧ م الى سنة ٩٠٢م وقد حكمها العرب حتى الاحتلال النورمندي الذي بدأ سنة ١٠٦٠م وتم سنة ١٠٩٠م . على أن الحضارة العربية الاسلامية نفذت الى ايطاليا من صقلية وقد ازدهرت الحضارة العربية في صقلية في عهد النورمنديين . فقد كان الحكام النورمنديون متسامحين ، محبين للحضارة العربية ، فاحتفظوا بنظام الادارة الاسلامية ، وسمحوا للعرب بالانصراف الى الانتاج الخصب في الفن والثقافة والزراعة والصناعة . وقد تقدمت التجارة والصناعة على أيدي العرب وأدخل الزراع العرب الى البلاد زراعة قصب السكر والكتان والزيتون . وساهم الصناع

العرب في تشييد القصور والكنائس فادخلوا فن العمارة الاسلامية الى صقلية وايطاليا .

لقد رعي الملك روجر الأول العلوم العربية ، وقرب الفلاسفة والمنجمين والأطباء الشرقيين وكان الجغرافي الادريسي المولود في سبتة سنة ١١٠٠ م المتوفى في صقلية سنة ١١٦٦م مقرباً الى الملك روجرز الثاني ، وألف له كتابه المشهورفي الجغرافية " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " .

وبلغت الحركة العلمية في صقلية أوج ازدهارها في عهد الامبراطور فرديدريك الثاني ١٢١٥م- ١٢٥٠م . وقد شجع المترجمين على نقل التراث العلمي العربي إلى اللاتينية . فترجم ميخائيل سكوت موجز مؤلفات ارسطو في علم الحياة وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا . وانشأ هذا الملك جامعة نابولي في ايطاليا سنة ١٢٢٤ م . وأودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية . وكان من طلاب هذه الجامعة الفيلسوف القديس توما الاكويني . واستعملت مؤلفات ارسطو وابن رشد ، التي أمر الامبراطور فردريك بترجمتها ، ككتب مدرسية . وأرسلت من هذه الترجمات نسخ الى جامعة باريس وإلى غيرها وفي صقلية ترجم "الحاوي" للرازي سنة ١٢٧٩م .

وقد بعث الامبراطور فردريك الثاني إلى حكام مصر والشام والعراق والأندلس بأسئلة فلسفية ليجيب عنها علماء المسلمين . وقد أجاب عنها عدد من العلماء المسلمين . وقد أجاب عنها عدد من العلماء منهم المفكر الأندلسي ابن سبعين ، وقد حفظت الأسئلة واجوبة ابن السبعين عنها وهي المسماة بـ" المسائل الصقلية " . ونشر نصها العربي سنة ١٩٤٣ م . وتدور الأسئلة فيها حول : قدم العالم ، وأسس ما وراء الطبيعة ، والمقولات المنطقية ، وحقيقة النفس ، وصفات الباري عز وجل والعناية الآلهية ، والخير والشر . وهذا دليل واضح على تاثير الفكر العربي الاسلامي المباشر على الثقافة الاوربية .

ولم تكن صقلية مركزاً لنقل العلوم العربية فقط ، وانما كانت معبراً لانتقال الصناعات والفنون والآداب الى ايطاليا وسائر البلاد الاوربية . يقول الدكتور فيليب : " ان هذه الروح العلمية في البحث والتنقيب والاختبار التجريبي التي تكاد تكون حديثة والتي ميزت بلاط

فردريك لتعين بدء عصر النهضة الايطالية . فقد ازدهرت حركة الشعر والأدب والموسيقى . لم تترجم الكتب العربية فقط الى اللغة اللاتينية . وانما نقلت كتب اليونان التي كانت قد ترجمت الى العربية . لقد عرف الاوربيون ، مثلاً ، الهندسة عن طريق العرب . فقد ترجم كتاب اقليدس "اصول الهندسة" عن الترجمة العربية وبقيت هذه الترجمة تدرس في مدارس اوربا وجامعاتها الى سنة ١٨٥٣م حينما اكتشفت المخطوطة اليونانية .

لقد زاد عدد ما ترجم من الكتب العربية إلى اللاتينية عن ثلاثمائة كتاب . وكانت تلك الكتب أساس الدراسة والثقافة في اوربا حتى عصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي. يقول الفيلسوف الفرنسي رينان : " ان البرت الكبير مدين لابن سينا في كل شئ . وان القديس توما الاكوين مدين في جميع فلسفته لابن رشد " .

وقد اصبحت فلسفة ابن رشد الفلسفة السائدة في اوربا ، وعرفت باسم المدرسة الرشدية . واصبح ابن رشد الفيلسوف المعتمد في جامعات اوربا منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. وفي سنة ١٤٧٣م وأمر الملك لويس الحادي عشر بتدريس مذهب ارسطو وابن رشد في جامعات فرنسا .

وحتى فلاسفة المسلمين المتدينين كان لهم تأثير كبير على رجال الدين والفلاسفة الاوربيين . وتظهر آراء الغزالي بجلاد في مواضع عديدة من كتابي القديس توما الاكوين " خلاصة اللاهوت " و " والخلاصة في الرد على الأمم " .

واما كتب الطب العربي وخاصة مؤلفات ابن سينا والرازي والزهراوي ، فقد ظلت تدرس في بعض جامعات اوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

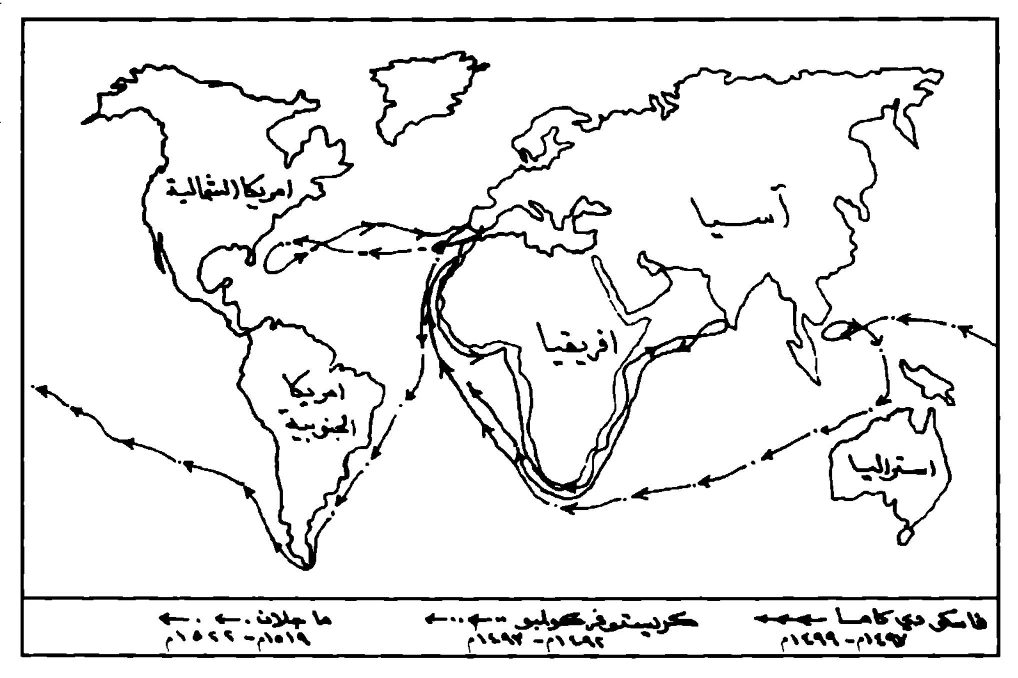
حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) :

كان أثر حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) في نقل العلوم العربية الى الغرب ضئيلاً محدداً على الرغم من ان الفرنجة (الصليبيون) اقاموا في بلاد الشام مدة تزيد على القرنين سادت فيها فترات طويلة من السلم بينهم وبين المسلمين . وتعليل ذلك ان معظم رجال حملات

الفرنجة (الحملات الصليبية) كانوا من المحاربين الأميين ، الذين لم يكن لهم اهتمام بشؤون الثقافة والعلم ، ولم يكن مستواهم الحضاري بدرجة تمكنهم من استيعاب علوم العرب وحضارتهم . فقد نقل الفرنجة (الصليبيون) شيئاً من الفنون العسكرية العربية ، وتأثروا بالعادات والتقاليد الشرقية ، وبهرهم تقدم الحضارة العربية وحرك في أنفسهم روح النقد لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، والرغبة في التجدد والتغيير . وكانت آثار هذه الحروب غير المباشرة على النهضة الاوربية عظيمة جداً ، فقد كانت اتصال الشرق بالغرب ، هذه الفترة الطويلة ، من العوامل المهمة التي ساعدت على نمو الحضارة الاوربية الحديثة ، وأدت الى تغيير الأنظمة الاجتماعية فيها . فقد تأثر أمراء الفرنجة (الصليبيون) وقادتهم بما رأوه من وسائل الترف والراحة في حياة الطبقات الشرقية الغنية فحاولوا تقليدها . فشجعوا التجارة وأدى النشاط التجاري الى ظهور الصناعة وتقدمها ، وحاجتها الى أدوات جديدة تنتج أكبر الكميات بأرخص الأسعار. فأدى الى ضرورة تشجيع العلم والاختراع . وقد اضعفت حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) النظام الاقطاعي في اوربا ، وخاصة في فرنسا وايطاليا بسبب النفقات الباهظة التي تكلفها الإمراء على تجهيز الحملات الحربية ، فأفلس الاقطاعيون الصغار ، ونما الاقطاعيون الكبار فاصبحوا امراء وملوكاً ، اعتمدوا على المدن ، فنمت ، وتقدمت الحياة الاقتصادية فيها وأدت حروب الفرنجة (الحملات الصليبية) الى نمو حركة النقل البحري وظهور دول بحرية جديدة نشيطة كالبندقية وجنوه ، مما أدى الى التنافس التجاري فيما بعد ، وقد قاد هذا التنافس الى محاولة اكتشاف طرق بحرية جديدة والوصول الى الأسواق البعيدة ، واكتشاف مناطق مجهولة أي إلى حركة الاستكشاف الجغرافي عموماً .

الكشوف الجغرافية :

واستفاد الاوربيون من العرب فوائد جليلة في احدى النواحي الأساسية التي قام عليها سلطانهم ألا وهي الكشوف الجغرافية . والكشوف الجغرافية من أهم ما أنتجته النهضة الاوربية الحديثة . وقد استفادوا من كتب العرب الجغرافية ، ومن الخرائط المتقنة التي



وضعوها لمختلف مناطق العالم وطرقه البرية والبحرية ، كما استفادوا من التحسينات التي ادخلها العرب على الملاحة البحرية ، كاستخدام البوصلة والاسطراب في تعيين الاتجاه ، واستفادوا من خبرة الملاحين العرب شخصياً . وقصة الملاح العربي ابن ماجد مع المكتشف البرتغالي فاسكو دا غاما معروفة ومشهورة . لقد حاول الملاحون البرتغاليون الوصول الى الهند ، فأبحروا متبعين ساحل افريقيا الغربي دون أن يبعدوا عنه كثيراً ، وفي سنة ١٤٨٧ م تمكن بارثولومي دياز أن يدور حول رأس الرجاء الصالح ، وسار بمحاذاة الساحل الشرقي للقارة حتى بلغ ماليندي في كينيا . وقد بعث معه ملكها ، بربّان عربي خبير بالملاحة في المحيط هو في أغلب الظن ، شهاب الدين احمد بن ماجد . فتولى هذا الربان العربي ارشاد فاسكوداغاما في مجاهل المحيط الهندي حتى اوصله إلى قيلقوط (كلكتا) في ساحل الهند الشرقي في ١٤ أيار ١٤٩٨ م . واستغرقت الرحلة من ماليندي الى كلكتا ٢٢ يوماً . وقد اطلع الربان العربي فاسكوداغاما على اسطرلاب من المعدن ، وعلى آلات مربعة ، وأخرى مثلثة ، من الخشب لرصد الشمس والنجوم ، كما اطلعه على خرائط ملاحية رسمت عليها

خطوط الطول والعرض . وفي قصة الملاح العربي ابن ماجد دليل واضح على تقدم العرب في فن الملاحة ، وخبرتهم بالمحيطات ، وعلى مدى استفادة الاوربيين منهم في نهضتهم الحديثة.

لعل أعظم آثار العلم الحديث هو المنهج العلمي في التفكير والبحث ، أو ما يسمى بـ (الطريقة العلمية) أو (المنهج العلمي) . فلولا هذا المنهج العلمي لما استطاع العلماء أن يتوصلوا الى الكشف عن عدد من أسرار الطبيعة وحقائق الكون المجهولة ، ويسيطروا على بعض ظواهر الطبيعة ويطبقوا قوانين العلم عملياً فينتجوا هذه المخترعات التي أغنت حياة الانسان ويسرتها . كما انتجوا وسائل الهلاك والدمار الشامل . وينسب اكتشاف منهج البحث العلمي ، ووضع اسسه الأولى ، إلى الفيلسوف الانكليزي فرانسيس بيكون (١٥٦١م -١٦٢٦م) . والعالم الايطالي غاليو (١٥٦٤م -١٦٤٢م) . ان عدداً غير قليل من علماء العرب قد وضعوا قواعد هذا المنهج النظرية ، وطبقوه عملياً في مؤلفاتهم ومراصدهم، ومختبراتهم . وقد أشرنا باختصار الى مناهج البحث العلمي عند الجاحظ والمقدسي وجابر بن حيان وابن الهيثم وغيرهم . ونعود الآن الى الموضوع لتوضيح النقاط التالية : قواعد الطريقة العلمية والخطوات المتبعة فيها . وضع علماء العرب للطريقة العلمية وتطبيقهم لها ، تأثر علماء الغرب بمنهج البحث العلمي عند العرب ، وبناء قواعد المنهج العلمي الحديث على أسس منهاج العرب .

يهدف المنهج العلمي في البحث والتفكير الى معرفة طبيعة الأشياء على ما هي عليه في الواقع ، وفهم القوانين العامة التي تخضع لها الأشياء وتسير بموجبها ، ويتبع الباحث العلمي الخطوات التالية للوصول الى التفسير الصحيح لظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية :

يستوحي من مشاهداته لهذه الظاهرة وما يماثلها فرضاً يفرضه لنفسه تفسيراً لها ، أي بيان أسباب حدوثها ، وطبيعتها ، والظروف المحيطة بحدوثها .

يتسنبط ، أي يستنتج ، من هذا الفرض نتائج تترتب عليه من الوجهة النظرية الصرفة .

ولكن هذا العالم لا يعتبر النتائج التي توصل اليها صحيحة بصورة نهائية قبل أن يقوم بالخطوة الثالثة التالية :

يعود إلى دراسة الظاهرة الطبيعية من جديد ، فيمتحن النتائج التي توصل اليها على ضوئها ، ليرى هل تصدق أو لا تصدق على ضوء مشاهداته الجديدة . فإن صحت نتائجه على الاختبار والفحص الجديد ، يتحول الفرض الذي افترضه الى قانون علمي يستخدم في التنبؤ بما سيحدث فيما يتعلق بهذه الظاهر أو أن ظروفاً بعينها توفرت . أي إذا حدثت الظروف المعينة التي انتجت هذه الظاهرة ، فان الظاهرة بعينها سوف تتكرر . " فطريق السير اذن هو هذا : مشاهدات توحي بفروض ، ثم استنباط للنتائج التي يمكن توليدها من تلك الفروض ، ثم مراجعة النتائج على الواقع ، وعندئذ فإما نقبل الفروض ، أو نرفضها تبعاً لصدق نتائجها على الواقع " .

وتسمى الخطوة الأولى والثالثة " الاستقراء " لأن في كلتا العمليتين مشاهدة الوقائع العينية ، أي حصرها ، ودراستها وفحصها .

وتسمى الخطوة الثانية : " الاستنباط " . وهي عملية توليد النتائج واستخراجها من المفروض .

وكان التفكير القديم يعتمد على الاستنباط ، فقد كان المفكر يعتمد على مقدمات يفترضها صحيحة ، ويستنبط من تلك المقدمات النتائج ، فيسلم بصدقها ، لأنه في سلم مسبقاً بصدق المقدمات . وكان منطق أرسطو يتبع منهج الاستنباط . وسار على هذا النهج ما يسمى بالقياس عند العلماء المسلمين وفقهائهم .

وقد وجد العلماء في مطلع عصر النهضة الاوربية أن منهج الاستنباط وحده لا يسد حاجة التفكير ، فوضعوا قواعد منهج الاستقراء الذي يقوم على أساس المشاهدة واجراء التجارب . ثم وجد العلماء ان منهج الاستقراء وحده لا يكفي . فاندمج المذهب الاستقرائي والمذهب الاستنباطي في منهج واحد وهو الذي يسمى منهج البحث العلمي . وهو يقوم على المشاهدة والملاحظة الخارجية التي يستوحي منها العالم فروضاً يفرضها ، ثم يولد في داخل

عقله بطريق الاستنباط نتائج ينتفع بها في العمل والتطبيق . ثم يقوم باجراء التجارب للتأكد من صحة النتائج التي توصل اليها . وكلما زادت التجارب ، وكلما اجريت في ظروف متغيرة ، كلما كانت النتائج أدق وأوثق صحة .

وقد شرح الرازي هذا المنهج وطبقه في فحوصه الطبية السريرية : وشرحه جابر بن حيان وطبقه في مختبره .

وكان الحسن بن الهيثم يعتمد على الاستقراء أولاً وعلى القياس ثانياً ، وكان اعتماده في الاستقراء على الواقع ، ولكن ليس الواقع الذي يتيسر ادراكه ومعرفته بالمشاهدة البسيطة ، بل الذي تتطلب معرفته الاستهانة بالأجهزة والآلات أيضاً . وكان يعنى بوصف تلك الآلات والأجهزة ، وبيان صنعها وتركيبها واستعمالها . وقد أجمل ابن الهيثم عناصر طريقة البحث العلمي في مقدمة كتابه "المناظر" قال : ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتصنع أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزيئات . ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشبه من كيفية الاحساس . نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج ونجعل غرضنا في جميع ما نستقر به ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء " .

لقد ترجمت كتب الرازي وابن سينا والحسن بن الهيثم وغيرهم من علماء المسلمين الى اللغة اللاتينية . وقد درسها غاليلو وغيره من علماء الغرب ، وعلى الخصوص كتاب ابن الهيثم في المناظر . ولا نبعد عن المنهج العلمي اذا استنتجنا بأن هؤلاء العلماء الغربيين في وضع أسس الطريقة العلمية في البحث . ولكننا يجب أن نحتاط ولا نغالي فنذهب الى القول بأن علماء العرب قد فصلوا مناهج البحث العلمي كما فصلها علماء الغرب ، وتوسعوا في استعمالها كما توسع هؤلاء ، ونشروها بين طلاب العلم وعامة المثقفين كما فعلوا . يقول الاستاذ قدري حافظ طوقان :

" انا لا أقول ان علماء العرب قد توسعوا في هذه الطريقة واستغلوها على النحو الذي

استغلها به علماء اوربا . أنا لا أقول انهم كانوا يدركون ما لهذا الأسلوب من شأن كما أدركه علماء اوربا ولكن أقول أنه وجد بين علماء العرب من سبق (بيكون) في انشائها ، بل ومن زاد على طريقة بيكون التي لم تتوافر فيها جميع عناصر البحوث العلمية " .

" ... ويرجع الأساس في هذا كله (أي في تقدم الرياضيات وايجاد التكامل والتفاضل) إلى المبادئ والأعمال الرياضية التي وضعها علماء اليونان والى الطريقة المبتكرة التي وضعها علماء الهند . وقد أخذ العرب هذه المبادئ وتلك الأعمال والطرق ، ودرسوها وأصلحوا بعضها ثم زادوا عليها زيادات هامة تدل على نضج في أفكارهم وخصب في عقولهم . وبعد ذلك أصبح التراث العربي حافزاً لعلماء ايطاليا واسبانيا ، ثم لبقية بلدان اوربا الى دراسة الرياضيات والاهتمام بها . وأخيراً أتى (فيتا) ووضع مبدأ استعمال الرموز في الجبر ، وقد وجد فيه ديكارت ما ساعده على التقدم ببحوثه في الهندسة خطوات واسعة فاصلة مهدت السبيل الى تقدم العلوم الرياضية وارتقائها تقدماً وارتقاءاً نشأ عنهما علم الطبيعة الحديث وقامت عليهما مدنيتنا الحالية .. " .

مراجع

١ – أثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية . القاهرة ١٩٧٠ .

٢ – حضارة العرب تاليف غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر .

٣ – تراث الاسلام : أرنولد . الترجمة العربية .

اسئلة

١ – ما هي أهم الطرق التي انتقلت بواسطتها العلوم العربية الى الغرب ؟

٢ – من هم أهم المترجمين من العربية الى اللاتينية ؟

٣ – ما هي قصة ابن ماجد مع فاسكودا غاما وماذا نستنتج منها ؟

٤ – ما معنى الاستقراء والاستنباط ؟

٥ – اشرح المنهج العلمي في البحث ووضح خطواته .

٦ – هل عرف علماء العرب "المنهج العلمي" وهل تأثر علماء الغرب بهذا المنهج ؟ اشرح رأيك واذكر أدلة على ما تقول مستشهداً باثنين من علماء العرب المشهورين

نشاط

خُذ خريطة صماء للدولة العربية الاسلامية وأشر عليها طرق انتقال الحضارة العربية الاسلامية الى اوربا .

تاريخ الحضارة العربية الاسلامية

للصف الرابع العام

الفهرست

المواضيع	الصفحة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (١١٢٧) لسنة ١٩٨٥